عــــــرب بين النهريــــن

و

آســـيا العثمانيـــــــة

و

مس بيل

حميد مجيد عبّـــاوي
عربه الى اللغة العربية

حســـان علي آل بازركان
نقحه وراجعه وكتب هوامشه وتعليقاته
وأعده للنشر

الطبعة الأولى

2005

عرب بين النـهرين

القسم الأول

المفتاح

مباحث القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

شكل ١٤١ – بسملة بقلم الثلث، كتبها ابن البواب في رسالة من رسائل الجاحظ من كتاب بدائع الخط العربي رقم ١٩٧ للأستاذ ناجي زين الدين المصرف.

قال القاضي الاندلسي أبو القاسم صاعد بن أحمد القرطبي [1] يصف الاوربيين:

((... افراط بعد الشمس عن سامة رؤوسهم وبرودة هوائهم وكثف جوّهم فصارت لذلك امزجتهم باردة واخلاطهم فجّة فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذه دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة)).

---

[1] صاعد الاندلسى (أبو القاسم أحمد) (١٠٢٩-١٠٧٠)

مؤرخ اندلسى ولد فى المرية- قرطبى الأصل، ولى قضاء المالكية فى طليطلة اشتهر بكتابة (طبقات الأمم) فى تاريث الأجناس والحضارات وله (مقالات أهل الملل والنحل) (وإصلاح حركة النجوم).

المنجد فى اللغة والإعلام الطبقة الثامنة والثلاثون دار المشرق بيروت طبع سنة ٢٠٠٠ صفحة ٣٤٢ العمود الثانى المنجد فى الإعلام الطبعة الرابعة والعشرون مجددة.

الحيزوم [1]

عندما حزت على كتاب (عرب بين النهرين) سنة ١٩٥٠، تمنيت تعريبه لأهميته وبقيت الرغبة تجيش في نفسي حتى سنة ١٩٨٥ بعد ان تقاعدت من الوظيفة.

ثم قيضَ الله لي صديقاً له خبرة كبيرة في مجال اللغة الإنكليزية، هو الأستاذ حميد مجيد عبّاوي يرحمه الله – التدريسي في المدارس الإعدادية آنذاك – فعرضت عليه الأمر فتجاوب معي مشكوراً وهكذا تم تعريب الكتاب.

ثم راجعت الترجمة ونقحتها. وبدأت بكتابة الحواشي شرحاً للمغلق من الأمور وعلقت على بعضها وكتبت طروحات حول بعض ما جاء فيها، وقد راجعت من أجل ذلك مصادر ومراجع عديدة من أجل الوصول إلى معلومات شافية بل حتى اتصلت بأشخاص لهم خبرتهم في مجال اختصاصهم وقد أشرت إلى ذلك.

الكتاب كتب باللغة الإنكليزية على شكل مقالات ونشرت الصحف بعضها. والكتاب موجه إلى الإنكليز القادمين مع القوات الغازية للعراق لتعريفهم بأوضاع البلد – العراق الذي يقاتلون فيه ضد العثمانيين الحاكمين فيه – الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حيث نزلت قواتهم في ٧ تشرين الثاني ١٩١٤ في جنوب العراق. والكتاب كتبت مقالاته شخصيات بارزة زارت العراق والمناطق التي حوله قبل الحرب العالمية الأولى وجابت تلك الربوع خدمة لأغراضهم المستقبلية.

ثم إن القيادة الإنكليزية الموجودة في البصرة ارتأت جمع هذه المقالات بكتاب وطبعه في مطابعها في البصرة سنة ١٩١٦ وذلك قبل احتلالهم بغداد.

إن هذه المقالات تمثل وجهة النظر الإنكليزية عن المناطق أو القضايا التي كتبت عنها وهي عبارة عن دراسة للمجتمع العراقي وما فيه حسب نظر السائح

---

[1] **مقدمة السفينة التي تشق به عباب الماء**

من مشاكل وقضايا لفتت انتباهه لمعرفة السلبيات والإيجابيات في هذا المجتمع العراقي سواء مشاكل الإدارة العثمانية أو سكان الريف والعشائر وسكان المدن مع دراسة معتقداتهم الدينية والمذهبية كما تراءى لهم. وإنني أبقيت عند تعريبه على الاسم الذي كان عنوان الكتاب بالإنكليزية (عرب بين النهرين) وكان بإمكاني -كما جرت العادة للمعربين ان يغيروا أسماء الكتب المعربة حسب أذواقهم- وان اجعل عنوانه (عرب وادي الرافدين).

إن دراسة مثل هذه الكتب أجدها مهمة جداً إلينا لأننا سنتعرف على سلبيات مجتمعنا وإيجابياته لنتجاوز السلبيات ونعمق الإيجابيات مع العمل على الارتقاء بمجتمعنا العربي في العراق.

والكتاب كتب بلغة أدبية عالية الدرجة بالإنكليزية ولذا لاقى المعرب صعوبة لفهم المراد من كل مقطع حتى تكون الترجمة تفي بالغرض ومطابقة لما كتب ومفهومة للقارئ العربي وقد بذل أقصى الجهد في عمله هذا ولذا فهو مشكور على ما قام به من عمل مجيد.

الكتاب يتكون من قسمين من المقالات يحوي القسم الأول على عشر مقالات خص بها العراق والمناطق المتصلة والمحيطة به ويحوي القسم الثاني على ست مقالات خصت بها آسيا العثمانية والشام كتبتها المس بيل.[١]

---

[١] المس بيل موظفة إنكليزية ولدت في انكلترا سنة ١٨٦٨ وتوفت في بغداد سنة ١٩٢٦، ولها كتب ودراسات كثيرة عن العراق. جابت تلك المناطق بنفسها وبمفردها قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ وكونت علاقات اجتماعية مع كثير ممن زارتهم في تلك المناطق وقد كانت قد أتمت تعليمها الجامعي وملخص قصة حياتها راجع كتاب (العراق في رسائل المس بيل) المطبوع في مطبعة الحرية ببغداد سنة ١٩٧٧ لمقالة كتبها الأستاذ عبد الحميد العلوجي للاستزادة من المعلومات.

علماً أني زودت الطبعة العربية المعربة بخرائط نادرة تساعد القارئ على متابعة الأحداث وهي تمثل المرحلة التي كتبت فيها هذه الرسائل وأيضاً للتعرف على الخارطة السياسية التي كانت آنذاك للمنطقة المشمولة بالمقالات.

وان الحواشي والتعليقات والطروحات تعود لي ولا دخل للأستاذ حميد عباوي فيها لا من قريب ولا من بعيد وإنها تمثل أفكاري وعقيدتي التاريخية. كما عزفت عن استعراض أسماء عناوين المقالات حيث ثبتها في مفتاح الكتاب والرجوع إليها أكثر فائدة.

مشكلتنا نحن العرب مع الأوربيين ليست جديدة بل تمتد منذ أن نهض العرب بعد مراوحتهم عند احتلال مدينة بابل من قبل الاخمينيين سنة ٥٣٨ قبل الميلاد[١] وقد نهضوا في ٦١٠ فرنجية عند ولادة الإسلام كما يصوره الأوربيون.[٢] من مراوحتهم الثانية. ان الأوربيين الذين أخذوا الحضارة من العرب عن طريق الغزو الصليبي وجزيرة صقلية والأندلس بدأت نهضتهم الثانية بعد أن دخل العرب في مراوحتهم الثالثة. وقد بنى الأوربيين حضارتهم الجديدة على التراث اليوناني (الإغريقي) الروماني وعلى الديانة النصرانية التي جاءتهم من المشرق العربي والبسوها طابعهم الوثني ثم طوروا التكنولوجيا والعلوم والتي قرنوها بها.

---

[١] دليل المتحف العراقي بقلم الدكتور فرج بصمه جي مطبعة الحكومة العراقية ببغداد سنة ١٩٦٠ صفحة ٤٥.

[٢] الأستاذ الدكتور و.ب.ستيفينسن أستاذ اللغات السامية في جامعة كلاسكو– تاريخ العالم نشر جون.ا.هامرتن الفصل التاسع بعد المائة تحت عنوان الحروب الصليبية وأثرها، نتائج الاتصال بين النصارى والمسلمين في المملكة اللاتينية ببيت المقدس. ترجمته المعارف العمومية بمصر ونشرته مكتبة النهضة المصرية المجلد الخامس سنة ١٩٥٥.

ان حركة المراوحة الثالثة للعرب بدأ العرب بتجاوزها وانتقلت من مرحلة الوقوف الى مرحلة الحركة للانطلاق في السير وقد حاول الغرب في أوربا وامريكا (اورميركا) حيال تقدم العرب فوضعوا امامهم كل العراقيل العسكرية والثقافية والسياسية ومحاولة حجب العلوم وخاصة التكنولوجية عنهم ورغم ان مرحلة الاجتياز صعبة جدا لان عجلة التاريخ تدور لصالحنا وان كان الظاهر عكس ذلك الا اننا سنجتاز الصعاب ان شاء الله. وتأخذ امتنا العربية مكانتها تحت الشمس مرة أخرى. لقد كانت مراوحتنا الثالثة التي امتدت إلى عشرات الحقب[١] من السنين وان شاء الله بعزيمتنا بعد الاتكال على الله سنجتاز هذه المعوقات.

هذا الكتاب الذي نقدمه الآن نرجو من القارئ ان يعذرنا إذا كان وجد من تقصير منا في أي مجال يعثر عليه في الكتاب ويكتب الينا، وعلى الله فليتوكل الكاتبون. [٢]

---

[١] كل حقبة ٨٣ سنة هلالية.

[٢] إن ما كتبناه في حواشي الكتاب ما هو إلا شرحا لما كتبته الكاتبة ليفهم ما هو مغلق من الكتابات لان الكتاب كتب للقارئ الأوربي والقارئ العربي ضرورة إلمامه بخلفيات الكتابة. قد يسأل سائل وهو قارئ لماذا أعد حسان علي آل بازركان حواشي الكتاب في نهاية كل قسم بينما في كتبه التي أعدها وقدمها كانت الحواش في سفالة الصفحة؟ سؤال وجيه أجيب عليه نقول تلك الكتب كانت مذكرات ولذا كتبنا حواشيها في أسفل الصفحة حتى يتجاوب مع قراءة الكتاب وقد يتوقف هنيهة في كل مقطع ليذاكر نفسه أما في هذا الكتاب (عرب بين النهرين) أطلقنا العنان إلى مؤلفة الكتاب والقارئ يقرأ ذلك بترابط ونحن لا نريد أن نقطع قراءة القارئ أو نقاطعه حتى يسترسل في تفكيره أثناء القراءة وجعلنا الحواش في نهاية كل قسم فربما يقرأها القارئ جملة واحدة أو أن يعود من الهامش إلى المتن أو من المتن إلى الحاشية فهو حر بذلك.

لكل تبويب كتاب فلسفة وجمالية عندي.

حسان على آل بازركان

عرب بين النهرين

طبع ونشر بواسطة ناظر مطبعة الحكومة
في البصرة [1]

---
[1] سلطة قوات الاحتلال الإنكليزية

مقدمة المؤلف

يتكون هذا الكراس من سلسلة من المقالات الموجزة عن مواضيع تتعلق بما بين النهرين (١) كتبها خلال سنة ١٩١٦ أشخاص لهم معرفة خاصة بمواضيع البحث.

جميع هذه المقالات نشرت بشكل ما ولكن رؤي أن العديد من أولئك الذين دفعتهم الحرب إلى هذه المناطق من العالم سيكونون سعداء بفرصة الحصول عليها (المقالات) بشكل ثابت ومناسب.

فلهذا الغرض أعيد طبعها وعرضت للبيع (٢).

المقالة الأولى

القبائل العربية بين النهرين(٣)[١]

سكنت منطقة الدلتا التي يسقيها دجلة والفرات اتحادات قبلية عربيـــة مـــستقرة نوعا ما هاجرت إليها من الصحارى العربية واستقر بعضها بين النهرين منذ زمن بعيد وجاء البعض الآخر خلال المائتين أو الثلاث مائة سنة الأخيـــرة وجمـــيعهم بالأصل بدو رحلوا من المناطق البدائية داخل الجزيرة العربيـــة ويعتبـــر نـــزوح شعوب هذه المناطق المتواصل شمالاً، [واحدا] من أهم العوامل في تاريخ الجزيرة العربية. وربما كانت أسباب ذلك الرئيسية أسبابا معقـــدة ومـــن أهمهـــا التحـــول التدريجي الذي لابد منه في الظروف المناخية للهضبة وجفافها البطيء إضافة إلى زيادة عدد السكان على أرض تزداد فقراً بصورة مستمرة. كانت المراعي الغنيـــة لسوريا والخصوبة العظيمة لأرض بين النهرين تمثلان اغراءات لا يتمكن البدوي الذي ضامه الجوع مقاومتها ووجد فيها فرصاً للتوسع في ضعف الولايات الشمالية المجاورة ووهنها السياسي سواء كانت هذه الولايات تركيـــة (٤) أو بيزنطيـــة أو فارسية أو تعود إلى إمبراطوريات سابقة. ان تاريخ بابل الطويل يتيح لنا ان نتتبع عملية الهجرة بمراحلها التاريخية الأولى وبدراسة الظروف المتواجدة تظهر أنهـــا كانت مستمرة إلى عهد قريب وإذا ما تجرأنا على التنبؤ فأنها سوف لن تتوقف في المستقبل وان تغيرت طبيعة الهجرة فعوضا عن الجحافـــل المـــدمرة والمندفعـــة كأسراب الجراد فوق حقل للحبوب أو مرعى فان فائض الـــسكان فـــي الجزيـــرة العربية قد يجد بين النهرين التي أعيد بناؤها من قبل إدارة جيدة مجالات كثيـــرة

---

[١] **يمكن الرجوع إلى الحواشي في نهاية القسم.**

للعيش كما يجد إمكانيات بعيدة المدى للتقدم الاجتماعي والفكري، وسترحب بهم ارض تقدم لهم فيها مصادر غير محدودة للرزق لكي يستفاد منها استفادة متناسبة مع العمل الذي يقدم.

لقد كانت عملية تغيير مربي الجمال وراعيها إلى مزارع للأرض (بقدر ما حصل) بين النهرين عملية محتمة. ففي تقدمها شمالاً وجدت القبائل نفسها في النهاية على حدود الصحراء الخارجية، ولم تعد تمتد أمامها المساحات العريضة من الأرض الضرورية للوجود البدوي وفي نفس الوقت منعتها ضغوط أولئك الذين كانوا وراءها من أي محاولة للعودة. فكانت مرغمة على النظر إلى الزراعة كوسيلة للعيش. وبهذه الصورة فقدوا احترام البدوي الحقيقي لهم. ومع ان البدوي الذي يحتقر التزاوج مع مستغلي الأرض ورعاة الغنم أو الجاموس فهم مع هذا من نفس الدم والتقاليد وفي الغالب يتواجد أجزاء من قبائل عربية شهيرة وقديمة جداً بين هؤلاء الزراع في التخوم الخارجية للهجرة العربية. وهكذا فان بني تميم بين النهرين والذين ينقسمون إلى مجاميع قبلية كبيرة كانوا أسيادا لأواسط الجزيرة العربية قبل الإسلام ولا زالوا يشكلون جزءاً كبيراً من سكان الواحات وان ظهورهم في ما بين النهرين يعود إلى بداية العصر الإسلامي. والخزرج الذين يتواجدون بصورة رئيسية الآن على ضفاف دجلة فوق بغداد لا يزالون يتغنون بالشعر العاطفي الذي زودهم به شعراؤهم قبل الإسلام أثناء غزواتهم للصحارى الجنوبية.

ومن ظروف الاستقرار هذه ندرك ان القبائل القديمة انتشرت على حافات المنطقة الزراعية على شكل وحدات كبيرة كانت في وقت ما تمتد إلى مساحات واسعة من الصحراء نتيجة انقسامها ودخول عشائر أخرى بينهم ومثالا على ذلك قبيلة الجبور تعتبر الآن نصف بدوية تتواجد على دجلة شمالاً من الموصل إضافة إلى تواجدها على الحدود الشرقية لسوريا وكذلك قبيلة زبيد المنشطرة في ما بين النهرين والمناطق البركانية شرق دمشق.

وكان الانتقال من حالة البداوة إلى الحياة المستقرة عملية بطيئة وفرص الأمان القليلة التي وفرتها الإدارة التركية لم تسرع في ذلك الانتقال. ففيما عدا المناطق المجاورة للمدن الكبيرة كبغداد والبصرة فان التنظيمات العشائرية لم تتوقف واستمر التمسك بقوانينها وعاداتها حيث استمرت نزاعات الدم (الثأر) تكوّن مصدراً لمعاناة كبيرة. وكان هنالك رجوع موسمي إلى الخيام وحتى سكان قرى القصب كانوا أنصاف بدو لانتقالهم غالباً من مكان لآخر.

وكان من الصعب على راسم الخرائط أن يحدد موقعاً جغرافياً معيناً لأي قبيلة تتحول أمام عينيه إلى موقع جديد آخر غير الذي حدده في مسحه السابق. أن القيمة المتزايدة للأرض تميل إلى تثبيت أولئك المزارعين القلقين إلى أرضهم وحالاً تزداد أعدادهم مقارنة بإخوانهم الأكثر كبرياء وجوعاً الذين يرفضون حراثة الأرض البكر وحصادها. فاتحاد قبائل المنتفك (٥) يمثل مساحة من الأرض تقرب من ٦٥ ميلاً من الشرق إلى الغرب و٥٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وبلغ تعداد نفوسها حوالي ٢٠٠،٠٠٠ نسمة بينما نرى أن كامل قبيلة عنزة التي تسكن الصحراء السورية من حلب إلى رمال أواسط الجزيرة العربية لا يتجاوز تعداد نفوسها الرقم المذكور.

إن وجود مدينتي كربلاء والنجف كأثنيتين من أهم الأماكن المقدسة لدى الشيعة في بلاد بين النهرين ولقرب بلاد فارس وكثرة الحجاج (الزوار للعتبتين المقدستين) من الفرس جعلت البلاد متأثرة بالنفوذ الفارسي. ويعتبر سكان الجزيرة العربية البدو من جماعة المذهب السني في الإسلام، بينما تعتبر القبائل المستقرة في بلاد بين النهرين شيعة دون استثناء. أما الجمّالون الذين احتفظوا بالعادات البدوية الخالصة وعادات الصحراء فهم على مذهب السنة غالباً.

أما من رأس الخليج العربي وحتى القرنة فقد اندثرت التنظيمات العشائرية تقريباً، غير ان العديد من الفلاحين العاملين في بساتين النخيل ينتمون إلى قبائل

حليفنا المخلص على الجانب الفارسي من شط العرب – شيخ المحمرة القوي – الشيخ خزعل – الذي كان في الماضي يحتفظ بحق استغلالهم في غزواته القبلية. أما فوق القرنة وفي الأرض الواقعة بين الفرات ودجلة لمسافة ما على جانبي النهرين سكنت قبائل المنتفك وهي عبارة عن اتحاد غير متماسك لقبائل مختلفة يعترف القسم منها بسلطة آل السعدون كثيراً ويعترف القسم الآخر بسلطة آل السعدون بنسبة أقل. وآل السعدون هم احدى عوائل مكة القريبة جداً من عائلة الشريف (٦) حيث إن فرعاً منها هاجر إلى ما بين النهرين حوالي نهاية العصر العباسي في بداية القرن الخامس عشر ميلادي تقريباً ولكونهم من أنقى سلالات السنّة بسطوا نفوذهم على القبائل الشيعية ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة العاصف (٧). أما بالنسبة إلى أحد أفراد هذه العائلة (٨) الذي قدم خدمات كبيرة في أواسط الجزيرة العربية فقد جرب الباب العالي – أي السلطة العثمانية تعيينه والياً على البصرة ولكن سرعان ما فشلت التجربة فأقيل من منصبه. [١]

في السنوات الأخيرة ضعفت سلطتها كأسرة حاكمة تدريجياً حيث سببت النزاعات الداخلية بين أفراد قبيلة السعدون ضعفاً في سلطتها كأسرة حاكمة بصورة تدريجية، أما في الوقت الحاضر فرغم امتلاك عائلة السعدون لكثير من العقارات الكبيرة في مدينة البصرة فهم لا يستحصلون إلا القليل من أقنانهم القبليين (من الزراعة) ورغم احتفاظ عائلة السعدون بسمعتها الكبيرة الا انهم كرؤساء قبائل أصبحت قليلة (٩).

لقد كان موقع آل السعدون نتيجة تأثرهم باندلاع الحرب بين تركيا وانكلترا صعباً لان العديد منهم يملكون أراضي في كل المناطق الواقعة تحت الاحتلال الإنكليزي والأراضي التي يسيطر عليها الأتراك الآن.

---

[١] راجع صفحة ٧٩/٨٠ فقرة ٨ هو ناصر باشا بن راشد بن آل سعدون.

إلا إن سلوكهم بصورة عامة كان مدركاً وذكياً ما عدا أثنين أو ثلاثة (١٠) من مثيري المشكلات منهم الذين سينضمون ولا شك إلى الركب عندما يقتنعون بان الحكم التركي قد زال إلى الأبد من ولاية البصرة.

ان جزءاً من قبائل المنتفك لا زال بدواً أما القسم الآخر فسكن أكواخ القصب أو القرى وحتى المدن وهم يزرعون الأرض ويرعون الأغنام والجاموس والجمال. والعديد منهم ينتمون إلى القطاعات المستقرة يجوبون الصحراء في الربيع مع قطعانهم طلباً للمرعى.

ان قبائل جنوب بلاد بين النهرين أفضل تسليحاً من تلك القبائل الساكنة شمالي الكوت. وقبائل المنتفك مزودة بكمية جيدة من البنادق الحديثة. وفوقهم على امتداد دجلة حتى الكوت تقريباً تسكن قبيلتان كبيرتان قويتان في الأرض التي تمتد من النهر وحتى المرتفعات الفارسية. إحداهما البو محمد التي تعتبر ذات درجة اجتماعية واطئة وربما ليست ذات أصل عربي فأفرادها يعملون بزراعة الرز في الأهوار على جانبي دجلة ويربون قطعاناً كبيرة من الجاموس التي تصدر إلى سوريا بأعداد كبيرة. وكغيرهم من سكان الأهوار فهم يحافظون على شبه استقلالهم وهم مسلحون بالبنادق حتى أصغر رجالهم. أما القبيلة الثانية – قبيلة بني لام– فقد سكنت المنطقة الواقعة شمال العمارة منذ أربعة أو خمسة قرون، ويدّعي شيوخهم انتماءهم إلى سلالة قبيلة مشهورة قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية (١١) ولكن بالرغم من ادعاءاتهم فان بدو مناطق الصحراء الداخلية للجزيرة العربية لا يعتبرونهم مساوين لهم فلا يتزاوجون معهم. وأحد مشاهير شيوخهم – غضبان (١٢) – الذي كان متمرداً كبيراً على الحكومة العثمانية قبل الحرب التحق بالأتراك ضدنا ولكنه أعاد النظر في موقفه وأصبح متفقاً معنا مع أكثر أفراد عائلته، حالما تقدمت جيوشنا صعوداً في دجلة. ويعتبر أفراد بني لام فلاحون الا أنهم لم يهجروا حياة البداوة كلياً. فبين شهري شباط وحزيران من كل عام

يخرجون للرعي ويسكنون الخيام.وفي بلاد بين النهرين تعتبر خيولهم وجمالهم من أفضل الأنواع، وهم رماة جيدون وخصوصاً من على ظهر خيولهم.

وتسكن قبيلة ربيعة ذات الشهرة العريقة حول الكوت وعلى نهر دجلة والجزء الأعلى من قناة الحي العظيمة التي تتفرع من نهر دجلة باتجاه الجنوب الغربي (نهر الغراف) وهي قبيلة أناسها قساة غير نظاميين سراق مشهورون بتعرضهم لطرق المواصلات على طول النهر لكنهم غير مسلحين كتسليح جيرانهم الجنوبيين.

أما قبيلتي شمر طوقة (١٣) والزبيد اللتان تزرعان شواطئ دجلة شمالاً حتى مدينة بغداد فهما أقل تسليحاً بالبنادق واكثر خضوعاً. أما سكان أهوار الفرات شمال الناصرية فبالرغم من ان شهرتهم أقل فانهم لم يظهروا بمظهر الأعداء نحونا.

وبالرغم من ظهور أولئك السكان البرمائيين في كلا المستنقعات وأحواض القصب في أسفل سلم الحضارة، فإن سرعة العربي المذهلة بتكييف نفسه والاستفادة من الفرص غير المتوقعة يجب أن تبقى في الذاكرة. فالطفل الذي ولد بالأمس في كوخ القصب أو خيمة شعر الماعز قد نراه بعد أقل من ربع قرن يدرس الطب أو المحاماة في بغداد بالرغم من تفضيل والده الالتزام ببعض العادات القبلية القديمة، وأنه يختار الحياة البسيطة رغم وجود رصيد ثابت في المصرف – راضياً غير مضطر.

المقالة الثانية

أساس نظام الحكم التركي في الولايات العربية العثمانية

لم يظهر للعالم حكم مستقر ولا حكومة مركزية في أي بلد أعظم مما أظهرته الإمبراطورية العثمانية. فعلى الورق دون كل أشكال الحكم الكفوء وكل أساليب الإدارة يمكن أن توجد في مكانها الصحيح لكل رموزها المناسبة وكوادرها بدءاً من الباشا وانتهاءً بالجندرمة (١٤) يتقاضى جميعهم رواتب مناسبة حددت بوضوح وعليهم واجبات محددة. وفي الوقت المناسب تسجل نتائج الواجبات والاعمال التي قام بها هؤلاء كجبي الضرائب التي فرضوها وتعبيد الطرق التي فتحوها عبر الجبال والصحارى، والواجبات التي قاموا بها بدقة سواء على نطاق الولاية أو حدود البلدية. أما بالنسبة للمتحري الدقيق الذي ينقل تحرياته أبعد مما هو مكتوب على الورق ويستعرض الموظفين ويحسب ما في أكياس النقود أو يسافر في طرق السلطان الهوائية التركيب (١٥) فسيصاب بخيبة أمل. وكل من ترغمه الظروف على دراسة العلاقات المتواجدة بين الدليل الوثائقي المكتوب للأتراك وبين الحقائق المجردة للإمبراطورية العثمانية سيجد نفسه حائراً ومنزعجاً لتوقف سيره بسبب سيول لا تقطعها جسور أو بسبب طلقات بنادق الإقطاعيين المحليين الذين لم يمكن تطبيق فكرة السيطرة عليهم كما هو مطلوب، أو عندما يتحدث اليه الوالي في الولاية عن المزايا التي نتجت للارض من بعد نظرة فيما يخص الجسور المناسبة، أو عندما تؤكد له القيادة بأن كل جزء من الأرض كانت ترفرف عليه أجنحة حمامات سلام السلطان.

وبنظرة تقويم عاجلة نرى مجرّد نجاح الإمبراطورية التركية في ادارة نفسها شيئاً مدهشاً ولكن التآلف المتزايد مع الحياة يعطينا دليلاً على جزء من المشكلة. فلم تكن الدولة تدار بموجب الكتب الرسمية وإنما بقوانين غير مكتوبة (١٦)

واستعدادات غير مسجلة للحكومة وعادات في القيادة والطاعة متوارثة من الماضي البعيد ونافذة حتى الوقت الحاضر. تلك العادات لم تكن بعيدة الشبه عما كانت عليه في الماضي (١٧). إنها لم تتحقق بنفوذ الوالي أو القائد وإنما بسلطة كبار رجال القرى – الشيخ أو السيد. ففي خارج نطاق المدينة المحدودة أهمل التركيب الرسمي للدولة التي كان ممكناً أن يكون أكثر تأثيراً إذا ما اتبعت أساليب أكثر تقدماً. وفي جزء كبير من تركيا الآسيوية بقي التنفيذ بأيدي رجال لم يكن لهم دور في الدولة ولكن طالما كان الأساس النهائي للإدارة الأصلية إلى حد كبير ليس بذات علاقة بالموظفين العثمانيين فان هذه الإدارة سوف لن تتأثر إذا ما اختفى أي من أولئك الموظفين من أي جزء من الإمبراطورية. ولم تكن سلطة الشيخ قد جاءت من السلطان أو الدستور ولم تكن تتماشى معها. ان لهذه السلطة جذورها العميقة في حياة الناس اليومية وستبقى لأجيال عديدة لاحقة أساساً للقانون والنظام إذا ما تم تنفيذها بحكمة. وفي الحقيقة ستقوم مقام الحكومة إلى أن يحين الوقت الذي تقوم به وسائل المواصلات المتطورة وتتسع دائرة المعارف ستؤدي بصورة طبيعية لتصل إلى درجة من المركزية المثمرة. ويمكن التنبؤ بأن هذه المركزية ستكون مختلفة عن المركزية التي جاهدت جمعية الاتحاد والترقي لفرضها على الشعوب والأجناس التي جرّتها إلى حربين مدمرتين (١٨) خلال ست سنوات.

ان المادة المتواجدة في أيدي أولئك الذين قد يتم استدعاءهم لغرض القيام بالعمل العظيم في خلق الازدهار في الأراضي الغنية والتي بقيت أراضي بكراً لأكثر من خمسة قرون، لا يمكن استعراض هذا الموضوع بصورة واسعة من فترة حكم الإدارة القضائية. أن القضاء التركي كان مألوفاً لدى جميع السكان وأغلب المسافرين في الإمبراطورية العثمانية كانوا يعتمدون كلياً على التشريع الديني ولكن تركيا حورت التزامها التام بالتشريع الديني إلى حد ما وذلك بفرض أحكام مشتقة في الغالب من تشريعات نابليون ولهذا كان القانون الجنائي والإجراءات الجنائية النافذة في المحاكم التركية يعتمدان على مثيلتهما من الأحكام الفرنسية كما

إن قانون الإجراءات التجارية النافذ في المحاكم التجارية نابعاً من نفس المصدر (المصدر الفرنسي). ومع هذا فأن الأجانب رفضوا تطبيق قانون الإجراءات التجارية على أنفسهم فيما عدا القضايا التي لا تزيد عن مبلغ (١٠) ليرات ذهب تركية. أما في القضايا الأخرى التي تهمهم فكانوا يلجئون إلى القانون المدني (١٩) (المجلة) الذي يعتمد على التشريعات الدينية الإسلامية وهو قانون شرعه قضائيين أتراك. ولكون جميع الأتراك من السنة وأغلبهم من المذهب الحنفي فان هؤلاء المشرعين اعتمدوا على المذهب الحنفي في تشريعهم وبالنتيجة أرغم الشيعة على الخضوع لهذا التشريع المعتمد على المذهب الحنفي بالرغم من أنهم يمثلون ٩٠% من سكان بين النهرين والبقية من أهل السنة حيث ينتمون إلى ثلاثة مذاهب أخرى غير المذهب الحنفي وهي المالكي والشافعي والحنبلي. وكانت المجلة تعالج قضايا تتعلق بالإيجار والبيع والمقايضة والعقود والشهادة وقضايا عديدة أخرى ولكن مع هذا هناك كمية كبيرة من القضايا المدنية التي لم يختص بها. فجميع قضايا المنازعات البيتية والزواج والطلاق وما يخص العلاقة بين الزوج وزوجته والأولاد وقضايا الإرث وجميع قضايا الأرض كانت تنظر بها محكمة الشرع التي يرأسها حاكم مدني بل قاضي. ولم يعتمد قانون الشرع على قوانين موضوعة واضحة ويمكن مقارنتها بقوانيننا الشرعية التي متى ما كان فيها القاضي واقفاً تحت طائلة الشك فانه يبحث عن الحل في نص من العهد الجديد أو العهد القديم. كان الشرع يعتمد على رأي القاضي الخاص أو بعبارة أصح على تفسيره الخاص للقرآن وعلى التقاليد أو العرف أو تفسير أسلافه (٢٠).

وبإيجاز فان القانون التركي كان على تلك الحالة. ومن الناحية النظرية كان ذلك القانون يعنى بكل المنازعات في الإمبراطورية التركية ابتداء من المنازعات بين تجار استانبول إلى منازعات زعماء الأكراد في قلاعهم الجبلية وانتهاء بمنازعات شيوخ العرب في صحاريهم ولكن أي اطلاع سريع على أوضاع مقاطعات الإمبراطورية يثبت عكس هذه الناحية النظرية. فخذ على سبيل المثال

الجزيرة العربية تحت الحكم التركي يمكن أن يقتنع المشاهد سريعاً أن نفوذ أوامر السلطان لا وجود لها إذا ابتعدنا عشر ساعات إلى الغرب من بغداد وأكثر من هذا إلى الجنوب من عاصمة العراق. أما على بعد ساعتين والى جنوب شرق دمشق فقد كان ذلك القانون موضع سخرية. وحتى بوجود رجال أو ضباط الجاندرمة في مكان ما لتثبيت نفوذ القانون فانه في هذه الحالة لم يكن للمحاكم المدنية أو الجنائية أو الشرعية أو للحاكم أو للقاضي دخل في تنظيم العلاقة بين رجل ورجل أو تحديد العقوبات على خروقات حدثت أمامهم. فوراء أي ترتيبات قانونية تكمن القرارات القديمة المعروفة والمحترمة لكونها الحصيلة الطبيعية للحاجات الاجتماعية وكونها عقداً اجتماعياً صادقاً يسلم بحكمة حامليه إلى اخلافهم الذين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام مشاكل وقضايا لم تؤثر بها مرور القرون. فقد كان رئيس القبيلة أو الأمير العربي يجلس كملوك بابل الذين جلسوا ليحكموا بين رعاياهم بدون اللجوء إلى قانون أو إجراء (٢١). كان الشيخ يصغي لشكوى الناس وهم جالسون حول نار ديوانه يشربون القهوة ويعطي قراره بحسب سرعة البداهة التي يمتلكها يساعده في ذلك اعتباره المناسب للعادات القبلية ويطلب من شاربي القهوة أمامه أن يكونوا شهودا أمام الله على حكمه. أو إن سيد القبيلة الذي يحمل سمعة قوية وذو شعبية اعظم من أي رجل آخر بسبب تفويض الله له – إضافة لكونه أقوى بسبب الحكمة التي حصل عليها بالتجربة الطويلة في حل المنازعات فانه كان يعطي أحكامه لكل من يقصده. إضافة لذلك فان القرارات التي كان يتم التوصل إليها كانت متماشية مع العدالة الطبيعية ومتوافقة تماماً مع العادات الفكرية للأطراف المتنازعة.

وبالرغم من المحاولات والجهود المضنية التي بذلها الموظفون العثمانيون سحبت جميع القضايا وخصوصاً الجنائية منها إلى محاكمهم ففيما عدا الحدود الرسمية للمدن كانت الجرائم والجنح للبدو والسكان المستقرين سواء من جريمة القتل والسرقة تحت تهديد السلاح إلى أصغر المنازعات لا تصل محاكم القانون

التركية ولم تنعش أولئك المحامين المحترمين أو الشهود المستأجرين ولم تكن خاضعة لأجور المحاكم وكانت تتحمل تأخر إجراءاتها. فلجهلهم العظيم بأمزجة الأجناس الخاضعة لحكمهم واندفاعهم الأعمى بوضع السلطة كلها داخل شبكة واحدة فانهم (الأتراك) لم يهملوا تمثيل تلك الأجناس في السلطة وحسب بل لم يشجعوا على ذلك أيضا. فمن الناحية الرسمية لم يكن قرار حكم أي شيخ عربي يحظى إلا بالقليل من الاعتراف حيث ان القاضي التركي يحتقر حتى الإشارة إلى مثل ذلك الحكم. ولكن من الناحية التطبيقية فان الحكومة الضعيفة وغير الكفوءة سمحت له بالاستمرار في طريقه من اجل الخير والشر مع محاولات بسيطة متباعدة لمنعه – تلك المحاولات التي كانت تجري بصورة واحدة ضد كل ما له قيمة في الأوضاع المتواجدة وضد كل ما هو غير مؤذي. وأصبحت صفة هذه المحاولات التي كانت تأتى كالنوبات اكثر إزعاجا لكل من كان يهمه الأمر.

ولكن في نظر الحكام الأكثر تعقلا وتعاطفا كان نظام القضاء (المجلة) الذي ساد تلك الأرض ذا أهمية قضائية أكثر من أهمية اجتماعية. وان لم يكن بحد ذاته سلاحاً قوياً لجانب النظام والسلوك الجيد فانه زرع في الناس عادات فكرية كانت ذات فائدة للدولة، فعندما لا يكون هناك فائدة من اللجوء إلى المحاكم، لا توجد مغريات متزايدة لأهمية اللجوء إلى المحاكم، عندما يكون الإجراء بكل بساطة معرضاً حقوق المدعين لاغراءات أقل في معالجتها. وفي الحقيقة فان غياب أي حب للجوء إلى القضاء ونزاهة الأطراف المتنازعة كان قد لاحظها بإعجاب الموظفون الإنكليز في العراق والذين كانوا مرتبطين بإدارة القضاء. فلم تنعدم الحاجة إلى إجراء التحريات من قبل الشرطة بسبب الإخلاص المعكر للمزاج تقريباً والذي كان يعترف به المتهم بجريمته ولكن التسهيلات المحدودة لمتابعة التحريات المعقدة أو تنفيذ الأحكام التي كانت تملكها محاكم بوابات القرى ومقاهيها قد عودت الناس على الرضى بتلك الوسائل البدائية. وكانت هذه الوسائل أقل تأثيراً وأقل إزعاجا من التحريات المكثفة والعدالة الباهظة الثمن للحضارات الأعلى. ففي

القضايا البسيطة كان حلف اليمين مقبولاً في الحال وخاصة في المناطق الريفية وسيذهب المدعي في طريقه وهو مقتنع إذا قام المدعى عليه بحلف اليمين على براءته بشروط تعتبر ملزمة. يحلف اليمين على القرآن أو على قبر أحد الأنبياء أو الأولياء ذي الأهمية المحلية أو على أحد الأنبياء أو الأولياء بشخصه. (بحياة هذا السيد........) وجميع الحاضرين يعلمون وبدون جدال أنه إذا كان المتكلم يقوم بحلف اليمين بالإنكار فإن جرأته سوف تجلب له وخلال عام واحد حكم قضاء أعظم وأكثر تأثيراً من قضاء الإنسان (قضاء الله) فعوضاً عن اللجوء إلى القضاء هناك اللجوء إلى حل المنازعات العشائرية – وحتى الرجوع إلى الشيخ هو في الأساس من هذا النوع. فالحكم الذي يصدره (الحكم) (٢٢) يعتبر مقبولاً من كلا الطرفين كقرار نهائي والذي هو عادة نتيجة لمحاولة مخلصة لموازنة الحقائق والتعامل بعدل مع المتنازعين.

إن الاعتراف الشامل بالتحكيم كإجراء قضائي سليم ساعد على حل ما كان يمكن أن يصبح مشكلة عويصة في التنظيم الابتدائي للمقاطعات المحتلة في العراق. فعوضاً عن محكمة الشرع التي كانت تهتم بكل الجوانب الخصوصية للحياة الإسلامية كان الحاكم الإنكليزي يدعو علماء الإسلام ليقوموا بدور المحكمين. فالقضايا التي كان يفترض عرضها أمام محكمة الشرع ينظر فيها الآن رجال اختيروا لمعرفتهم بقوانين الإسلام كما وضعت في الكتب المقدسة وفي الوقت الذي لم يكن يتوفر في أيام الأتراك سوى القاضي الحنفي، أصبح ممكناً لكل طائفة أو مذهب اختيار قاضي مقبول من لدنها تكون قراراته مقبولة وتسجل في الإدارة الإنكليزية.

وبنفس الطريقة فان تحكيم الشيخ وهو من الموجودات الواضحة في إدارة المناطق التي تخلو كليا من الطرق والسكك الحديد وتتميز بانغمارها بالمياه مما يجعلها غير قابلة للاجتياز أو تتميز بغياب ذلك العنصر الضروري الذي بالنتيجة

يمنع المرور فيها يمكن لهذا التحكيم ان يحفظ حقوق الحكومة الرسمية مع الاحترام الكامل.

من الواضح إن الإجراءات القضائية الابتدائية تتناسب فقط مع المجتمع الذي لا يزال في المرحلة الابتدائية من التطور والعكس صحيح وان كان صعب القبول. إن الرجال سوف لن يتكيفوا في يوم واحد للطموحات الأوربية ولن يرحبوا بالطرق الأوربية. رجال يسكنون الخيام أو أكواخ القصب عريقوا القدم في البداوة والخيمة عريقة بهم فهم رجال لم يعرفوا في حياتهم أي شكل من أشكال السيطرة سوى السيطرة التركية الفارغة – لأنه بالرغم من تطمينات الوالي والقائد العسكري فان القبائل القاطنة في العراق لم تكن اكثر طاعة للحكم العثماني من أولئك الذين كانوا يجوبون الصحارى العربية الواسعة رجال يملكون تقاليد في الاستقلال الذاتي لا يحده سوى عاداتهم الخاصة، رجال كانوا جهلة كلياً بالعالم الخارجي لا هم لهم سوى مستنقعاتهم ومراعيهم غير مبالين بمزاياه ولا بالفرص التي يقدمها لهم. فإذا كان ما نحن بصدد تعليمهم إياه سيزيد من مبلغ سعادتهم أو إذا كان تعلم الدروس المفروضة عليهم جراء اتصالهم بنا سيجلب لهم الحكمة فإن عملية التدريس إذا ما أريد منها أن تكون ذات فائدة يجب أن تكون طويلة الأمد وبطيئة. ففي تاريخ بلادنا من محكمة (موت Moot)(٢٣) إلى (الوثيقة العظمى Magna Carta)(٢٤) إلى البرلمان الإمبراطوري كان هذا من عمل القرون ولكن مع هذا فإن المرحلة الأولى (محكمة موت) كانت تحتوي على نواة كل ما جاء لاحقاً. إن قبائل العراق لم تتقدم (حضارياً) على محكمة موت سوى قليلاً وإذا ما أصبح تكوين مصائرهم من اهتمامنا في المستقبل فسيكون من الحكمة الالتزام بأي تجربة للإسراع بهم نحو مؤسسات عالية التخصص – هذه السياسة التي يمكن ان تفرض نفسها فقط على أولئك الذين لا يزالون في بداية سلم الحضارة (٢٥).

المقالة الثالثة

طلائع الحضارة (٢٦) إلى بين النهرين

يوجد في حياة الصحارى العربية فقط القليل مما يطرأ عليه التغيير بمرور الزمن. فجمود الظروف الحيوية تحدد من نشاط الإنسان لدرجة تضيق اكثر فأكثر. إن تباعد سقوط الأمطار زمنياً وقلة الاحتياط المائي تحت الأرض تمنع أي تطور زراعي كبير. ففي الصحارى الوسطى الواسعة للهضبة العربية وفي الرمال الشمالية القاحلة لا يستطيع الجنس البشري ان يجد مكانا ثابتا والبدو الذين يرعون جمالهم يتجولون بمشيئة قطعانهم في بلاد حيث لا يمكن توفير حتى أبسط حاجات الإنسان بصورة دائمية. فمنذ أزمان غابرة كانت القبائل التي تعيش في الداخل تتزود بحاجاتها من أقرب أرض زراعية مرويّة حيث يمكن لأناس مستقرين ان يزرعوا في حقولها الغنية ووجود غابات النخيل فيها يمدهم ما يحتاجه أطفال البراري الجياع فهنا تزدهر الحرف أيضا وقد يجد الإنسان فيها أشياء منسوجة لصنع ثيابه كما يجد معادن صنعت على شكل أسلحة وأدوات منزلية فكما نزح اخوة يوسف إلى مصر لشراء القمح عندما دفعتهم المجاعة إلى أبعد من مناطق أسواقهم المعتادة فكذلك العرب المتجولون اليوم يأتون نازحين إلى حدود سوريا وبين النهرين طلباً لحاجتهم الأساسية (٢٧) وتخلصاً من المجاعة الدائمة في الصحراء.

ان مدن سوريا الشرقية ودمشق وحمص وحماة وحلب كلها أسواق لبدو الصحراء السورية وفي الحقيقة فان دمشق الآن كما كانت في الماضي عاصمة للبرية وللأراضي المأهولة والمركز الرئيسي للحضارة العربية بكل أوجهها. وتلعب المدن على الفرات نفس الدور بالنسبة للجانب الشرقي من الصحراء السورية. ولا تعود أي من هذه المدن على طول القسم السفلي للنهر إلى أي عهد

سابق للغزو الإسلامي ولو ان النجف هي ممثلة الكوفة – إحدى أقدم مدن الإسلام والكوفة نفسها كانت قد قامت على أنقاض الحيرة عاصمة إحدى الإمارات العربية التي خدمت قبل زمن النبي محمد (ص) كحلقة وصل بين الجزيرة العربية البدوية وبين الإمبراطورية التي كان يحكمها الملوك الساسانيون في المدائن. ونجد اليـــوم حلقات وصل كهذه جنوب الفرات وغربه – مستعمرات تأخذ عن طبيعة الواحـــة في قلب الهضبة أكثر من ان تعتبر مكونة للمناطق المزروعة التي هي طلائعها – مدن عشائرية – ضرورية لاقتصاد الجزيرة العربية كضرورة الحيرة نفسها وفي كل الاحتمالات ليست مختلفة كثيراً عدا في درجتها من المقـــر القـــديم للأمـــراء المستقلين.

إنها لميزة عندما تقع أسواق البدو وراء حدود المناطق المزروعـــة دائميـــاً أو على أي حال على حدودها الخارجية. وكان متوقعاً ان لا يحترم ســـائقو القوافـــل المتوحشون (٢٨) حقوق الفلاحين ويسمحوا لحيواناتهم أن ترعى فـــي محاصـــيل وحقول مروية وخاضعة لعناية كبيرة. وكان هذا سبباً في انتفاضات من قبل هؤلاء الفلاحين وإقلاقا مؤسفاً للسلم والأمن، ومن ناحية أخرى لم يكن الوافدون متلهفين على التغلغل في البلاد المحكومة أو ان يجدوا أنفسهم قد حبسوا في المدن وأرغموا على قبول التقييدات التي فرضتها حياة المدن. (ان شهراً في دمشق يعادل سنة في الخيام) هذا ما قاله أحد رؤساء (شيوخ) قبائل الحدود الذي كـــان قـــد منـــع مـــن المغادرة من قبل السلطات إلى حين دفع ضرائب الأغنام. وأضاف قائلاً (والله لـــم اكن أستطيع التنفس هناك).

وأدركت الحكومة العثمانية أهمية وضع الأسواق في أماكن بعيدة نوعا ما عن مراكز المدن وفضلت إقامة المدن في مناطق بعيدة. وبهذا مدت نفوذها وتمتعـــت بنوع من السيطرة على تلك المستعمرات الجديدة. وكان من الممكن لعدد منهـــا أن تثبت على حافات الصحراء لو استطاع الأتراك ان يوفروا حماية كافية للمجتمـــع في صراعاته الباكرة مع اللصوص أو المغيرين وكمثال واضح لهذا –بالرغم من

فشله- محاولة قام بها قبل سنوات قليلة أحد شيوخ الجوف (٢٩) في شمال الجزيرة العربية في تثبيت نفسه دائمياً في قلعة الاخيضر العظيمة المتهدمة والتي تقع على بعد حوالي ٨ ساعات غرب كربلاء (٣٠). كانت هنالك ينابيع ماء في الوادي المجاور وكانت أحواض الجص ومقالع الحجر في متناول اليد. قال هذا الشيخ انه تعب من حكومة ابن رشيد، سيده في الجوف، وإذا استطاع والي بغداد ان يساعده فانه سيبني مدينة حول القلعة ويزرع غابات للنخيل ويقيم مركز مقايضة لنتاج بين النهرين مقابل الجمال. وهذه بحد ذاتها كانت تعتبر حرفة ذات خدمة غير قليلة لدوائر النقل الرسمية. وكان للوالي عمل أكثر أهمية بالنسبة له أو ربما لم تكن ذراعه (الوالي) تصل ابعد من ٨ أميال من كربلاء. وفي الأخير قامت القبائل المحلية بمضايقة شيخ الجوف ومطاردته وهي القبائل التي اعتادت على الاستمتاع بحياة وادي الأبيض ومراعيه (٣١) ونظروا إلى ذلك الدخيل نظرة حاسدة. فعاد إلى الجوف مع رجاله بحالة من الفقر اكثر مما كان عليه حين جاء.

وبنفس الأسلوب ولكن بنهاية اسعد للتاريخ ظهرت في السنوات الأخيرة مدينة الخميسية (٣٢) الصغيرة والتي هي الآن بأيدينا. وتقع جنوب الفرات على بعد ساعات قليلة من سوق الشيوخ والتي كانت السوق القديمة للشيوخ والتي هي الآن مهملة (٣٣) من قبل قوافلها لصالح مدينة الخميسية التي يسهل الوصول إليها اكثر. ويعود الفضل في تأسيسها إلى أحد شيوخ القصيم في نجد في وسط الجزيرة العربية هو عبد الله القصيمي والذي سمى المدينة على اسم أبيه (٣٤). وكانت السنوات الأولى من عمرها غير مستقرة. حيث بنى عبد الله واتباعه وهم من سنة نجد قلعة صغيرة لأنفسهم أقاموها بوجه الهجمات الليلية المباغتة للقبائل المحيطة بها والذين رأوا أن محاولات النجديين لتأسيس هذا المستقر الصغير للأمان ومزاولة الحرف تهديداً لمركزهم في هذه الصحراء غير الخاضعة للحكم. ونمت البقعة تدريجياً حيث جاءها رجال كثيرون من نجد وبنوا لهم دوراً حول قلعة عبد الله وقبلوا بسيادته. ومن جهة الفرات أيضا جاء إلى الخميسية بعض رجال القبائل

الشيعية الذين تركوا شيوخهم وارتبطوا بجماعة الشيخ عبد الله. وأسست الحكومة العثمانية مركزاً عسكرياً هناك وأصبحت المستعمرة الصغيرة بدرجة كافية من القوة لحماية نفسها من كل الوافدين ولها الحق في رفض أو قبول مرور قوافل البدو بها (أي أنها أصبحت متحكمة بطرق المواصلات).

أما مدينة الزبير التي تقع جنوب شرق الخميسية وإلى الغرب من البصرة والتي سنقوم بربطها قريباً بكلا هاتين المدينتين بالسكك الحديد فهي أهم من الخميسية وذات اصل اكثر قدماً. والزبير –والتي هي البصرة القديمة– تعود إلى الأيام الأولى للغزو (٣٥) الإسلامي. فكالقاهرة والكوفة كانت إحدى مدن الخيام التي أقامتها الجحافل الغازية لتفي بالحاجات الأولى للاحتلال –وكان يطلق عليها تسمية (مصر)– تلك التسمية التي بقيت حية في مصر حيث يطلق على كل المنطقة اسم مصر العربية أو مصر إلى هذا اليوم. وكباقي الأمصار كان للزبير أرضها المفتوحة التي كانت تحيطها البرك ثم الأروقة ذات الأعمدة التي كانت تقوم مقام الجوامع – المكان العام للاجتماع الأسبوعي للصلاة والتحريض – والتي كان يدعى إليها المؤمنون بالعقيدة الجديدة كل يوم جمعة عند منتصف النهار ولا يزال جزء من منارة وحائط من طابوق أمام أكوام الأنقاض باقياً ليشهد ان الجامع الكبير كان قائماً في مكان ليس بعيد عن مجرى نهر الفرات السابق، كما أمر الخليفة عمر بن الخطاب فان هذه المصر (٣٦) كانت قد أقيمت على مسافة قريبة من الماء ومن مراعي الصحراء من ناحية أخرى، ولكن عندما تغير مجرى النهر تغير موقع البصرة وتحولت شرقاً تاركة وراءها لاشيء سوى مدينة صغيرة صحراوية تدعى الآن الزبير على اسم أحد المقاتلين المسلمين والذي قبره موجود فيها (٣٧).

وبتحول الفرات أصبحت مجرد واحة فقيرة قائمة في وسط تلال عظيمة من الأنقاض ولكنها نظيفة ومنعشة مثل جميع المدن الصحراوية ذات الهواء النقي الجاف، ولكن تنقصها الآبار للماء الحلو الذي كان يجلب لها من الخارج، ولا

يوجد في أي مكان حول الزبير أي زراعة أكثر من بعض حقول الحبوب وبعض بساتين الرقي. ان بساتين الرقي في البرجسية وحقول الحبوب في الشعيبة محاطة الآن بخنادق إنكليزية وعثمانية. وتوجد غابة من الأثل في الشعيبة تـضلل قبـور الجنود الانكليز الذين سقطوا في معركة نيسان ١٩١٥. وهنا بدأ فصل جديد مـن تاريخ الزبير الطويل. حيث سكن المدينة رجال من نجـد لا يزالـون الوحيـدين تقريباً. ويفد إليها تجار من وسط الجزيرة العربية ويستقرون فيها أو يـأتي إليهـا رجل من عوائل التجار يفتتح فرعاً فيها للتجارة انسجاماً مع أقاربه فـي القـصيم والسدير (٣٨)، وان عائلة البسام (أو البصام) احدى أبرز عائلات وسط الجزيرة العربية التجارية لها من يمثلها في جدة ودمشق والخميسية والزبير حيث لا يوجد أي رجل من رجال القبائل لا يعرفها. إن أسلاف الشيخ الحاكم الحالي جاءوا مـن الحريملة في السدير وكانوا أتباعاً لأبن سعود حاكم نجد. وهم مثله ينتمـون إلـى قبيلة عنزة القوية. وإضافة إلى سكان المدينة يوجد حوالي مائتين من البدو ساكني الخيام وأجزاء من قبائل مجاورة ربطت نفسها بمجتمع الزبير ويقـدمون الـولاء لشيخها. وفي الصيف يتقربون من الآبار يضللون أنفسهم من الحر الشديد تحـت أكواخ جميلة من نسيج القصب الذي هو أحد جوانب التراث المعماري القبلي فـي ما بين النهرين. أما عندما تسقط الأمطار فيسوقون أغنامهم وجمالهم أسوة بسكان الزبير إلى مناطق الرعي الصحراوية جديدة العشب. إن قبولهم تحت حماية الشيخ بسيطة مثل بساطة عوائل الواحات العربية الأخرى. فهـم يـستعملون مراعيـه ويخيموا في أراضيه بعد منحهم الأذن بذلك. وبعد ان يكونوا قد مكثوا في أراضيه لبعض الوقت يتم الاعتراف بهم باعتبارهم عائدين إليه وليس إلى رؤساء قبـائلهم السابقة. ويصبح الشيخ مسؤولاً أمام القبائل الأخرى وأمام الحكومة عن سـلوكهم الجيد، وإذا ما وقع عليهم اعتداء أو غزو فإن الشيخ الجديد يدخل في مفاوضـات لاستعادة ممتلكاتهم حتى ولو كانت القبيلة المعتدية هي نفس القبيلة التـي كـانوا ينتمون إليها يوماً ما. إن هذه الطريقة في إعادة التجمع والتي تتوضـح بـصورة

جلية في مكان كالزبير ليست مقصورة على حدود المدن والواحات، فإن قبائل كاملة كانت قد تشكلت بطريقة مماثلة لذلك، البعض منها تشكل حديثاً والبعض الآخر تشكل منذ فترات بعيدة جداً ولكن الحقيقة تبقى أنهم تجمع لوحدات من اتحادات قبلية مختلفة شيء غير منسي وبلغة البدو ليس لديهم سلف مشترك. ومع هذا فإن القبائل الأصيلة (ذات النسب المتجانس) تقبل وبكل استعداد أي مجموعة غريبة تفقد بمرور الزمن اتصالها بأهلها بالرغم من احتفاظهم ببعض الاختلافات البسيطة في العادات التي تميزهم عن أفراد القبيلة التي تبنتهم. وهكذا فإن امتزاج عناصر مختلفة تحت حماية شيخ واحد تقع ضمن العادات القبلية (٣٩).

أما الزبير فبعكس الخميسية فإنها لا تضم أي قبيلة من قبائل بين النهرين ولذا فإن هؤلاء القبائل الساكنة فيها بعدد قليل فهم سائقو الحمير والتي تعمل بين البصرة والزبير. وسكان الزبير هم من السنة لكونها نجدية. ويتزاوج هؤلاء الناس فيما بينهم أو يتخذون زوجاتهم من الواحات الداخلية (أي داخل الجزيرة العربية) محافظين بذلك على نمط النسل الأصيل والقوام النحيف الجميل وسرعة بديهية البدوي. ولكونهم بدو اعترفت الحكومة التركية بوجودهم وهي عادة غير متسامحة في قضايا من هذا النوع –قد تركتهم بحالة استقلال فعلية تحت لواء شيخهم ولم تحاول أن تفرض عليهم الخدمة العسكرية التي كان جميع البدو معفيين منها. وهم إذا كانوا لا يعانون الكثير من التدخل العثماني فإنهم كانوا لا يحصلون على الكثير من الحماية الرسمية. وكان الشيخ الحاكم يدير سياسته الخارجية الخاصة تماشياً مع الصحراء ويوفر بالوسائل الدبلوماسية إن أمكن الأمن لأتباعه وكان قوياً في مركزه بحيث إن القبائل لا تقاتل برغبتها أصحاب المدن السوقية التي اعتادوا اللجوء إليها.

فإذا كانت هذه المراكز الحدودية للحضارة تخدم البدو فإنها كانت ذات ميزة لحاكم مستقر في الأرض (٤٠)، فإن هذه المراكز كانت تقوم مقام الأعين التي ترى والآذان التي تسمع ما يدور وراء الحدود. فمن طبيعة مركز الشيخ

الضروري أن يكون أكثر تماسكاً مع سياسة البراري وأن تكون مصادر معلوماته لا تحصى ولا تعد. فكل قافلة تأتي من الداخل (الصحراء) تجلب له معها أخباراً من أبعد مناطق الجزيرة العربية، وكل حطاب أو حداد متجول يأتي ليبيع أحطابه ويشتري بثمنها كيساً من التبغ وحفنة من التمر ينقل له الإشاعات المتواجدة محلياً –أين يعسكر فلان؟ وأين ذهب فلان الآخر؟ وسلطة من تضعف؟ سلطة من تزداد قوّة؟ وما هي المكائد التي تدبر؟ وما هي الارتباطات الجديدة التي حدثت؟ ويطن ديوان قهوة الشيخ بالإشاعات وإذا كان الشيخ خبيراً بهذه الأمور يستطيع أن يوازن بوضوح وأن يبلغ، إذا ما تهيأ له ذلك، أقرب حاكم منطقة إليه. وسوف يجد هذا نفسه مزوداً ليس بأفضل المعلومات الخاصة وآخرها بمنطقته فحسب ولكن بوسيط أيضاً تمكنه علاقاته الوثيقة بالقبائل المستقلة أن يقوم بأي عملية تفاوض تعتبر فوق سلطة الشخصيات أو دون مقاماتها الرسمية العالية وهكذا يقدم خدمة للحفاظ على تفاهم جيد وسلام على طول المنطقة التي يستحيل تحصينها وتصعب حمايتها(٤١).

المقالة الرابعة

رؤساء شرق الجزيرة العربية المستقلون (٤٢)

تحيط الأراضي المستقرة بالسكان التي تسقى بالنهرين العظيمين في بلاد الرافدين من الجنوب والغرب صحار هي موطن قبائل البدو. ولا يعتبر خط الحدود بين البدو والفلاحين حدوداً عرقية ولا هي بالحدود الاقتصادية أو السياسية. فالمزارع في حقول الرز أو بساتين النخيل هو من نفس الجنس الذي ينتمي إليه المتجول في الصحارى. ففي الماضي والماضي القريب سكن أسلافه الخيام السود ولم يطرأ على عادات حياته سوى القليل من التغيير ولم تتغير أساليب تفكيره مطلقاً. فبعد أمطار الشتاء تلجأ نصف القرية إلى مناطق البدو حاملة خيامها وأدواتها المنزلية على ظهور الحمير يقودون قطعانهم بعيداً حيث أراضي المراعي البعيدة حيث يستقرون إلى ان تنتهي الحشائش وتجف برك الماء. وبدورهم يمدون ضيافتهم إلى جيرانهم في البراري التي يذهب أهلها في الصيف إلى المياه الدائمية والمراعي الوافرة قرب الأنهار.

ولكن اعتماد سكان الصحراء على الأراضي المستغلة يتطلب أكثر من زيارة صيفية من القبائل المتناثرة. فلا تنتج الصحراء الكثير من ضروريات الحياة ولا حتى واحات أواسط الجزيرة العربية تحقق الاكتفاء الذاتي ولا توجد في أي مكان صناعات لإنتاج الأدوات الأولية التي يحتاجها البدو والملابس التي يلبسونها أو السلاح الذي به يدافعون عن أنفسهم ضد الأعداء وللحصول على كل تلك الضروريات عليهم أن يتوجهوا نحو المدن المحاذية للصحراء أو للموانئ البحرية ولذا يجب عليهم ان يكونوا على وفاق مع سكان هذه المدن ومع الحكومة التي بإمكانها أن تمنع وصولهم إلى الأسواق. وهكذا ليس السيطرة على المناطق البعيدة من الجزيرة العربية من الخارج ممكنة وحسب وإنما إقامة علاقات اقتصادية

وسياسية مع الشيوخ المستقرين والرحل والذين بإمكانهم لوحدهم تزويد هؤلاء باحتياجاتهم كانت أمراً محتماً.

وقبل احتلال البصرة كانت الحكومة الإنكليزية قد اتصلت برؤساء قبائل شرق الجزيرة العربية. ولكن فيما عدا معاهدة عقدت مع ابن سعود سنة ١٨٦٦ كنا قد حددنا علاقاتنا كلياً بأولئك الرؤساء الذين تحد مقاطعاتهم البحر أما مع سلطان مسقط وشيوخ الساحل المهادن (٤٣) والبحرين والكويت فقد كانت لنا معهم اتفاقيات طويلة كان البعض يعود إلى سنة ١٨٢٠ وكان هدفنا الرئيسي في كل الأحوال هو الحفاظ على المصالح التجارية في الخليج وإلغاء تجارة الرقيق والسلاح (٤٤). وتقاربت مصالحنا كثيراً مع مصالح شيخ الكويت (٤٥) في أقصى شمال الخليج العربي عندما بدأت بعض القوى الأجنبية في سنة ١٨٩٩ (*) توجه انتباهها إلى الكويت كمحطة على طريق خط البحر المتوسط – بغداد. ووجد الشيخ في هذا الاقتراح نهاية قاتلة إلى وضع الاستقلال الذي نجح في المحافظة عليه. ورأت الحكومة الإنكليزية فيه بداية محتمة للسيطرة التركية شبيهة بسيطرة التيوتونيين (٤٦) على البحر – تلك المياه التي كانت تحت رقابتنا وسيطرتنا لأكثر من قرن من السنين وحيث كانت تجارتنا لا تزال ذات قيمة عالية أكثر من أي بلد آخر. وقطعنا سنوات من المماطلة مع سرعة انفعال العثمانيين لم يتأكد للشيخ (أي شيخ الكويت) خلالها فيما إذا كنا في آخر المطاف سنسانده في محاولاته لإحباط ما تتظاهر به القسطنطينية ثم رمينا بنفوذنا في ميزانه ومددنا له حماية تساوي ما يتمتع به أي فرد آخر في مثل مركزه وموقع بلده.

وقبل اندلاع الحرب مع تركيا بسنة ونصف قام سلطان آخر (٤٧) – كان في السنوات الماضية يتحين الفرصة ليقوي علاقاته مع إنكلترا بوضع نفسه في خطنا للرؤية السياسية. وقام عبد العزيز ابن سعود أمير نجد – التي هي واحات وصحارى شرق الجزيرة العربية – باكتساح الاحساء والتي كانت سابقاً من ممتلكات بيته واندفع نحو سواحل الخليج العربي الشرقية وطرد الحاميات الثلاثة

الصغيرة التي كانت تحمي حكم السلطان العثماني. وعرف عبد العزيز بن سعود – الذي ربما كان أقوى الشخصيات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث – كل صرف من صروف الدهر والحظ بالرغم من أنه لم يتجاوز منتصف عمره بعد. وكان هو وأبوه قد طردا من الرياض سنة ١٨٨٤ من قبل خصمهما في الشمال أمير جبل شمر محمد بن رشيد (١٨٧١-١٨٩٧) الذي كان الشخصية المتنفذة في يومه في شمال ووسط الجزيرة العربية. وتنقل ابن سعود سنوات عديدة في منفاه يلجأ أحيانا إلى الصحراء السورية حيث توجد خيام قبيلة عنزة الكبيرة والتي ادعى بالقرابة منها بينما استقر والده في الكويت لكرم شيخها. ولكن عندما توفي محمد بن رشيد في سنة ١٨٩٧ ولم يخلفه رجل يملك نفس ميزاته المرموقة لم يتباطأ عبد العزيز بن سعود في اغتنام الفرصة. فسارع إلى الرياض برفقة جماعة صغيرة مختارة من الأتباع يساعده في ذلك شيخ الكويت واستعاد المدينة بضربة جريئة محكمة. وقصة دخوله المدينة في عمق الليل والإحاطة بنائب الأمير هناك، وسنوات الصدام اللاحقة مع شمر والتي انتهت بإعادة سطوته ونفوذه على وسط الجزيرة العربية قد نمت إلى نوع من الملحمة على لسان الرواة والمنشدين البدو، وعندما خاض هذا البطل للعديد من المعارك في الاحساء لم يكن انزعاج الحكومة العثمانية قليلاً. فقد أغدق الأتراك الهدايا على محمد بن رشيد وخلفائه وحرصوا على دوام صداقتهم آملين من خلالهم الحفاظ على درجة من النفوذ في وسط الجزيرة العربية. ولم يكن نجاح ابن سعود ضربة مباشرة لبقاء نفوذهم وحسب ولكن لامتداد نفوذه إلى الخليج قد قدم إشارة الخطر بفتح الصحارى للنفوذ المخيف لإنكلترا ألا وهو مراقبة السواحل.

ولا حاجة الآن لتحديد إمكانيتنا في المحافظة على سياستنا بعدم التدخل في شؤون وسط الجزيرة العربية أو فيما إذا كان قرب ابن سعود للبحر قد جرنا في النهاية إلى علاقات مباشرة معه كان يريدها هو ويخشاها الأتراك. وكان اندلاع الحرب هو نهاية موقفنا المبطن من الأتراك وحالما تأكد لأبن سعود صداقتنا معه

أبعد كل ظلال الولاء للسلطان العثماني. وسيجعل احتلالنا للبصرة في النهاية احتكاكنا مع ابن رشيد (٤٨) وشمر لأنه بالرغم من أن بناء سكك حديد المدينة – دمشق فان السفر من حائل إلى دمشق بقى مفتوحاً وفي اقل من أسبوع، وان التداخل التجاري لواحات ابن سعود قد كانت جميعها بعلاقة مع الأسواق على الفرات. فكل ربيع تقوم قوافل الأمير (يقصد بن رشيد) وقوامها ٥٠٠ أو ١٠٠٠ ناقة بسفرات من حائل إلى العراق تستغرق في ذهابها مدة أسبوعين لملئ مخازنه بالحبوب والنفط والشاي والقهوة والسكر التي يحتاج إليها قصره والذي يتمثل فيه كرمه اللامحدود إضافة إلى شراء الملابس التي يجب أن يزود بها كل إعرابي يقدم احتراماته لأبن رشيد بحسب مكانته وأهميته. وبقوافل الجمال يقوم تجار النجف بتجهيز شركائهم في حائل بالبضائع التجارية في الأسواق. والأسواق التي كان يزورها آل شمر كثيراً تقع تحت سيطرتنا اثنان منها الآن هما مدينتا الزبير الصغيرة والخميسية فيهما قوة حجاب لنا في الصحراء تعتمدان على البصرة وسوق الشيوخ وهما على الفرات على التوالي – تقع هاتان المدينتان بالأراضي المحتلة. ويدار ميناء الكويت البحري من قبل حليفنا القوي (*) – ولذا فإن ابن رشيد ان لم يكن راغباً بالسلام معنا كان عليه أن يفتش عن حاجاته السوقية في أعالي الفرات والتي شعر ان ارتيادها أصبح صعباً. فمن ناحيتي البحر واليابسة نمسك بالعنق الشرقي للقنينة العربية (يقصد بها الخليج العربي وسواحله).

وبعد وفاة محمد بن رشيد عانت قبيلة شمر من ضعف الزعامة غير الكفوءة القليلة التعقل والتبصر التي دفعتها إلى تناحرات عائلية أدت إلى تغييرات في البيت الحاكم بسفك الدماء. فالأمير الحالي شاب عمره ١٨ سنة غير متدرب على شؤون الحكم ولا يستطيع السيطرة على أعصابه كما أنه يفتقد إلى مستشارين جيدين وهو يلتزم بالسياسة القديمة بصورة عمياء، السياسة التي أثبتت كونها مربحة له جداً وذلك بالتعلق الكبير بتركيا وعدم إظهار أي ميل نحو المشاعر الموالية للعرب (أي المشاعر الموالية لإنكلترا)، تلك المشاعر التي كان يتلاعب بها بين وقت وآخر كل

من شيخ الكويت وحاكم نجد ولأسباب غير متعلقة بالانتعاش الوطني العربي كثيراً.

وكما نتوقع انقسمت القبيلة على نفسها بسبب حكم الأمير الضعيف ولكن آل شمر أناس فخورون بأنفسهم وشجعان ومواردهم المعيشية متوفرة بما تجود به الصحراء كما أنهم يحترمون مثلهم القديمة في السلوك الصحراوي (٤٩) وعليه يجب أن يكونوا دوماً عاملاً في السياسة العربية (الموالية لإنكلترا) وأي دوران في العجلة قد يعيد إليهم الكثير من عناصر سيادتهم السابقة (٥٠).

هناك مجموعة قبلية كبيرة أخرى ملامسة للفرات هي قبيلة عنزة (٥١) أقوى الاتحادات البدوية الخالصة كافة وأفرادها يجوبون الصحراء السورية من حدود بين النهرين إلى الحدود الشرقية لسوريا، يصلون شمالاً إلى حلب ويعبرون الفرات ويحتلون مراعي الخابور الغنية. وفي تلك الأرجاء الشاسعة التي حكمها أكثر من شيخ، القبيلة منقسمة إلى أربعة أقسام تغطي إماراتها كمساحة العراق اتساعاً ورئيسهم الأعلى هو فهد بك بن هذال وهو الحاكم الأعلى رسمياً لعشيرة عنزة ولو أن ابن شعلان جاره من الغرب والذي يسيطر على الجانب السوري من الصحراء كان ذا شخصية مرموقة أكثر منه. فبخلاف أمير جبل شمر وحاكم نجد لم يكن لفهد بك مكان ثابت يستقر به. فهو يعيش مع قبيلته –رعاة الجمال الحقيقيون– يسيرون حيثما تقودهم مواشيهم في أراضي المراعي – ومع هذا فإن قلاع ابن سعود وابن رشيد القوية ليست أكثر تأثيراً على الخيال من مخيمات فهد. ففي الربيع قد تجده في الحافات المعشوشبة للصحراء السورية وحوله حوالي مائتين من الخيام منتشرة بمجالات واسعة وآمنة من أي هجمات وقبل أن تصله بساعات ترى نفسك راكباً بين قطعان جماله – لأن عنزة هم أعظم مربي الجمال – وتجد الشيخ جالساً على السجاد الفاخر في خيمة مضيفه ووراءه صقره وكلبه السلوقي يعطيك صورة الأبهة العربية التي لا يمكن ان تجاريها المدن المسيجة والقاعات الواسعة لأمراء وسط الجزيرة العربية.

ونادراً ما وصلت الإمارات إلى جنوب السماوة على الفرات باعتبار ان مدن التسوق الخاصة بها كانت كربلاء والنجف ومستعمرات أخرى أصغر منهما، على النهر إلى الشمال. وكانت تصلهم كمية من المواد التجارية السورية – الملابس والبضائع القطنية – عن طريق تجار دمشق أما في التجهيزات فكانوا يعتمدون على شمال العراق وعلى أولئك الذين يحكمون فيه (يقصد الأتراك).

وفهد بك نفسه كان يملك بعض المزارع القيمة التي تسقى من الفرات وكل من كان يسيطر على النهر كانت له حصة من مصادر ثروته الخاصة هذه.

وإضافة لصداقته لأبن رشيد المتواصلة – وتلك تركة من تركات عبد الحميد (٥٢) في الحكم – لم تتبع الحكومة العثمانية أي سياسة متينة في التعامل مع الشيوخ المستقلين، فلم يكن للباشا –التركي- أي تعاطف مع العرب البدو أما مع أنصاف مثقفي المدن في القسطنطينية أو سالونيك (٥٣) والذين كانوا يسيئون توجيه ثروة البلاد عن طريق جمعية الاتحاد والترقي فقد كانوا ينظرون إليهم – شيوخ البدو- كذخائر كريهة للبربرية. وكان بإمكان أي حاكم قوي في العراق ان يقوم بتأديبهم وربما كان هناك من قام بذلك ولكن بمجرد أن يعقبه حاكم ضعيف تنطلق حريتهم الجامحة. فقد كان بإمكان ناظم باشا (٥٤) إيقافهم عند حدهم بحزم وربما بدون رحمة ولكن المراكز العالية للموظفين الأتراك أدت إلى إثارة غيرة الجمعية وإزاحته بعد تسعة أشهر من تعيينه، ومع هذا فإن مهمة السيطرة على القبائل الصحراوية لا يفترض أن تكون واحدة من المهام الصعبة للسلطة الإدارية لما بين النهرين. فالمفاوضات الدبلوماسية والإنذار بالحرب التي ترن بين الخيام والصحارى التي تبدل السلطة والسلالات التي تتعاقب على الحكم ذلك ليس بذات أهمية لحكام الأرض المستقرين. فالمهم عندهم أن السيد الحقيقي لتلك المناطق التافهة أن يقدم لهم احترامه للحدود والطرق والسكك الحديد ولحقول الحبوب المترامية. ومن السهل استنباط المكافئات كاحترام الاتفاقيات فهو أمر مألوف في العلاقات والمداخلات مع الحكومات القبلية. ولكن عند حدوث أي مخالفة تغلق الأسواق في العراق والخليج لإخضاعهم السريع.

المقالة الخامسة

حاكم في الصحراء

كانت زيارة ابن سعود للبصرة في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٦ مشهداً – مهماً– في حملة ما بين النهرين، جميلاً متميزاً لأولئك الذين درسوا سياق السياسة العربية. فلنصف القرن الماضي كان تاريخ داخل الهضبة (هضبة نجد) قد تركز حول التنافس بين أميري شمال نجد وجنوبها ابن رشيد وابن سعود. وعندما كان عبد العزيز الممثل الحالي لعائلة آل سعود لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، كانت سلطة آل رشيد قد وصلت إلى قمتها. وقام الأمير محمد بن رشيد بطرد آل سعود من أرضهم إلى المنفى وأحتل عاصمتهم الرياض. واستمر عبد العزيز في تناول خبز الفاقة والعوز لمدة إحدى عشرة سنة. ولكن في سنة ١٩٠٢ رأى شيخ الكويت الساكن على الخليج العربي في الأمير الشاب (عبد العزيز آل سعود) سلاحاً ماضياً وأعطاه فرصته. وانقض عبد العزيز على الرياض بمعية حوالي (٨٠) رجلاً من راكبي الجمال زوده بهم شيخ الكويت وفاجأ حامية ابن رشيد وذبح ممثله هناك وأعلن توليه الحكم في المدينة. وقصة مغامرته الجريئة هذه لازالت جزءاً من الذكريات البدوية المتداولة – وصل ذلك النفر القليل عند الغسق إلى بساتين جنوب المدينة وانتظر هبوط الليل. وتسلق سور القصر عبد العزيز وثمانية رجال اختارهم من بين رجاله وبسيوفهم البراقة التي أقعدت وأسكتت العدو النائم وفتحت أبواب المدينة عند الفجر لرفاق المنتصر. ولم ينته القتال باحتلال الرياض حيث قام عبد العزيز بهجمات متكررة سنة بعد أخرى لاستعادة أراضي أجداده وخلد لنفسه اسما ملأ الصحراء على المدى البعيد. أوصلت عبد العزيز طاقته التي لا تهدأ إلى درجات من الأهمية السياسية في سنة ١٩١٣، فأحتل مقاطعة الاحساء التركية التي كانت تابعة للرياض سابقاً وطرد الحاميات العثمانية ونصب نفسه حاكماً على طول ساحل الخليج العربي وكانت له علاقة صداقة جيدة

مع الكابتن شكسبير – وكيلنا السياسي في الكويت – ولم يكن أي شيء مؤكداً بقدر حتمية احتكاكه مع إنكلترا بعد وصوله إلى سواحل الخليج. ولكن قبل التوصل إلى حل المسألة الصعبة الخاصة بعلاقاته مع القسطنطينية اندلعت الحرب وتحررنا من التزام موقف محايد. وفي شتاء ١٩١٤–١٩١٥ توجه الكابتن شكسبير للمرة الثانية إلى نجد والتحق بابن سعود الذي كان يزحف شمالاً ليحبط إحدى هجمات ابن رشيد الذي كان يحظى بتخطيط الأتراك وإسنادهم. وتقابلت القوتان في نهاية كانون الثاني (١٩١٥) وفي قتال متذبذب جرح فيه وقتل الكابتن شكسبير بالرغم من كون حضوره كمحايد (!). وفقدنا بموته ضابطاً عرف بشجاعته في وسط الجزيرة العربية كما عرف بمهارته المقتدرة في التعامل مع رجال القبائل قد جعلت منه رجلاً ذا خدمة متميزة ومفيدة أبقت ذكرى أعماله من بعده. فبعد أقل من سنة قابل ابن سعود السربرسي كوكس الضابط السياسي الأول في الأراضي المحتلة والممثل السياسي الأول في الخليج ووصل معه إلى اتفاق مع إنكلترا وتوثقت علاقاته معنا على إسناد عام له، في اجتماع لشيوخ العرب أقيم في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٦. ففي تلك المناسبة التاريخية وقف ثلاثة شيوخ من العرب الكبار جنباً إلى جنب بمودة ووفاق وأعلنوا تأييدهم للحكومة الإنكليزية وهم شيخ المحمرة والذي كان من أصل عربي بالرغم من كونه فارسي الجنسية وشيخ الكويت وابن سعود حاكم نجد. وفي خطاب ارتجالي غير متوقع بين ابن سعود انه في الوقت الذي أرادت الحكومة العثمانية قطع دابر الأمة العربية وإضعافها كانت السياسة الإنكليزية تهدف إلى توحيد الأمة وتقوية قادتها ولابد ان الضابط السياسي الأول لدى سماعه تلك الكلمات التي سوف تتداولها الأحاديث بتكرار وتناقش في كل مضايف القبائل – ان النتائج الطيبة التي تحققه الآن يعود الفضل فيها إذا عدنا إلى ماضي الأحداث إلى عمل ذلك الضابط الشجاع الصبور –شكسبير–.

إن ابن سعود يقارب الآن الأربعين من عمره ولو أنه يبدو أكبر من ذلك ببضع سنوات. انه رجل ذو قوام جذاب يبلغ طوله أكثر من ستة أقدام وتبدو عليه سمات الاعتياد على إصدار الأوامر، رغم أنه أضخم من أي شيخ عربي نموذجي كانت فيه مميزات العربي الأصيل: قوام قوي كالنسر ومناخير ممتلئة وشفاه غليظة وذقن طويل رفيع تعلوه لحية مدببة، يداه جميلتان وأصابعه رفيعة، وهذه خاصية عامة بين القبائل العربية ذات الدم العربي النقي وبالرغم من طوله وعرض كتفيه فهو صورة لرجل الصحراء الذي يبدو عليه الإعياء العرقي وليس الفردي – ذلك الإعياء الشائع عند شعب قديم متحكم بأقواله وأمثاله وكانت حركاته المتعمدة وابتسامته البطيئة الجميلة ونظرته التأملية من عينيه الثقيلتي الأجفان تزيد من وقاره وسحره كانت لا تنسجم مع المفهوم الغربي للشخصية الحية (٥٥). ولكن مع هذا فإن التقارير تصفه بأنه قوي يتحمل التعب الجسماني قوة نادرة حتى في الجزيرة العربية القاسية. يقال أن أنداده ممن تربوا على ظهور الجمال قلائل فإنه فارس لا يعرف التعب وقائد لقوات غير نظامية له جرأة يشهد لها، وإنه جمع بميزاته الجندي الذي يمتلك القابلية السياسية والتي تحظى بتقدير عظيم من قبل رجال القبائل. فأعظم مديح يمكن أن يوصف به المرء أن يكون رجل دولة – بالتصور الأوربي– ويظهر ان ابن السعود (عبد العزيز بن عبد الرحمن) كان نموذجاً تاريخياً كسياسي وحاكم ومغير، فوجود رجال مثله ندرة في المجتمع ولكن وإن كان هناك العديد من أمثالهم في العرق العربي يلبون حاجات هذا العرق، فقد كان منهم المحاربون والإداريون والعسكريون في الحروب المحمدية والذين نجحوا فيها كما ولو عاش ابن سعود في عصرهم لنجح وفشلوا كما فشل هو في مجال أضيق – ذلك في مهمة تكوين دولة موحدة ومتجانسة ذات طبيعة دائمية لمجتمع قبلي كان محمد بن رشيد نموذجاً كلاسيكياً لجيل سبق جيلنا – كانت شهرته باقية بالرغم من وفاته قبل عشرين سنة (٥٦). ومثله فإن عبد العزيز ابن سعود قد حول التنظيم العشائري المفكك إلى إدارة مركزية وفرض على التحالفات

العشائرية سلطة تعتبر عاملاً سياسياً بالرغم من تذبذبه. إن آل سعود يملكون من بساتين النخيل في الرياض وفي واحات مقاطعاتهم الشمالية والشرقية في القصيم والاحساء ثروات كبيرة وسكانها أكثر استقراراً من آل رشيد ولذا استند حكمهم على أساس أقوى، لكن المصدر الأعلى للسلطة هنا كما في سياق التاريخ العربي يكمن في شخصية القائد. فمن خلال القائد سواء أكان خليفة عباسياً أم أميراً نجدياً تتحقق الوحدة السياسية وبغيابه تتحطم تلك الوحدة. إذا كانت الصفة المميزة لاجتماع الكويت هو اعتراف الشيوخ العرب المجتمعين بحسن نوايا إنكلترا نحوهم فإنما أعطي لزيارة ابن سعود للبصرة لونها المميز هو وجود نوع ثابت من السلطة الصحراوية بين أوضاع عصرية لم تكن مألوفة جداً لأولئك الذين أوجدوها. وخلال ساعات قليلة استعرضت أمامه أحدث آلات الحرب. وراقب إطلاق متفجرات كبيرة في خندق صغير كما راقب انفجار قذائف مضادة للطائرات في السماء الصافية. وسافر بقطار لم يمضي عليه ستة أشهر، وعبر الصحراء بسيارة إلى ساحة القتال في الشعيبة حيث فتش المشاة الإنكليز والفرسان الهنود وشاهد بطارية مدفعية في مناورات حقيقية. وفي إحدى المستشفيات التي تشغل قصراً يعود إلى صديقنا الطبيب شيخ المحمرة صور عظام يده بأشعة رونتجن وتمشى على رصيف شط العرب بين المخازن الحكومية التي كان الجيش يكسى منها ويطعم وشاهد طائرة تتسلق السماء الخالية. لقد نظر إلى جميع تلك الأشياء بدهشة ولكن الاهتمام الذي أبداه بميكانيكية الحرب كان اهتمام رجل يريد التعلم وليس اهتمام رجل حائر، وبدون تعمد برر للضباط الذين استضافوه السمعة التي حصل عليها في الجزيرة العربية لإدراكه الرصين وتحمله المتميز.

وعندما طلب الشيخان (٥٧) الأذن بالرحيل قال شيخ المحمرة: (من المفيد لنا أن نرى قوتكم). أولئك الذين سمعوه ربما وجدوا أفكارهم تعود إلى قوة أعظم وأكثر ثباتاً من قوة آلة الحرب وربما تطلعوا نحو ذلك اليوم الذي تعم فيه علوم السلام عوضاً عن علوم الدمار.

المقالة السادسة

أثر السلطة الإنكليزية في استتباب السلام في ولايات بين النهرين المحتلة

إن تاريخ حملة بين النهرين له صفحتان، فإلى جانب قصة الاحتلال بالسلاح هنالك قصة الانتصارات التي ليست أقل شهرة من قصة السلام الذي جلبته إنكلترا الغازية في أعقاب دخول جيوشها إلى أراضي كان السلام غريباً عنها لزمن طويل. فقبل أن ينتهي دخان المعركة وأثناء فرقعة أصوات المدافع بدأ العمل بإعادة البناء وبالرغم من القيود التي لابد لحالة الحرب أن تفرضها على السكان المدنيين إذا ما سحبت مستقبلاً البعثة الاستكشافية بكل طاقمها من الضباط الإداريين فإنها ستترك وراءها ذكريات بالازدهار وبداية للنظام والأمن والأحوال الطيبة.

ان مهمة إدارة الحكومة المدنية في بلد محتل عمل له مشاكله الخاصة والصعبة. فالحاكم يعرقل كثيراً من الأمور لقربه من الأحداث المعادية المؤثرة وبالولاء المنقسم بين السكان لعدم استقرار الوضع العسكري. وهذا الأخير عامل هام بين رعايا تركيا من العرب الذين يعلمون جيداً أن أي تأييد يقدموه للقوى الموجودة قد يصبح عذراً لعقاب عديم الرأفة إذا ما حدثت تغييرات في مجريات الحرب تؤدي إلى عودة حكامهم السابقين (الأتراك). وخير مثل رادع نعطيه هو سقوط الكوت لما يمكن أن يكون عليه الانتقام العثماني (٥٨). فالحاكم التركي هو من سلالة تختلف عن سلالة أولئك الذين حكمهم (٥٩) وربما جرى تغيير الحكم بسهولة بسبب ان المقاطعات المحتلة أبدل حاكمها بحاكم آخر ولكن من ناحية أخرى فإن ذلك الحاكم شارك مع أغلبية رعاياه العرب ديناً مشتركاً وبالرغم من عدم تعاطفه بالتأكيد مع الحضارة العربية لكنه حصل على تفهم الآسيوي للآسيوي

وبالرغم من عيوب الإدارة الشرقية التي جعلت من هـذه الإدارة المتميـزة عـن الأساليب الأوربية الأفضل (٦٠).

ففي الولايات التركية المهملة أكثر ما يرث الحاكم الجديد لا يزيد على صـيغة للحكومة وعليه أن يبدأ بتحويل تلك الصيغة إلى واقع ملموس. فمن كوت (الإمارة) (٦١) إلى الخليج العربي أظهرت ولاية البصرة في العهود التركية صورة واضحة لغياب القانون. صحيح كان على ضفاف دجلة نوع من السيطرة نتيجة اسـتغلال العداء المتوارث للمجموعات العشائرية الكبيرة وللتنافس الفـردي بـين أعـضاء العائلات الحاكمة لتلك القبائل. ولم يدر بخلد الحاكم التركـي أهميـة الاعتـراف بالسيطرة المحلية للقبائل ووضعها تحت سيطرته وكان كل همه الاحتفاظ بكرسيه المهزوز فوق الرياح.

ويمكن القول صراحة أنه لم يكن له حتى ذلـك النفـوذ المهـزوز فـي وادي الرافدين. ومع هذا يصح القول على الإمبراطورية العثمانية أنها تـلازم وحـدتها ظاهرياً مع تفككها في الواقع وهذا ما حدث في مساحة ٢٠٠٠ميل مربـع علـى جانبي النهر (الفرات) من القرنة إلى الناصرية. فالأهوار ومستنقعات زراعة الرز والصحراء وبساتين النخيل تحتلها حوالي (٥٠) قبيلة معروفة كانت جميعها فـي وقت ما تشكل جزءاً من رابطة عشائر المنتفك بقيادة العائلة الحجازية آل سعدون في الوقت الذي كان معظمها لا يزال جزءاً من ذلك الاتحاد المشهور اسماً. وإلـى وقت قريب كانت تتمتع عائلة السعدون بجباية الخراج وبالخدمة العسكرية وبشرف الرئاسة وهذه جميعها أعترف بها ملاك الأرض القبليون بدرجات متفاوتة ولكـن علاقات مالك الأرض بحاكم العشيرة لم تقع ضمن التفسير العثماني لحقوق التملك مما حدا بمدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧١) والي بغداد حين ذاك أن يفرض حلاً فـي سنة ١٨٧١ بموجب القوانين التركية. وقسمت أملاك القبائل بين التاج العثمـاني وآل سعدون وسجلت في الدوائر سندات التملك التركية (٦٢) ووجـدت العـشائر نفسها قد تحولت إلى حالة القنانة (٦٣). وأبدل آل سعدون امتيازاتهم العـشائرية

القديمة بالإسناد الرسمي المشكوك فيه في وضعهم الجديد كملاك للأراضي. حيث لم توافق عشائرهم مطلقاً على ذلك التغيير. ومرت منطقة المنتفك بحـــالات مـــن التذمر الزراعي الحاد، التمرد المتواصل (ضد آل سعدون والحكومة العثمانية التي يمثلونها) حيث كانت تنتهي محاولات إخمادها (٦٤) عادة بفشل القوة العثمانيـــة، ونتيجة لضعف الحكومة المركزية العثمانية أثر حروبها مع إيطاليـــا فـــي برقـــة والبلقان لم ينجح لا التاج العثماني ولا آل سعدون من جباية إيجارات الأراضي إلا الجزء اليسير.

وهنا أيضاً سار الأتراك على خط سياستهم الكلاسيكية بمحاولة تحسين مركزهم عن طريق تدمير عناصر النظام المحلية. في بلد مجزأ إلى عدد كبير من الوحدات الصغيرة لكل منها عداواتها القديمة، كانت الظروف متـــوفرة بكثـــرة. فأواصـــر الإتحاد التي كانت موجودة أخذت بالضعف المستمر وكل شيخ يبـــدي اســـتعداده للسيطرة كان يواجه بالعداء الرسمي والدسائس. فتثأر جماعة ضد أخرى وقبيلـــة ضد أخرى ومقاطعة ضد أخرى حيث لا يستطيع الموظف التركي ولا التاجر ولا المسافر من خلال الفوضى السائدة أن يضمن له سفراً مأموناً. فكل شيخ صـــغير بنى لنفسه برجاً (قلعة) مفتول من الطين كان له أن يتحدى وبنجاح أي جزء مـــن الأرض يقع تحت بصره وكان يستخدم مشحوفه الخفيف ليسلب جيرانه في الأهوار والقنوات وكما كان يسلب المسافرين العابرين.

من خلال تلك الفوضى السائدة والتي ربما ازدادت بسبب الحرب الأوربية خلت الإدارة الإنكليزية باحتلالها الناصرية وسوق الشيوخ فـــي تمـــوز ١٩١٥. فـــإلى الشمال والجنوب منها كان الأتراك وحلفاؤهم مستعدين لإغراء العشائر بالرشاوى والوعود، وفرضت الاحتياجات العسكرية مقاييس جديدة كمنع مرور البضائع إلى العدو الذي كان يحقد على السكان. وبغض النظر عن الظروف المتعلقة بـــالحرب فإن وضع النظام الاجتماعي كان ضعيفاً صعب الترتيب. ومع هذا فإن التقـــارير الدورية للضباط السياسيين المحليين تشهد على صحة المقاييس المتبناة والنتـــائج

التي تم التوصل لها – من قبل الحكام الإنكليز المحتلين – كـالاعتراف برؤسـاء العشائر المتنفذين وإعطائهم مسؤولية إدارة عشائرهم، وتشجيع التحكـيم حـسب التقاليد العشائرية. وحلت المنازعات الصغيرة حول الحدود وحكم في نزاعات الدم (الثأر) بمعونة الشيخ أو السيد وحلت المشاجرات. وتحدد التعامل المخلـص مـع مثيري القلاقل خوفاً من إثارة عش الزنابير الذي قد يحرج العمليات العسكرية في أماكن أخرى وربما جرى تهديم مفتول (قلعة) أو تسليم رجل إلى العدالـة أحيانـاً يحرسه عدد من الحرس العشائري الذين وظفوا خلال الاثنى عشر شهر التي خلت من ذلك العام (٦٥) وبدء بتأسيس المدارس والمستوصفات التي لقيت ترحيباً حاراً وجرت بدايات لجمع ضريبة الدخل.

أما على ضفاف دجلة فلم تحدث مشاكل ريفية أساسية. فالأراضي التي استولت عليها الدولة كانت لا تزال تؤجر على شكل عقارات كبيرة إلى الملاك العشائريين الأصليين ببدلات إيجار تبتلع بشكل غير عادل والعادة كانت توضع بالمزاد كـل خمس سنوات لتأجيرها. لذا فإن أول واجب كان تحديد المبلغ المعقول الذي يمكن أن يطالب به المزارع. وأعفي المتأخرين عن دفع ما بذمتهم وفي بعض الحـالات قلص بدل الإيجار إلى النصف وربما بخسارة قليلة للخزينة نظـراً لأن الالتـزام الأسمى لم يكن قد تحقق مطلقاً. فالمنازعات الطويلة النابعة من عدم تحديد الحدود أعطيت حلاً مؤقتاً يقوم على أفضل ما يتوفر من الرأي المحلـي وبـذلت جهـود ناجحة لحفظ السلام العام ولتحديد مسؤولية الشيخ وهذا المبدأ كان علـى أسـاس تفهمه الجيد للقبائل القاطنة على ضفاف النهر.

إن كون الضباط السياسيين في جميع أرجاء الولايات المحتلة ماهرين في القيام بربط القوة بالصبر والإقناع يظهر من الصداقة الخاصة والثقة الموجـودة بيـنهم وبين العديد من الشيوخ الذين كانوا يتعاملون معهم. وكانت تلك المشاعر تتجـسم بكلمات حاذقة لأحد الشيوخ من أهوار الفرات المتوحشة والذي كان نفسه شـوكة في جسد الموظفين العثمانيين وكان تعليقه على نشاطات مساعد الضابط السياسي

الذي كان على احتكاك به بسبب معرفته الوثيقة بمنطقته. قال (يوجد بين العرب عدد كبير من الكذابين والأنذال ولكنه –أي الضابط السياسي الإنكليزي– يعرف كيف يميز بين الطيب والشرير). وهناك تثمين مشابه آخر للإداري المدني صاغها أحد الشيوخ البارزين على ضفاف دجلة كانت تحمل انطباعا ليس أقل من سابقه. قال الشيخ : (كلما أذهب إلى داره يرحب بي ترحيباً جيداً). ونتيجة تشجيعه بالمعاملة التي يقابل بها في كل مكان جاء بأخيه المريض إلى البصرة وكان في صراع مرير مع الأتراك أحب أن يموت في أحضان الحكومة الإنكليزية.

ومن عناصر الإقناع الأخرى الأعمال الإنشائية التي جرت بالأساس لأغراض عسكرية على طول ضفاف النهرين، سكة الحديد والطرق البرية والنواظم برهنة على أن كلمة (حكومة) لها أهميتها وجرت مقارنة بين الطاقة البناءة للإنكليز والخراب الذي تميز به الحكم العثماني. ويذكر تقرير حديث عن منطقة ما على الفرات (أن التقدم التدريجي للسكك الحديد يعطي نتيجة مهدئة بشكل جميل. وربما يكون وصول خط السكة قد هدأ القبائل أكثر من أي شيء آخر). وظهر بوضوح التحول عن موقفهم العدائي الواضح في آذار ذلك العام والرخص التي أعطيت للعرب بالسفر بالقطار إلى البصرة كانت مفيدة (٦٦). فالعديد من رجال المدن ورجال القبائل ركبوا القطار في زيارة تفقدية وعادوا جميعاً وهم متأثرون شاعرون بالعوائق التي خلقتها الحرب للتجارة ونقص وسائل النقل النهرية وقلة البضائع المستوردة والحصار الذي فرض عليها وازدياد أسعار المعيشة بسبب الاحتياجات غير العادية لجيش كبير، كل تلك العوائق عوضت بالاستخدام الكبير والمجزي والذي يمكن الحصول عليه في المدن وفي قطاعات الريف. وعلى العموم فإن الشيوخ أبلوا بلاءً حسناً بتوفير اليد العاملة التي طولبوا بها. وأثبت العمل أنه ذو فائدة سياسية سواء شقّه طريقاً أو سداً أو خندقاً لإفادة الأراضي الزراعية وفي إحدى الحالات أخذ رجال القبائل أنفسهم على عاتقهم مهمة إجراء الإصلاحات الضرورية لأحد السدود. وكانت حماية الأنهار والسكك على نهر

دجلة من واجب الحرس العشائري للإدارة المدنية. وعدا عن بعض المراكز المبعثرة القليلة كانت حماية الخطوط الرئيسية للمواصلات من اختصاص سكة حديد الناصرية في الصحراء وحتى هنا فإن المسؤولية العشائرية لم تكن غائبة لأن البدو الأصدقاء على حدودنا كانوا مسؤولين عن حفظ الأمن مقابل المساعدات المالية التي كانوا يستلمونها (٦٧). وعلى الفرات تشكلت فرقة صغيرة من الخيالة العشائريين لتقوم بواجب الشرطة المدنية. وكان لحرس الأنهار ما يشبههم في النظام العثماني والخيالة العشائريون يقابلون الجندرمة الأتراك. ولذا فإن الخدمة في كلا الصنفين كانت أمراً مألوفاً وبالتالي مقبولاً وهو مخرج للعناصر العابثة وخصوصاً لدى الخيالة حيث أنها تعطيهم الفرصة للعمل المشرف وعلى الأخص للرؤساء الصغار وفقراء العوائل المتنفذة كفقراء آل سعدون الذين أصبح ولائهم للإنكليز أكثر بحسب مشاركتهم الجزئية في إدارة الحكم المحلي. وبالرغم من قلة عدد أولئك الحرس يمكن اعتبارهم أحد الدلائل على الإدارة القائمة على أسس جيدة ومخلصة.

ومن المستحيل عند طلب المسؤولية عدم الالتزام بنتائجها فمهما تكن نتيجة الحرب فإن مصير أولئك الذين قدموا لنا الطاعة والخدمة في الولايات المحتلة هو أمانة تقع على شرفنا القومي ومن المشكوك فيه جدوى اتباعنا طريقة الأتراك أو التيوتونيين (الألمان) في إكراه السكان المحليين على تقديم الخدمة والطاعة لنا. ففي كثير من الحالات قدمت الطاعة برغبة خالصة وكانت الخدمة تؤدى بإخلاص كبير جعلت من الحجج والأعذار أن تقابل بالاستهزاء والسخرية. والاحتلال العسكري يقدم أحد أسلوبين: سياسة الحذاء الحديدي أو سياسة الإدارة المدنية. الأول هو عدم الاعتراف بالجهد البشري، أما الثاني فيبنى عليه كياناً حياً ككل الكيانات الحية أما أن يثمر أو أن يتلاشى. وقد اخترنا الأسلوب الثاني ونحن مسؤولون عن ثماره. وللبلجيك أو البولنديين أو الصرب (٦٨) أن يشهدوا على اختيار غيره من الأساليب.

المقالة السابعة

الشيعة ومركزهم الاجتماعي في العراق (٦٩)

إن توافق زمن الإعلان عن ثورة الحجاز (٧٠) مع الاضطرابات في النجف وكربلاء (٧١) لابد أن تصل إلى أسماع العالم (المحمدي) بقوة لا تجارى. وفعلت الحكومة العثمانية جهدها لإعطاء الصراع والذي أدخلت فيه بمساومة مع ألمانيا في خريف ١٩١٤ من تركيا والجزيرة العربية، طابع الحرب المقدسة ضد الكفار (٧٢). وأعلن الجهاد في جوامع سوريا ووادي الرافدين وتجمع المبعوثون لتهيئة تلك الحملة في وادي الرافدين واستمروا بين القبائل الشيعية يحثونهم على القتال باسم الدين. وفي وادي الرافدين تحقق بعض النجاح ولا غرابة أن تكون النتائج في سوريا صفراً عندما نتذكر إن أحد الخطباء في الجامع الأموي المكرم في دمشق كان يهودياً ألمانياً مشهوراً في الأراضي العربية الخاضعة لتركيا ومعروفاً حتى من قبل أجهل الناس كحجة في الشريعة الإسلامية (٧٣).

ولكن فشل العثمانيين في إثارة المسلمين بدأ بظواهر سلبية وإيجابية فبعد أكثر من عام ونصف من الحرب أعلن استقلال العرب عن الأتراك في مكة المركز الديني وأرسل الفرس في كربلاء مذكرة إلى رجال الدين في بلاد فارس يحتجون فيها على الانتهاكات التي اقترفها الجنود العثمانيون في المدينة المقدسة وهياكلها (المراقد) المقدسة.

أما في العراق – أي من راس الخليج العربي وحتى بغداد – فإن سواد الناس ينتمون إلى المذهب الشيعي ونسبة السنة فيه قليلة على مجال المقارنة. ويعود اصل أعظم انشقاق مذهبي في الإسلام إلى الأيام الأولى للدعوة الإسلامية وهو عميق الجذور نتيجة الانقسامات والصراعات العشائرية (على السلطة) والتي كانت دائماً أخطر حاجز سياسي أمام تقدم العرق العربي. ولم يضع النبي محمد (ص) خلال حياته أي مؤشرات علنية لاختيار خلف له وتوفي أولاده الذكور في طفولتهم

أما المفضلة فاطمة فقد تزوجت من ابن عمها وولده المتبنى (وهذا غير صحيح تاريخياً) علي بن أبي طالب والذي أعلن على أنه أقرب الناس إليه (أكثر الناس اتحادا معه) ولكن الطبيعة الديمقراطية لتعاليم النبي (محمد [الصلاة والسلام عليك]) كانت لا تسمح بنقل خلافته أثناء حياته مباشرة وبصورة فعلية وأثناء مرضه القصير فقد عين والد زوجته أبو بكر ولم يعين صهره علي بن أبي طالب ليخلفه لقيادة (٧٤) الدين. إن غياب شخصية محمد (ص) القوية سببت فترة محرجة في تاريخ الدين الجديد. وأصرت العائلة الهاشمية التي كان ينتمي إليها علي بن أبي طالب على أن قيادة المؤمنين ونيابة رسول الله يجب أن تكون بالتعيين والوراثة لعلي بن أبي طالب. أما أغلب آل قريش – قبيلة النبي وبعض رفاقه وسكان المدينة فقد وقع اختيارهم على أبي بكر ووافق علي بن أبي طالب على هذا الاختيار. وبعد وفاة أبو بكر تم تجاوز علي بن أبي طالب مرّة أخرى لصالح عمر بن الخطاب والد زوجة محمد الأخرى. وعندما اغتيل عمر بن الخطاب في سنة ٦٤٤(٢٣هـ) انتخب مجلساً من ستة أشخاص كان قد عينه لاختيار خلفاً له فأختار عثمان بن عفان والذي كان هذا وعلي ضمن مجلس الستة (٧٥) ولم يصل علي إلى الخلافة إلا بعد اغتيال عثمان بن عفان في سنة ٦٥٦ (٣٥هـ).

وقطع تمتعه بالسلطة تمردان خاض خلالهما معركة الجمل (٣٦ هـ– ٦٥٦ م) قرب البصرة ومعركة صفين (٣٧هـ – ٧٥٧م) قرب الرقة على الفرات. كاد في الأولى أن يفرض سيطرته (على العراق) ضد طلحة والزبير الذين سقطا قتلى في المعركة في البصرة القديمة ودفنا فيها (واسمها الحالي –الزبير– مشتق من اسم أحد قواد التمرد). ثم المعركة الثانية التي كانت مفتاح الشام وضد جيش معاوية بن أمية (٧٦) حاكم دمشق ولم تكن معركة صفين فاصلة فبالرغم من بقاء سيطرة علي بن أبي طالب على العراق فقد حصل معاوية على الخلافة بالاسم ولم يعترف به من قبل حلفاء

علي بن أبي طالب. وبعد مقتل علي سنة (٤٠هـ-٦٦١م) في الكوفة قرب النجف تم اختيار ولده الحسن من قبل الفاطميين - المؤيدين لأولاد أولاد النبي وزوجة علي بن أبي طالب فاطمة ولكن الحسن رفض ذلك التكريم واستمرت عائلة أمية في الحكم دون منازع حتى وفاة معاوية سنة ٦٨٠م (٦٠هـ). وكان قد جعل ابنه يزيد خلفاً له ولكن يزيد واجه معارضة غير متوقعة. فقد دعا سكان العراق - وهم أعداء دائميون للأمويين السوريين - الحسين - وهو الابن الثاني لعلي بن أبي طالب - لتسلم الخلافة ونتيجة ثقته بوعود العراقيين الثابتة توجه من مكة مع جماعة تتكون بصورة رئيسية من النساء والأطفال إلى الكوفة. ولم يكن التمرد (ضد حكم الأمويين قد أعد إعداداً كافياً. وعندما وصل الحسين بن علي قرب الفرات وعسكر في المكان الذي تقع فيه كربلاء اليوم وجد يزيداً (٧٧) والعصاة الذين معه مستعدين جيداً وإن منهم قوة من (٤٠٠٠) مقاتل قد حالت بين معسكره ونهر الفرات في مكان يبعد مسيرة يوم أو يومين.

ان قصة الأحداث التي ملأت الأيام العشرة الأولى من شهر محرم تتلى في احتفال سنوي في كل مجتمع شيعي وتثير مشاعر الغضب والأسى والتي لم يخفف منها مرور (١٢٠٠) عام. وكان أحد العرب السنة قد هرب مؤخراً من دمشق إلى البصرة من الطغيان التركي وجد نفسه خلال رحلته ضيفاً على قبيلة شيعية قرب كربلاء، وأثناء جلوسه معهم في الخيمة يشرب القهوة مساءاً حكى له الشيخ قصة الحسين بن علي وجماعته المخلصة الذين لم يخافوا من سهام الأعداء وعذابات العطش وهم يتساقطون حوله واحداً واحداً، وسقط ولده في أحضانه. وأثناء سرد القصة انحدرت الدموع على وجنتي الشيخ أما رجال القبيلة الجالسون حول النار فبدءوا يهزون أنفسهم أماماً ووراء وهم في حالة بكاء - وكأنما القصة قد حدثت بالأمس، على حد قول الشاهد المتعجب.

ونجا من الموت في المذبحة الشاملة ولد مريض هو ابن للحسين بن علي من أم فارسية (٧٨) وينظر الشيعة إليه وإلى نسله على أنهم الأئمة الحقيقيون ورثة الخلافة النبوية والزعامة الروحية للإسلام. ومن هؤلاء (الورثة) يعترفون بـ(١٢)

منهم بدءاً بالنبي محمد وهم علي وولداه الحسن والحسين وتسعة من أخلاف الحسين المباشرين والذي اختفى آخرهم وهو محمد المهدي سنة ٨٧٨م (٢٦٨هـ) في كهف في سامراء شمال بغداد قبل أن يبلغ الثانية عشرة من العمر. ويعتقدون بظهوره مرّة أخرى في أواخر الزمن ويؤسس الخلافة الكونية (٧٩). والحج إلى مكة والمدينة هو واجب على الشيعة كما هو واجب على كل المسلمين ولكنه اقل أهمية من الحج إلى قبر علي بن أبي طالب في النجف والحسين بن علي في كربلاء وفي حواضر هذين المكانين المقدسين وخصوصاً في النجف يرغب كل شيعي أن يدفن (٨٠).

ان القادة الدينيين للشيعة – المفسرين والمطبقين للشرع – والذي يشمل تقريباً جميع القضايا المدنية هم المجتهدة. ومجتهدة النجف وكربلاء هم ذوي الامتياز والنفوذ المستمر وعملهم ليس فقط دينياً فهم يمارسون إقناعاً سياسياً روحياً قوياً جداً وهم يمثلون قوة ينظر إليها الأتراك بكره وعدم ثقة. ومن المهم أن نلاحظ أن اثنين ممن وقعوا على المذكرة المرسلة مؤخراً إلى بلاد فارس (٨١) كانا لابن أخ وابن أخت أحد أشهر مجتهدي كربلاء. وكان للحكومة الهندية علاقات بعيدة مع مجتهدي كلا المدينتين وعن طريقهم كان يتم توزيع الإعانات لفقراء الأماكن المقدسة من الأموال التي يطلق عليها (وقف أودة) (٨٢).

ان مركز التشيع هو بلاد فارس وليس بعيداً أن يكون الفكر الهندو–أوربي أو الهندو–جرماني الميتافيزيقي والذي أساسه في بلاد فارس قد لعب دوراً ما في تكوين أنظمة التشيع. وكان العراق محل ولادة هذا الفكر – والعراق ولاية كانت دائماً تقع تحت سطوة النفوذ الفارسي. ولقد كان هذا الفكر القوة الحقيقية المؤثرة على سكان العراق بحيث ان المهاجرين العرب من قبائل قلب الجزيرة العربية وهم سنة قد تبنوا عقائد الأرض التي وطئوها وأصبحوا شيعة بدون استثناء تقريباً ولا زالت هذه الحالة مستمرة، فقبيلة الشريفات وهي قبيلة بدوية خالصة تعود إلى اتحاد المنتفك تشيعت مؤخراً. والشحيم وهم فخذ من بني حميد في المنتفك لا

يزالون سنة ولو يمثلون نسبة صغيرة جداً. وهنالك نماذج على التشيع حتى في عائلة السعدون السنية – التي تنتسب للأشراف من أقرباء شريف مكة وهم من أنقى النسل السني.

إن العنصر السني في العراق بالرغم من صغره يتمتع بأهمية اجتماعية وسياسية غير متجانسة مع حجمه. ويتكون في الأساس من كبار ملاك الأرض ومن تجار أثرياء يسكنون المدن ويملكون عقارات على الأنهار كآل سعدون في المنتفك وآل النقيب في بغداد والبصرة فما عدى آل سعدون فأغلب السنة في العراق هم من سكان المدن. وطالما إن البلد كان خاضعاً لحكومة الأتراك السنية لم يكن للشيعة أي وزن سياسي ولم يكن للأوقاف الشيعية أي اعتراف رسمي لها ولم يكن قانون الشرع الشيعي والذي يختلف عن قانون السنة قد دخل في الدستور العثماني. وكان هنالك قليل من الحسد والمرارة بين هذين المذهبين المسلمين في العراق. وربما يعزى كل ذلك إلى الهيمنة المطلقة للسنة بواسطة الحكم العثماني ومهما تكن التغيرات التي سيجلبها المستقبل فإنه سيكون من أولى اهتمامات حكام البلد الاحتفاظ بذلك الوضع الجيد. (٨٣)

ان الخلاف الجوهري بين تعاليم الشيعة والسنة هو حول مسألة الخلافة. فبالنسبة للشيعي فإنه لا يعترف بأي خليفة حي (٨٤) فهو ينتظر مجيء المهدي الذي اختفى عن الأنظار في القرن التاسع الميلادي. اما في أعين السنة فإن السلطان العثماني سليم الأول قد حصل على الخلافة والإمامة من تنازل آخر خلفاء العباسيين الذي كان في مصر له (*)، إلا ان هذا الوضع فيه ضعف لأن السنة يعتقدون ان الخليفة يجب أن يكون من قبيلة قريش وذلك استناداً إلى الشرع المستند إلى الأقوال التراثية المحمدية – إلى الحديث – وعلى هذا الأساس فيصعب التوفيق بين مركز السلطان ومركز الخليفة لدى الدولة العثمانية.

وبالرغم من عدم اشتراط الدين بالضرورة ان يدير الخليفة كلاً من السلطة الروحية والدنيوية فإن ربطهما يعطي نتائجاً عملية. وللحقيقة فإن سلطان تركيا

كان وحده من بين السلاطين المسلمين قادراً لأن يقوم بدور المجاهد المسلم وكان هذا لصالحه إلى حدٍ كبير. وإن حماية الأماكن المقدسة تقع على الأتراك وهي من أهم التركات التي تقع على عاتقهم والمحافظة على سيطرتهم على مكة والمدينة وتبين ذلك أكثر وضوحاً من الجهود التي بذلها السلطان عبد الحميد الثاني بالإسراع بإنشاء سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة. ولتردد شريف مكة (٨٥) فلم يستمر العمل على إيصاله من المدينة إلى مكة.

وبالنسبة للشيعة فإن انتقال السلطة السياسية من السلطان العثماني إلى الشريف حسين في الحجاز كان مهماً في ذلك الوقت طالما أن ذلك سيؤثر على أوضاع الحج ولكن إعلان الشريف عن الثورة كان له معناً أوسع. لقد كان واضحاً لكل العرب سواء في العراق أو غيره أن الغرض المحدد لسلطة الحكم في تركيا هو تحطيم الأمة العربية وسحقها في جميع أرجاء الإمبراطورية. ولقد كان لإعدام العائلات العربية الرئيسية في بلاد الرافدين وسوريا ولطرد الموظفين العرب والعزم المعلن عن وضع حد لاستعمال اللغة العربية رسمياً مؤشرات عن سياسة خطرة على الشيعة كما وعلى السنة العرب على السواء وإن إدراك هذا الخطر قد أوحى للشريف حسين أن يعلن استقلال بني جنسه. وأمام خطر الشهرة السياسية التي تعرض لها هو ورجاله فقد كان الترجمة لطموحاته المكبوتة نحو الحرية التي كان يشعر بها طويلاً والتي لم يؤيدها الشيعة فحسب وإنما السنة المسلمون بشكل عام بل وأيدها أكثر المفكرين تنوراً بين الشعب العربي بغض النظر عن المكان أو العرق(٨٦).

المقالة الثامنة

المحمرة [١]

من أكواخ الفاو الطينية وحتى قناة خايين (٨٧) وهي تبعد ١١ كيلومتراً فـوق مصب نهر الكارون يشكل شط العرب الحدود بينما كان لتركيا في وقت ما وبـين بلاد فارس حالياً. ومقاطعة عربستان وهي أرض معزولة بجبال وأنهر وأهـوار عن تركيا وعن بلاد فارس قد احتفظت دوماً بوضع شبه مستقل بعيدة عن تـدخل أي من الطرفين إلا في بعض الحالات القليلة. ومع هذا فقد كانت لـزمن طويـل موضوع نزاع بين طهران والقسطنطينية حول ما إذا كان جنوب عربستان يقـع ضمن مناطق حكم الشاه وإلى أي مدى يكون ذلك. لقد كان النفوذ الفارسي عـادة متقلباً ولكن السكان جميعهم تقريباً كانوا عرباً قد نزحوا مـن ولايـات العـراق المجاورة. وحوالي نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن السابع عـشر ازداد العنصر العربي قوةً بهجرة قبيلة كعب الكبيرة التي كانت أصلاً خاضـعة للحكـم العثماني. ولكونهم رحالة ككل سكان بلد الرافدين قدموا مـن هـضبة الجزيـرة العربية يقال إن رجال كعب قد جاءوا من الـسواحل الغربيـة للخلـيج العربـي واستقروا على الغراف الذي ربما كان حين ذاك المجرى الرئيسي لدجلة واحتلـوا الأراضي المحيطة لمدينة واسط التي هي الآن تلال أثرية موحشة. وطردوا مـن أرض المنتفك من قبل اتحادها القوي فانتقلوا إلى دلتا الكارون ثم جوبهـوا مـن سكانه المحليين بنفس المعاملة التي تلقوها على أيدي قبائل اتحاد المنتفك فـانتقلوا شرقاً من الكارون إلى الجراحي ولم يكن لديهم فرق بين الحكم التركي أو الفارسي فكلاهما كانا غير مرغوب به ولكنهم بانتقالهم شرقاً جاءوا إلى أراضـي فارسـية

---

[١] **راجع خارطة عربستان (الاحواز) في نهاية الكتاب.**

بالتأكيد ووجدوا أنفسهم مرغمين على تقديم الولاء للشاه. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تم منحهم أراضي الهنديان شرق الجرّاحي وكان ذلك أبعد ما وصلوا إليه في ذلك الاتجاه. وبالرغم من كونهم من رعايا بلاد فارس بالاسم فقد كانوا في الواقع مستقلين فكانوا يظهرون في التاريخ المضطرب لجنوب العراق تارة حلفاء لبلاد فارس وتارة أخرى حلفاء لتركيا. واتخذوا على شط العرب مهنة القرصنة وهكذا اصطدموا مع شركة شرق الهند (٨٨) وأصبحوا عرضة لبعض حالات الانتقام غير المجدية ورغم صروف الدهر بقوا في الواقع متنفذين وأقوياء في أراضيهم.

وفي بداية القرن التاسع عشر ظهر على المسرح خصم محلي جديد لهم هي قبيلة المحيسن وهي قبيلة خاضعة للأرض كعب التي أسست مدينة المحمرة قرب ملتقى الكارون بشط العرب وبقيادة شيخ مقتدر ومعمر (٨٩) جداً أظهرت عزماً على التخلص من نير آل كعب. وحكم الشيخ جابر (٩٠) قبيلته من سنة ١٨١٩ وحتى ١٨٨١. ولعدم ثقته بالحكومة الفارسية اشترى عقارات واسعة في المنطقة التركية (البصرة) لكي يستطيع أن يجد مكاناً يلجأ إليه عند الحاجة تساعده في ذلك الحكومة الإنكليزية من خلال جهودها في القضاء على القرصنة في شط العرب ونهر الكارون مما أثار شكوك أسياده الفرس الذين كانوا ينظرون إلى العلاقات بين إنكلترا والمحمرة بعين الشك ومالت إلى تصديق الإشاعة القائلة أن الشيخ جابر كان ينوي أن يتخلى عن الفرس ويتحول إلينا –الإنكليز– أما ولده مزعل الذي جاء بعده فكان أقل ميلاً نحونا ربما بسبب كونه منافساً لنا في التجارة في منطقة الكارون إلا إن أخو مزعل الأصغر خزعل كان صراحة يجاهر بموالاته للإنكليز وحتى قبل توليه الزعامة أعطى لنا تأكيدات بأنه سيفعل ما بوسعه ليزيد من المصالح التجارية الإنكليزية وحيث كان الشيخ مزعل حاكماً طاغياً وماسكاً بالأمور لذا فإن اغتياله عام ١٨٩٧ لم يكن سببه يعود كلياً للنقمة الشعبية حيث استقبلت القبائل الخبر بترحاب (٩١) وأصبح الشيخ خزعل بالانتخاب العشائري

شيخ عشيرة المحيسن وأصدر الشاه أمراً بعد ذلك بتعيينه حاكماً لجنوب عربستان باعتباره حاكماً فارسياً تابعاً له وهكذا اندثرت مشيخة آل كعب (تلاشت في سنة ١٨٠٨) وورث آل محيسن أملاك آل كعب من الكارون إلى الهنديان ولم يثبت الشيخ خزعل في هذه المقاطعات بشكل محدد حتى سنة ١٩٠٣ عندما صدر فرمان فارسي أعطى له فيه صلاحيات ثابتة على كل جنوب عربستان باستثناء عقارات الجراحي والتي كان يمتلكها الإقطاعيون الفرس. وهي أراضي تمتد على شكل مثلث بين الهنديان والكارون وكانت سيطرة الشيخ خزعل غير الثابتة عليها مصدراً للمشاكل المستمرة كما ورث عقارات كثيرة في المقاطعات التركية (البصرة) وذلك عن والده وأخيه والتي أضاف إليها مقاطعات أخرى فأصبح من أكبر إقطاعيي منطقة البصرة. ومما زاد في نفوذه هناك حقيقة إن نسبة عالية من سكنة أحواض النهر الخاضعة للحكم التركي كانوا إما من آل محيسن أو آل كعب وكانوا هؤلاء ينظرون إليه كزعيم لقبائلهم. كان الوضع في منطقة عربستان غير مستقر سياسياً بين العثمانيين والفرس حول أيهما أحق بالسيطرة عليها. هذا الوضع الغريب لم يعر له العرب من سكان المنطقة أي اهتمام أو يفكرون بهذه الادعاءات لقناعتهم أن المنطقة منطقتهم والأرض أرضهم وإنهم سكانها الأصليون وكانوا – العشائر العربية – تستفيد من هذا الصراع. إن آل محيسن وآل كعب بالرغم من سكناهم داخل الحدود العثمانية أيضاً ولحصولهم على شهادة الجنسية التركية خضعوا بموجبها للخدمة العسكرية في الجيش التركي وبذلك دفعوا للنزوح إلى الجانب الفارسي تخلصاً من ذلك ونقلوا معهم كل منازعاتهم واعترفوا بحق شيخ المحمرة الكامل باستدعائهم للخدمة العسكرية في (إمارته) ومقاضاتهم. وحيث إن العديد منهم يملك أراضي مزروعة بالحنطة في منطقة الأهواز – وهو الجانب الفارسي – كان عليهم أن يهاجروا إليها خلال منتصف موسم الشتاء ويجنوا محاصيل تبعد ١٠٠ميل (١٦٠ كيلومتر) أو أكثر عن بساتين تمورهم في الجانب التركي –في منطقة البصرة– إن هذا الوضع المزدوج للسلطة على قبائل منطقة

شط العرب كانت إحدى المشاكل التي تواجه الإدارة في جنوب العـراق ولكنهـا ليست خطيرة إلى درجة كبيرة طالما باستطاعتنا الاعتماد على التعـاون الـودي لشيخ المحمرة معنا.

إن امتداد سلطة الشيخ خزعل في الشمال الغربي إلى قبيلة بني طرف الثـائرة جعلت أهوار الحويزة ومراعيها تحت سيطرته. وإن تطور التجارة في الكـارون أعطى المحمرة أهمية متزايدة باطراد كميناء وسط بلاد فارس وشخصية الـشيخ خزعل القوية وصداقته المعروفة للحكومة الإنكليزية لم تساعد على تقليل الشكوك حوله والتي أثيرت في كل من تركيا وبلاد فارس علـى الـسواء بـسبب نفـوذه المتزايد. وكان موقفه من بلاد فارس يشبه موقف جاره صديق العمر مبارك شيخ الكويت من تركيا. فكلا الشيخان كانا يتمتعان بحكم ذاتي ومهتمين بعمق الحفـاظ عليه وكانا يخافان من تطاول أسيادهم وتعديهم بينما كان الموقع الجغرافي لـلأول على مصب الكارون والثاني على رأس الخليج العربي قد جعلهما يتعـاملان فـي قضايا تجارية ذات أهمية دولية ازدادت حيوية بمشروع سكة حديد بغـداد. أمـا مبارك والذي كان رجل دولة ذا مهارة وبعد نظر فائقين فقد عمل من أجل اسـناد إنكلترا له وحصل على ذلك. وأما خزعل ربما كان أقل قدرة منه ولكنه كان يتمتع بإرشاد مستشاره الداهية ومساعدته وهو وكيله ووزيره معاً الحاج محمـد علـي رئيس تجار عربستان، فكان الشيخ خزعل يستند دائماً إلى التأكيدات والوعود التي كان قد قدمها لنا قبل توليه السلطة وحصل بالمقابل على مساعدتنا المناسـبة مـع حفظ كرامة بلاد فارس.

وفي سنة ١٩٠٩ أبلغنا الحكومة الفارسية بأن لنا علاقات خاصـة بـه وإننـا سنسانده في حالة وقوع أي عدوان على حقوقه(٩٢). وكان افتتاح حقـول الـنفط الفارسية وإنشاء معمل شركة النفط الإنكلو-فارسية في عبادان ضمن أراضي شيخ المحمرة قد عزز ارتباطنا التجاري معه (٩٣). وأصبح باحتلالنا ولاية البـصرة جاراً لنا وتحتم علينا الحفاظ على علاقات الصداقة والثقة بيننا والتي بـدأت قبـل

الحرب. ولم يكن كإقطاعي وشيخ عشيرة هي مطلبه الوحيد بل كان يطمح أن يكون قائداً عربياً وذلك لقوته واحترامه من قبل العشائر المحيطة به واستقلال عمله إضافة لكونه شيعياً قد زاد من نفوذه على المناطق المجاورة له والمحتلة من قبلنا. وفي زمن الأتراك كان شيوخ العشائر الكبيرة على طول نهر دجلة يطلبونه ويجدون الحماية عنده عند تمردهم واليوم يتفاخر الشيوخ والسادة على ضفاف النهر بعلاقاتهم الوثيقة به ويظهرون رغبة في زيارته من وقت لآخر. ومنذ اندلاع الحرب استعمل سلطته الشخصية بنجاح لصالحنا وقدم لنا كل المساعدة المتوافقة مع مركزه كمواطن في دولة محايدة ووضع تحت تصرفنا داراً لاستعمالها كمستشفى قاعدة تقع على شط العرب شمال البصرة. وفي ربيع سنة ١٩١٥عندما قامت بعض العناصر المتمردة من رعاياه مدفوعين بالدعوة إلى الجهاد التي نادى بها مبعوثوا الأتراك بالتمرد علينا وساعدت الأتراك بالهجوم على قواتنا في الأهواز وبقطع أنبوب النفط كان موقفه الثابت وإيمانه غير المتزعزع بإمكانيتنا للسيطرة على الموقف إضافة إلى نجاحنا في الشعيبة كان له تأثير كبير لمنع أي محاولات للخروج علينا. وسهل إعادة النظام مباشرة بعد طرد الأتراك عبر نهر الكرخة بواسطة اللواء الثاني عشر. ومما يزيد من صعوبة قيامه بالإدارة، الأوضاع المضطربة في شمال عربستان ولكنه لم يألوا جهداً للحفاظ على العشائر تحت قبضته وهكذا عزز رغباته الشخصية بمتطلبات سياسية سريعة وبالمقابل حفظنا له حق الملكية الكامل لعقاراته في المناطق المحتلة (البصرة). أما إقرار بقية حقوقه في المنطقة فقد تركها راضياً لكي يتم إقرارها في نهاية الحرب (*).

ومن الصعب تصور حدوث تناقض بين أعظم شخصيتين وقائدين موجودين في المحمرة –الشيخ خزعل والحاج محمد علي رئيس تجار عربستان.

فالشيخ خزعل رجل طويل القامة ضخم ذو ملامح قوية رغم عدم جمالها تدل على أصل سامي واضح تثبت صحة أصله العربي. وكان يلبس لباس الرأس القديم الخاص بآل كعب وعباءة سوداء يلتف بها وتتدلى منها خيوط إلى نهايتها كانت

تضفي عليه مسحة من الغنى تتناسب مع مظهره القوي وتدعمه. أما رئيس التجار فهو من دم فارسي نقي ضئيل الحجم إلا أنه نشيط الحركة بوجه جميل أثـــر بـــه الكبر كثيراً وعندما يقف الاثنان جنباً إلى جنب يكاد رأس أحدهما لا يــصل إلـــى كتف الثاني فهما يمثلان العقل والقوة الذين قادا المحمرة بأمان خلال المــصاعب بالرغم من تهديدات الفرس والأتراك لهما.

ويدرك الشيخ خزعل جيداً إن المستقبل من خلفاءه أكثر من الشجاعة الفرديـــة والمنزلة الموروثة إذا ما أراد الاحتفاظ بمراكزهم في النظام الجديد الذي بدأ يظهر في وادي الرافدين. ولذا أدخل أولاده مدرسة تعود إلى البعثة الأمريكية في البصرة ودائماً يحاول أن يطبع في أذهانهم أنه بدون الثقافة سوف يطاح بهم مـــن خـــلال التسابق على السلطة حتى ولو كانوا أمراء مستقلين. إن القوة الحقيقية لبلاده يمكن قياسها من ازدهارها السابق عندما أسر الملوك الساسانيون –أسلاف الشيخ خزعل الفرس القدماء – الإمبراطور فاليريان (٩٤) وبنوا السدود على أنهار عربـــستان الهائجة وأقاموا القلاع العظيمة والتي أشعلت آثارها خيال الجغرافيين العرب فـــي القرن العاشر الميلادي. وجعل طموح الشيخ الكامن في مجاراة الشهرة الساسانية يزين حيطان قصره في الفيلية جنوب المحمرة بقطع من الرخام تشابه قطع الرخام الساسانية حيث تشاهد عليها الجن وهي تقدم أكاليل النــصر لمقـــاتلين ضـــعاف مدججين بالسلاح كما تشاهد التاج الكسروي والوشاحات الطـــائرة للكـــسرويين – وهي غير جيدة في نحتها– وبالرغم من سرعة تكيف العرب هناك كان يوجد أمام الشيخ وخلفاءه مهمة أكثر صعوبة من مباراة الساسانيين ومسؤليتنا عـــن أولئـــك الذين وضعوا ثقتهم بالمدنية الإنكليزية تتعدى حالة الإعتناء بأمنهم السياسي فـــي المناطق التي تتطلب قدراً كبيراً من الصبر وتتعدى الحكمة التي جنيت بـــالمراس في حالة النجاح وفي حالة الفشل أيضاً(٩٥).

المقالة التاسعة

عشيرة على دجلة

دجلة نهر عربي وقد يعتبره التاجر ممراً تجارياً ويعتبره الجندي طريقاً للمواصلات وقد يملأ الجغرافي خريطته بأسماء قديمة وحديثة ولكن ما من تعريف آخر يمكن أن يرضي العالم المختص بأصل الشعوب والأمم أو يرشد الحاكم الإداري غير دجلة. إن دجلة نهر حالياً عليه الكثير من التحالفات العشائرية المهاجرة أصلاً من صحراء هضبة الجزيرة العربية ومن بين هؤلاء أسماء ترن بأساطيرها البطولية كبني تميم وبني ربيعة ويؤيد سجل التاريخ ادعاءهم بأنهم من سلالة عظيمة. ولا يوجد تغير في تكوينهم وفي طبيعة تنظيمهم الاجتماعي يجعلهم يختلفون عن البدو اليوم ولكن إقامتهم الطويلة في العراق أدت إلى تغيرات خارجية. فقد أصبحوا مزارعين ويستحصلون رسوماً من العشائر الأضعف منهم والتي قد يمثل بعضها طبقة من السكان أقدم منهم بينما البعض الآخر يمثل مجموعات قدمت من تكوينات عشائرية كبيرة من بلاد الرافدين تأثرت بالنفوذ الديني المحلي وتحولت من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الذي يتركز في النجف وكربلاء. ومن الناحية البدنية فقد استفادوا من ظروف أفضل في الحياة وأصبحوا من النماذج القوية الضخمة الأجسام الشائعة بينهم والتي تتناقض مع النحافة الناتجة عن جوع البدوي. ولكنهم إذا كانوا قد ربحوا من الثروة الدنيوية فقد خسروا كرامتهم. فإخوانهم على تخوم البراري يرفضون تزويج بناتهم من قبائل العراق هذه ولم يتزوجوا هم من بنات العراق. فهم بنظرهم (معدان) وهو مصطلح عام يطلق عامة على من هم ذوي مستوى اجتماعي أوطأ في هذه المنطقة. فبالنسبة للبدوي فإن جميع سكان ضفاف الأنهر (دجلة الجنوبي) هم معدان. أما بالنسبة للمزارعين فإن هذا التعريف ينطبق على أصحاب الجاموس وصيادي

الأسماك في الأهوار. أما لغوياً فإن أصل الكلمة مشتقة من (عدن)(٩٦) ذلك السهل الذي أصبح نتيجة لاختلاف الأفكار مرادفاً للجنة.

إن قنوات دجلة والأهوار التي تصب فيها لم يزرها الأوربيون إلا نادراً خلال الحكم التركي ولذا فإن طريقة حياة العشائر تكاد تكون غير معروفة لدينا. ولم تكن أسماء البو محمد وبني لام وبني ربيعة لتمثل لدينا أكثر من سكان رعاة البراري ذوي عادات تمردية والذين كانوا في أوقات متكررة يطلقون النار على البواخر ويوقفون مرورها، ويتحدون المحاولات التركية لوضعهم تحت المراقبة. إن إحدى تلك المجموعات الكبيرة (وهي عشيرة البو محمد) أصبحت في سنة ١٩١٥ كلياً تحت السيطرة الإنكليزية وبدأنا الآن في تكوين فكرة عن تركيبها وخواصها. ولا تعتبر هذه العشيرة كوحدة مستقلة منذ زمن طويل وحسب قول أفرادها فهم فرع من آل زبيد وهم أناس كثيرو العدد منتشرون في مناطق واسعة إحداها شمال العراق. ولا توجد تواريخ ثابتة للمؤرخين المحليين ولكن خلال الأجيال التسعة الماضية كان لألبو محمد تواجد متفرق على ضفاف دجلة بين العمارة وقبر عزرا (العزير)(٩٧) ومقرهم الرئيسي مدينة قلعة صالح الصغيرة. ومنذ ذلك الحين قطعوا صلاتهم بأسلافهم من الزبيد فلم يهتموا ببعضهم.

ويبدو إن الاهتمام الديني الشائع بين العشائر الأصيلة ليس بالقوي عند البو محمد ولكنهم ينظرون إلى السادة (جمع سيد) وهم أحفاد النبي باحترام ويلجأون إليهم للاحتكام في منازعاتهم ويحترمون أحكامهم. وجعلت نداءات الجهاد التي نشرها سادة المدن المقدسة (يقصد رجال الدين) هذه القبائل ضدنا في بداية الحرب ولكن يصعب تحديد الدور الذي لعبته العواطف الإسلامية أو الرغبة الطبيعية للاشتراك بأي حركة تعطي طموحاً مرغوباً بالخروج على القانون والسلب.

ولم يظهر الشيوخ والرؤساء أي تعاطف متواصل مع الأتراك الذين قضوا معظم حياتهم في حالة صراع معهم وانقادوا لنا حال إكمال استقرارنا في العمارة وأظهروا ولاءهم المتعلق لنا خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة كما أظهروا

رغبتهم في قبول طلباتنا منهم بالعمل في الطرق والسكة الحديد واظهارهم الاحترام للموظفين الإنكليز.

إن الأراضي التي يستقر بها هؤلاء هي ملك للتاج العثماني ومؤجرة لمدة خمس سنوات لمن يدفع أكثر ولكن حق وضع اليد من قبل العشيرة على أراضي منطقتها قد حدد اختيار المستأجرين ولم تستطع الحكومة التركية عملياً منح أي من مزارع البو محمد لغير شيوخ العائلة الحاكمة للعشيرة(٩٨). فهم يديرون ويزرعون المنطقة ذات القنوات العظيمة على جانبي النهر جنوب العمارة ويسكنون في الأهوار عند مصب هذه الطرق المائية. ويسكن المزارعون كالمعدان في أكواخ من القصب التي يمكن نقلها بالضبط كخيام البدو وهم ضمن حدودهم لا يزالون بدوا وكان الميل نحو الاستقرار يقابله خوف من التجنيد(٩٩). ولكن الشيوخ يملكون الأملاك في العمارة وقلعة صالح تماماً كشيخ من الصحراء السورية الغربية يملك بيتاً في دمشق. وأولئك الذين استأجروا نفس العقار مدة بعد مدة على مدى سنين عديدة ابتنوا لأنفسهم دوراً من الطابوق في مواقع سكناهم الاعتيادية. إن حكم الشيخ في جميع القضايا العشائرية هو حكم سياسي وفي هذه الناحية وسواها يتوارث النظام الاجتماعي للصحراء (١٠٠).

وتسير النساء بين رجال العشيرة بحرية وبدون حجاب، وبالرغم من إن قيمة المرأة بشكل عام كانت لا تحسد عليه سواء في قرية أكواخ البردي أو في الخيام السوداء ولكن يمكن أحياناً أن تلعب دوراً مؤثراً. وهنالك سيدتان مرموقتان في عشيرة البو محمد أختان وزوجتان مطلقتان لشيخين (والمقصود ليس لكبار السن بل رؤساء قبائل) رفضتا الدخول في مغامرة زواج جديدة وعادتا إلى أخويهما. تديران الأرض المخصصة لهما بحيوية ليست اقل من الحيوية التي تبديانها في توجيه شؤون العائلة. واحدة من هؤلاء النساء (العربيات) من بلاد الرافدين المتمسكات بحقوق جنسهن (والصدق يرغمنا على الاعتراف بأنها سليطة اللسان) قد حصلت على قطعة ارض حكومية من قبلنا عندما ظهر إن ابن زوجها صعب

المراس ومشاكس ولكن هذا كان خارج نطاق إمكانيتها. وأخرى كانت معتادة على مرافقة أخيها الشيخ في زياراته الرسمية إلى بغداد وتقابل عندما تذهب إلى بيته في العمارة الدلالين والتجار الذين تجري معهم تجارة الحنطة. ولكونها امرأة مرحة شديدة العزم، تسر بأحاديث القيل والقال ولو من ضابط سياسي عابر خلال جولته، وهي لا تبالي بسفرة طويلة عن طريق النهر والترع لغرض زفاف عروس إلى بيت قريب من أقاربها الشيخ أو إعادة عروس ما إلى أهلها إذا لم تكن مقتنعة بالاستقبال الذي قوبلت به. وذكرت بوصف عمل من هذا النوع (إن بناتنا جميلات كالطيور والذهب) وقامت بحركة معبرة جعلتنا نتصور عدم كفاءة السكن الذي خصص لكنوز كهذه. ومع هذا فإن حالات فسخ الزواج هذه لابد وأن تكون نادرة الحدوث لأن شيوخ البو محمد يتزوجون بعدد كثير من الزوجات (١٠١). وليس غريباً أن يكون أولاد الأسرة الواحدة بين أربعين وخمسين فرداً ويزداد العدد بجحفل من خدم المنزل والذي يدل شعرهم وملامح وجههم على دمائهم الأفريقية بالرغم من إن معظمهم قد أضاعوا ملامحهم الأصلية نتيجة توالدهم لأجيال عديدة في بلاد الرافدين. ويحتفظ كل شيخ مثل شيوخ أواسط الجزيرة العربية المستقلين بحرس أو حاشية يستلم أعضائها منحاً من الأرض مقابل خدمتهم العسكرية.

وبهذا العدد الكبير لأسرته وخدمه وحاشيته يصبح الناس الذين يعيلهم الشيخ بالمئات. وحسب العادة العربية فإن داره كانت تبقى مفتوحة لكل من يأتي لتقديم احترامه. وتبلغ الضرائب التي يقدمها للحكومة في الأراضي الغنية أكثر من عشرين ألف باوند سنوياً وكانت زمن الأتراك ضعف هذا المبلغ عندما كان الإيجار يفرض عن طريق المزايدة لفترة محددة. ولكن بالرغم من احتمال عدم تملكه نقوداً تحت اليد وتحت تصرفه (أي سيولة نقدية) فإنه مع هذا غني يعيش بصورة جيدة على نتائج أرضه. وتقاس قوته بقدرته على استخدام رجاله للعمل في الأرض وبهذه الطريقة يجمع المزارعين المشتتين سوية. وعندما تسد القناة بالطمى تضطر القرية أن ترحل مما يؤدي إلى خسارة في القوة العشائرية وخسارة

لدخله. ويعتبر حدوث مثل تلك الظواهر مصدر قلق له لأن إذا تفرقت الأيدي العاملة فمن الصعب تجميعها.

وتقرر الظروف الطبيعية تركيب مجتمع البو محمد الاجتماعي. فعلى ضفاف النهر والقنوات الرئيسية ارتفعت الأرض بفعل ترسبات الطمى مما أدى إلى جعل الماء يسير في أخاديد منخفضة عوضاً عن الوادي الذي كان في السابق. وتنمو على تلك الأخاديد المحاصيل الشتوية كالحنطة والشعير ويعتمد الحاصل على سقوط المطر إلى حد ما.

وإن الممرات القذرة المليئة بالأحراش وقليلة السكان إضافة إلى عامل ارتفاع الأرض (عن مستوى النهر) تخلق جواً من الوحشة حيث إن المزارعين هم أناس استقروا بعد أن جئ بهم من اتحادات عشائرية مجاورة ضعيفة ويعملون لدى شيوخ البو محمد الأثرياء ويدخلون في علاقات عشائرية مع مستخدميهم وكلما انخفضت الأرض باتجاه الأهوار تتحول الزراعة المشتتة إلى حقول الرز مع ازدياد في كثافة السكان وتترامى أكواخ البردي الصفراء والتي تغطى شتاءاً بقش التمن لمنع نزول المطر ووصول الرياح الشمالية على ضفاف الترع وتشكل طرقاً قروية طويلة. وبالرغم من رداءة مكونات هذه الأكواخ فإنها تعطي انطباعاً عن البحبوحة والثراء الريفي الذي يحمله مظهر سكانها الأشداء جيدي التغذية. سكن تلك القرى رجال عشيرة البو محمد الذين احتفظوا بأراضي الرز الخصبة لزراعتها والربح منها واستأجروا الفلاحين من حقول الحبوب لكي يقوموا بالأعمال الثقيلة. وتنتهي الأرض بقصب البردي ومياه الأهوار الممتدة حيث تمثل مزارع المعدان الأكمات القديمة والمليئة بقطع الأواني الخزفية المكسورة وحيث المشحوف الخفيف والمغطى بالقار هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات.

وفي المنطقة الممتدة من النهر حتى الهور لم يوجد دار لأي من المزارعين عدا بيت الشيخ المبني بالطابوق. وكما نمت الأسواق في المدن الصحراوية الصغيرة لتلبي حاجات البدو كذلك نشأت أسواق على القنوات وتجد هنا وهناك مستعمرة من

سكان المدن مجتمعه حول سوق ملئ بالبضائع القطنية والتمور والقهـوة والتبـغ وحاجات أخرى بسيطة من متطلبات الريف. ورأس تلك المجموعات تاجر مـن أصحاب الدكاكين ذكي من أصل نجدي يتميز عن سواه بملامحه الأجمل وثقافتـه المتميزة ويقوم بدور المدير نيابة عن الحكومة. ولكونه سني ملئ بالاحتقار الشامل لعملائه اعتبارا من الشيخ نزولاً إلى رجل الهور حيث يتخذ زوجاته من عائلات ذات أصل مشابه لأصله يأتي بهن من الزبير أو غيرها على حـدود الـصحراء ويحفظ دم نجد وتقاليد نجد الصميمية وسط العراق.

وبالرغم من الاضطراب الذي كان سائداً تحت الحكم العثمـاني فـإن عمـل الموظف الإداري سوف لن يثير صعاباً كبيرة عندما كـان يـتم إقـرار الـصفة العشائرية لريف البو محمد واستعمالها لصالحنا. إن الحكومـة التركيـة لكونهـا أضعف من أن تحكم سيطرتها على الشيوخ حاولت أن تلغم سلطتهم وبدون تقـديم بديل عن ذلك وعوضاً عن محاولة تخفيف الشقاق والفتنة اعتبرت إثارة الفتنة بين العشائر أفضل ضمان لها ضد التحالف العدائي وقبلت بالشغب المحلي باعتبـاره أقل هولاً من الشرّين وأساليبهم التي تمت بحذق عظيم والتي كانت إلى حد كبيـر ناجحة مكنتهم من الإحتفاظ بمظهر الإدارة والذي سيثبت أنه سيكون إرثـاً قيمـاً لحكام أقدر(١٠٢).

المقالة العاشرة

عبدة النجمة في بين النهرين

شئ غريب في بلاد الرافدين وجود أناس استعاروا من جميع ما حولهم من الأجناس وتبنوا عادات مختلفة ومع هذا فهم يحيون حياة اجتماعية انعزالية.

هؤلاء هم الصابئة المعروفون لدى البعض (بعبدة النجمة) في بلاد الرافدين. ودعاهم بعض الكتاب (بمسيحيي القديس يوحنا) (١٠٣) ولكن هذا اسم لا ينطبق عليهم لأن (يوحنا) الذي يدعون الانتماء إليه هو بالتأكيد ليس قديساً وهم ليسوا مسيحيين بأي معنى للكلمة بل هم الصابئة المذكورون في كتاب أيوب وليسوا الصابئة المذكورين في القرآن وخلال فترة نفوذ الإسلام قبلوا التفسير القائل بأنهم الصابئة المذكورون في القرآن كي يحموا أنفسهم من القتل طالما إن الصابئة مذكورون في القرآن مع المسيحيين واليهود على أنهم (أهل الكتاب) ولذا يجب احترامهم (١٠٤). إن الاسم العلمي الصحيح لهؤلاء الناس (هو مندا آن) (*) الذي يعني بلغتهم التلميذ ويشيرون إلى أنفسهم على أنهم (تلامذة يوحنا أو حوارييه) ولغتهم (الماندية) تعود إلى مجموعة اللغات السامية وابنة عم من الدرجة الأولى للغة السريانية (١٠٥) وليس لديهم أدب مطبوع ولو إن بعض كتاباتهم أصبحت بيد البحاثة الأوربيين. وأول البحاثة عن الماندانيين هو بيترمان – مستشرق ألماني قضى قبل حوالي ٦٠ سنة سنتين بين الصابئة في سوق الشيوخ وهم أيضاً يتكلمون العربية بالرغم من إنهم لم يدخلوا أي مدرسة عربية مطلقاً –حسب علمي– (حسب علم الكاتب).

كان عددهم يربو على عشرين ألف عائلة في القرن السابع عشر أما في وقتنا الحاضر فلا يزيد عددهم على (٣٠٠٠) شخص وهم موجودون في بلاد الرافدين فقط يسكن بعضهم في بغداد أما أغلبهم فيسكن حول سوق الشيوخ (١٠٦) لا

يتواجدون إلا بالقرب من ماء جار بقدر ما تتطلب عقيدتهم الدينية من قرب للمـــاء ويعزى سبب تناقص عددهم الهائل بالدرجة الأولى إلى قتل المسلمين لهم وكـــذلك بسبب النزاعات فيما بينهم، إضافة إلى ذلك فإن عدداً من نـــسائهم تزوجـــوا فـــي السنوات الأخيرة من رجال مسلمين وهكذا فإن عرقهم يضمحل بـــسرعة وكـــانوا يملكون ثلاث حرف رئيسية :صياغة الفضة، وبناء القوارب الـــصغيرة وصـــنع الجبن والألبان ويطلق على قاربهم الصغير اسم (مشحوف) وتشتهر مـــصوغاتهم الفضية بصناعتها الفاخرة وتتكون من اللونين الفضي والأسود مصنوعة على شكل تصاميم ذكية وتعتبر مكونات هذا اللون الأسود مطعم به الفضة والذي يعتقد أنـــه الأنتيمون سراً من أسرارهم التجارية وفي السنوات الأخيرة كان العـــرب أكثـــر تسامحاً معهم بسبب مهاراتهم كصاغة وبناة قوارب والتي لم يمتلك العرب فيها أي مهارة. وديانتهم مزيج غريب من الوثنية البابليـــة القديمـــة والعبـــادة اليهوديـــة والمسيحية والإسلام ومن اليهودية استعاروا مبدأ ذبح الضحايا والتنقيـــات ومـــن المسيحية استعاروا الاعتراف بيوم الأحد كأول أيام الأسبوع وبالمعمودية والعشاء السري واحترام يوحنا المعمدان أما من الإسلام فقد اســـتعاروا تعـــدد الزوجـــات (١٠٧).

ويحتوي كتابهم العظيم الذي يسمى (سدرا رابا) على قوانينهم بشكل مجزأ نوعاً ما ويدل بوضوح على تعدد المؤلفين له وعدد كبير من المتناقضات ومن الصعب جداً إلقاء نظرة وإن كانت بسيطة على هذا الكتاب بالرغم من المحاولات العديـــدة للحصول على نسخة واحدة منه. وقبل بضعة سنوات نجح بعض المسافرين مـــن سرقة نسخة منه ولكن قدمت الطائفة احتجاجات إلى القنصل عن طريق ممثلـــين عنهم وأعيدت النسخة إلى أصحابها وحسب ما أعلم أنه توجد نسخة أخرى منه في المتحف البريطاني مع نسخة مترجمة بصورة سيئة إلى اللاتينية ناقصة ولم تكتمل أبداً. وفي سنة ١٩٠٤ وعن طريق صداقتي مع كاهنهم الأول سمح لـــي بـــشراء نسخة بسعر (١٢) ليرة تركية ذهب ولكن بشرط أن لا أبيعها ومع ذلـــك حـــدثت

تظاهره كبيرة لجميع الصابئة في اليوم التالي وقاموا بمحاولات جـــادة لإرغـــامي على إعادة الكتاب وتلك النسخة تترجم في أميركا الآن ومن المظاهر الغريبة لهذا الكتاب إن كل صفحة فيه مقلوبة بشكل يسمح لوضع الكتاب فوق مجرى ماء رفيع وقراءته من كاهنين يجلسان على جانبيه.

وكتاب آخر من كتبهم هو (كتاب الأرواح) والذي يتكون ثلثاه مـــن صـــلوات للأموات ويحتوي هذا الكتاب أيضاً على قصة موت آدم الذي يعتبرونه واحداً من أعظم الأنبياء.

وهناك كتاب ثالث يحتوي على نظام الخدمة الدينية للكهنة وكتب أخرى تختص بمراسيم الزواج وحياة يوحنا المعمدان ونبذة في علم التنجيم ولوائح مختلفة للعزائم والسحر.

ويقول معتقدهم إن أصل العالم جاء مما يدعى (الثمرة الأولى) وهذا ما يـــشبه النظرية الاورفية باعتبار العالم بيضة وإن الإله الأعظم أخرج الحياة من داخـــل هذه البيضة العظيمة والتي فيها صدرت حياة أخرى هي حياة يسوع المسيح ولكن هذا الأخير حاول أن يغتصب قوة الإله الأعظم ولذا فقـــد وضـــع بـــين كواكـــب ميركيوري (١٠٨) ويعتقدون أن السماء تتكون من أنقى المياه وهي بحالـــة مـــن الصلابة بحيث يصعب على أقوى ماسة أن تقطعها والتي تطفوا فيها كافة الأجسام السماوية ومنها الأرض ويعتقدون أيضاً إن الأرض محاطة مـــن ثـــلاث جهـــات بالبحار أما الجهة الرابعة فهناك جبلاً من فيروز الـــذي يعكـــس اللـــون الأزرق للسماء. ويعتقدون كذلك أن ملكة الظلام تزوجت النار وولدت أربع وعشرين ابناً سبعة منهم هي كواكب من ضمنها الشمس واثنا عشر كـــانوا علامـــات البـــروج والخمس الباقون غير معروفين. وهذه الكواكب هي مصادر الشر للبـــشر. ويقـــع النجم القطبي في أعلى قبة السماوات ولذا فهم يتجهون نحوه بالصلاة وهـــم لهـــذا السبب يدعون (عبدة النجمة). (*)

والصابئة يمارسون المعمودية والتي يتلقاها المتدينون منهم كل يوم أحد وهم يحتفلون بنوع من العشاء من الواضح انه تقليد لتناول القربان عند المسيحيين.

ولهم أماكن عبادة كبيرة تتسع لكاهنين أو ثلاثة وتجري من خلال أماكن هذه العبادة جداول صغيرة للماء تجري الصلوات فوقها. ولا تحتوي كنائسهم على أثاث عدى رف تحفظ عليه الكتب وبعض الأشياء الأخرى. والكهنوتية مفتوحة عندهم للرجال والنساء، أول مرحلة فيها هي درجة الراهب تليها درجة الكاهن ثم درجة المطران وأعلى درجة في الكنيسة هي في شخص الكاهن الرئيسي (الأول) ويدعى الكاهن الأول الحالي الشيخ محيي ويسكن في سوق الشيوخ. ولا يمكن لأي كاهن أن يكون له أي عيب جسماني أو بقعة أو لطخة في جسمه وبالنتيجة كان الكاهن الأول من أجمل الأشخاص الذين شاهدتهم في حياتي. ويمكن للمرأة أن ترتقي إلى درجة الكاهن ولكن بشرط أن تتزوج من كاهن.

ويعتبر لبس السواد عندهم مناقض لديانتهم أو أن تلبس نساءهم أي لباس لونه أزرق. ويتساءل المرء كيف ستسير هذه الفئة الغريبة في ظل الإدارة الإنكليزية الجديدة. وبالتأكيد هم موالون للإنكليز وذلك بسبب كونهم دائماً ضد الأتراك. وهم يحلقون شعر رؤوسهم ويمكن بالتأكيد اعتبار الرجال والنساء فيهم شديدي الجمال بحيث يمكن تمييز الصابئ حالاً من درجة جماله.

قام الأتراك بتجنيدهم في الجيش ولكن أعفي عنهم بسبب الاستحالة الكاملة لتوفير متطلباتهم الدينية قرب ماء جاري (للاغتسال).

إلى القسم الثاني أيها القارئ العزيز.

بسم الله الرحمن الرحيم

هوامش القسم الأول

مقدمة المعلق

(١) بين النهرين أو وادي الرافدين (M esopotamia)[١] وهي الأرض التي تقع بين نهري دجله(Tigris) والفرات (Euphrates) وحولهما ابتداءً من المنطقة التي يقتربان عندها في العراق(IRAQ) حالياً (بين بغداد والفلوجة) متجهين شمالاً وقد أطلق المؤرخ اليوناني هيرودوتس هذه التسمية ميزوبوتيما على هذه البقعة وقد سميت أيضا في بعض الكتب الجغرافية الأحداث منها بـ (الجزيرة)، لأنها محاطة بنهري دجلة والفرات وفروعهما من أربعة جهات سوى برازخ صغيرة متعددة مفتوحة. أما القسم الجنوبي من المنطقة المذكورة أعلاه أي من نقطة اقترابهما حتى مصباهما في الخليج العربي فسميت بأرض (سومرو أكد) ثم سميت في بعض الأطالس والكتب التاريخية بـ (بلاد بابل Babylonian).

---

(١) Mesopotamia: بين النهرين تسمية أطلقها الأوروبيون ومنهم الإنكليز على وادي النهرين دجلة والفرات أو وادي الرافدين. وكان الأوربيون يطلقون تسميتين لهذا الوادي قبل ذلك حيث نصفوه نصفين من بغداد أو وسط الوادي إلى شماله يسمونه بين النهرين أما القسم الجنوبي من الوادي يسمونه Babylonian.

أما العرب فسموا القسم الجنوبي إلى تكريت وخط مستقيم إلى حديثة بإقليم العراق ومن شمال ذلك باسم إقليم الجزيرة ويضم حوض نهر الزاب الأسفل والزاب الأعلى ونهر خابور الفرات إلى محاذاة جبال طوروس الجنوبية ومنابع نهر دجلة والفرات.

ذكرت ذلك تأكيداً ومقارنة بين جغرافي العرب ومؤرخيهم وبين جغرافي الأوروبيين ومؤرخيهم.

(٢) كتبت هذه المقالات كما جاءت بالمقدمة – للقوات الإنكليزية الغازية لبلادنا التي كانت تضم ضباطاً جلهم من الإنكليز، والقارئ العربي يشعر من خلال قراءته بالتوجيه الخاص والموحى به لهؤلاء الضباط ليستفيدوا من أوضاع الشعب العراقي المختلفة سواءً تعدد قومياته أو العرقية أو الطائفية أو المذهبية أو العشائرية وشعارهم (فرق تسد) وتطبيق سياستهم المتبعة في الهند على العراق ليصفا لهم السيطرة. وإنها كتبت بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧. ومس بيل قالت إنها كتبت مقالاتها في شهر حزيران وتموز من سنة ١٩١٧ وصدرت في تشرين الأول ١٩١٧[١]. وعلى سبيل المثال إن السير أرنولد ولسن وهو الوكيل للحاكم المُلكي [٢] الإنكليزي العام أيام الاحتلال الدابر للعراق في كتابه (الثورة العراقية) المترجم من قبل الأستاذ المرحوم جعفر الخياط يقول (...... إن الحركات المناوئة للإنكليز صادرة من الطائفة السنية (التي تمثل التعاون مع العثمانيين) ولا يعقل أن الشيعة تؤيدهم (أي إن تعاون السنة والشيعة لا يعقله الإنكليز) لان الإنكليز قدموا إلى العراق لإنقاذ الشيعة من نفوذ الحكومة التركية السنية التي كانت تظلم الشيعة كثيراً وتغبن حقوقهم).

وقد أكد اتجاههم هذا أثارتهم النعرات المفرقة للشعب ما جاء بكتاب (الوقائع الحقيقة للثورة العراقية) لأحد مفكري ثورة ١٩٢٠ ورجالها علي بن عبد الحميد آل بازركان رحمه الله (من انه سمع هذا القول من الإنكليز أنفسهم ومجنديهم أثناء عودته مع الملك فيصل الأول على متن السفينة الحربية نورث بروك التي أقلتهم من مصر إلى جدة ثم إلى البصرة وقد ردهم على تصورهم هذا) [٣]. وقد حاول المستشرقون في كتاباتهم إبراز هذه

---

(١) راجع مقدمة القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) الملكي تعبير عثماني وتعني مدني.

(٣) علي آل بازركان الوقائع الحقيقة في الثورة العراقية طبع ١٩٥٤ صفحة ٧٠

الناحية ومن يراجع على سبيل المثال كتاب تاريخ العالم لــ هامرتن فـصل ٩٧ [١]يرى كيف كان الدس على العرب والدين الإسلامي ومحاولة التقليل من شأنهم وتحريض الواحد على الآخر والتفريق بين العرب على أساس الدين والطائفية والعشائرية والاستهانة بالعرب ورفع شأن غيرهم ....الخ.

لذا نجد الغيظ قد أصاب المستعمرين الإنكليز عندما وجدوا إن الشعب العراقي قد توحد جميعه ووقف بوجههم قبل ثورة العشرين وبعدها حيث عقدوا على الفرقة الآمال الكثيرة وكذلك منوا بالفشل الذريع لتفرقة الشعب العراقي.

فلما انتهت ثورة العشرين أوحى هؤلاء المستعمرون إلى البعض ممن ضعفت نفوسهم أو ممن باعوا ذممهم من اجل نشر الانقسامات ومحاولة تشجيعها، وحاول بعض الذين كتبوا عن ثورة العراق لسنة ١٩٢٠ التعتيم على بعض شخصياتها وقادتها أو بعض حوادثها ليوحوا للقارئ إن الثورة فجرتها مجموعة من الشعب وليس الشعب بأجمعه.وهذا ما يحاول العملاء أعداء الشعب نهجه دائما لتعميق الشقاقات والتفرقة.

ومن طرق المستعمرين الخبيثة في كتاباتهم وأعلامهم عدم قبولهم أي ممثل للشعب مادام ذلك الممثل لا يتجاوب معهم وإلا فهو متطرف أو إرهابي أو متوحشون أما المعتدلون فهم المعتمدون والمتعاونون معهم.

---

[٤] راجع هامش (٢) في صفحة ٩ من هذا الكتاب.

فالذين يأتون من بلاد بعيدة ويحتلون أراضي غيرهم لا يسمون إرهابيين أما الإرهابيون فهم أبناء البلاد الذين يدافعون عن بلادهم ومثالهم كثرة منها العربي الفلسطيني الذي يدافع عن ترابه يسمى إرهابي والهنود الحمر أيضاً يسمون متوحشين ....الخ.

استراتيجية الإعلام الإنكليزي عند احتلالهم للعراق

وبالمناسبة أدعو إخواننا الباحثين إلى دراسة خطة الإعلام الإنكليزي منذ نزولهم في الفاو سنة ١٩١٤ حتى وقت متأخر بل هل استمروا على هذه الاستراتيجية (السوق) والى أي مدى وصلت ثمارها وذلك من دراسة جميع البيانات التي أصدروها ووجهوها إلى الأهالي (الشعب) وخطب رجال عساكرهم ورجال سياستهم وصحفهم والأقلام التي جندوها لأجل ذلك سواءً شعراً أم نثراً أو في إصدار مجلات وكتب إعلامية بل وحتى دراساتهم التي ساهموا في تأليفها أمثال مؤلفات لونكرك وويلسون وهنري دوبس ...الخ. وان تقتصر الدراسة على رجال الإنكليز فقط وتقاريرهم السرية التي كتبها رجالهم ونوثق النصوص لتكون مرجعاً لنا ولأجيالنا وهذه النظرة الإعلامية بودي أن يتصدى لها باحثينا فتشمل جميع فترات تأريخنا التي حاول الأعداء فيها لوي تفكير شعبنا مثل البويهيين والسلاجقة والفرس والعثمانيين، انه بحث ممتع وجديد ثم تدرس مدى تأثير هذا الإعلام على شعبنا.

و أُجمِلُ ما استقرأته فأقول إن الإعلام الإنكليزي كانت مرتكزاته على:

١. إظهار الأتراك مستعمرين للعرب وتعميق الشعور بذلك بالكراهية لهم.
٢. تعميق الطائفية والاختلافات القومية والدينية والعشائرية والمذهبية.
٣. خلق طبقة من المستفيدين اقتصادياً لمساعدتهم في إدارة الحكم في العراق من أبناء الوطن ومن النفوس الضعيفة.

٤. تحبيذ الاستعمار الانكليزي وتصويره انه جاء منقذاً لا محتلاً وانه جاء لانهاض البلاد وتقدمها لا الى نهب ثرواتها وانقاذها من الفوضى والقضاء على الجهل والمرض والفقر.

أما التكتيكات (التعبئة) التي مارستها سلطة الاحتلال أولاً وما أعدت لها من مجندين من خونة الوطن فهذا يحتاج إلى دراسة أيضاً.

هذه ملاحظاتنا السريعة ونحن بانتظار هذه الأبحاث وعسى أن لا يطول بنا الانتظار . وبعد أن أنهيت ما كتبته أهدى لي أحد أصدقائي الباحثين باكورة دراساته وهو الأستاذ هادي طعمة (الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية – دراسة في الحملة الدعائية البريطانية ١٩١٤ –١٩٢١) والمطبوع في دار الحرية – بغداد – ١٩٨٤ وهي دراسة قيمة بذل فيها جهداً لا ينكر فصحافة الاحتلال ودراستها شيء مهم أرجو منه أن يرفدها برسالة متممة حول ما آلت إليه ذيول تلك الدعاية بتوسع.

المقالة الأولى

عرب وادي الرافدين (أو عرب بين النهرين)

(٣) لقد استفادت (مس غيرترود بيل) وهي من طلائع العاملين للحكومة الإنكليزية في المشرق العربي والتي أصبحت من خبرائها عند احتلالهم لبلادنا من هذه المقالات الشيء الكثير واقتبست منها في كتابة تقريرها الذي قدمته إلى حكومتها ثم إلى البرلمان الإنكليزي في خريف سنة ١٩٢٠ بعد أن طلب منها رسمياً كتابة ذلك إلا إنها لم تشر إلى مصدر اقتباسها ويراجع موضوع ذلك في كتاب (فصول من تاريخ العراق القريب ١٩١٤ –١٩٢٠) والذي ترجمه الأستاذ الجليل المرحوم جعفر الخياط وطبع سنة ١٩٤٩ ثم أعاد طبعه سنة ١٩٧١ بعد تنقيحه مع إضافة فصول جديدة لم يكن قد ترجمها سابقاً إلا إذا كانت مس بيل هي التي كتبت مقالات الكتاب الذي بين أيدينا وهو حدسي.

(٤) يحاول الكُتّاب الإنكليز عموماً تسمية الفترة التي خضع العراق فيها للحكومة العثمانية (بفترة الحكم التركي) وذلك عند تحدثهم عن تاريخ هذه المنطقة لتأجيج الصراع القومي بين القوميتين في القطرين المتجاورين والتي تربطهما روابط الدين الإسلامي. ومن ذلك نهجت جميع وسائل إعلامهم هذا النهج الاستراتيجي منذ احتلالهم العراق لتشجيع التفرقة الطائفية والقومية والدينية في العراق حتى لا تستقر المنطقة العربية. وان قيل عن التخلف في المشرق العربي الخاضع للحكم العثماني فأن هذا التخلف قد عم جميع أصقاع الدولة العثمانية بلا استثناء سواءً في المقاطعات التركية أو العربية أو غيرها. وقد حاول الأوربيون جهدهم إثارة النعرة الشوفينية (المتطرفة) لدى الأتراك في الدولة العثمانية محاولين تمزيقها بشتى السبل للاستيلاء على أراضيها وتقسيمها كما وضح في

معاهدة سايكس–بيكو سنة ١٩١٦ وهكذا وجدت جمعية الاتحاد والترقي الشوفيني (المتطرف) واكثر قادتها من المولودين اليهود الدونمة.

إن ذكر العثمانيين يختلف عن ذكر الفرس فحقائق التاريخ لا يمكن ليّها مهما حاول مزوِّره فالعثمانيون جاءوا بناءاً على طلب أهل البلاد تخليصاً لهم من ظلم الفرس حيث هؤلاء قتلوا الأبرياء ونهبوا الأموال ونبشوا القبور ودكوا المساجد واستحيوا النساء وأوغلوا في نشر روح الطائفية وأعمال إسماعيل الصفوي منذ سنة ١٥٠٨ ومن جاء بعده كل ذلك كان يجري باسم تصدير الثورة وادعى من تلاه انه حامي حمى الطائفية. وقد عاث الفرس فساداً في العراق في الحقب الأخيرة ثلاث مرات، الأولى سنة ١٦٢٣م والثانية سنة ١٦٢٩م والثالثة سنة ١٦٣٢م.

كما جاء العثمانيون مرتين الأولى سنة ١٥٣٤م والثانية سنة ١٦٣٨م في زمن السلطان العثماني مراد الرابع وقد صحب هذا الأخير كثير من القبائل العربية ضمن جيشه الذي اخرج الفرس [وسكنت هذه القبائل العربية في العراق بين بغداد الشرقية حتى الحدود الفارسية ولذا نجد بعض محلات بغداد الرصافة باسم القبائل العربية لهذا السبب (محلة العَزة والبوشبل والغزالات وبني سعد والخشالات ...الخ.) وعشائر الكروية في ديالى والقراغول كما ورد في الدفتر الخامس من دفاتر علي آل بازركان].

وقد حاول البعض ادعاء العثمانيون بتبرير بقاءهم في العراق للدفاع عنهم تجاه الاعتداء الفارسي ليس هذا الادعاء جديداً على التأريخ وهو نتيجة من لا يقوى على الدفاع عن نفسه وتراب وطنه ولكل حدث له حديث.

إن الذين يجدون في فعل الشعوبيين فعلاً حسناً ماداموا يحاربون العرب.

(٥) المنتفك قسم يقول إنها مشتقة من كلمة (المتفق) ثم غيرت (القاف) بـ(الكاف) والكلمة من الاتفاق والنون زائدة وهي من زيادات المولدين (لغة الهجناء) لاتفاق بعض القبائل فيما بينها على التحالف وهي عمائر كبيرة (جمع

عميرة وهي القبيلة الكبيرة) متحدة ومتفقة وهم بنو مالك وبنو سعيد وآل أجود سكنوا جميعهم حول منطقة (ذي قار) ثم ظهر بينهم آل سعدون. ويقال أيضاً إن هذه العمائر عرفت باسم أبيهم (المنتفق). وتسمى منطقتهم الآن محافظة ذي قار وسابقاً متصرفية المنتفك ومركزها مدينة الناصرية.

(٦) هو الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز وملكها من بعد حتى عام ١٩٢٥ وقائد ثورة العرب الجديدة في ١٠ حزيران ١٩١٦م المصادف ٩ شعبان ١٣٣٤هـ وله أولاد أربعة هم علي وعبد الله وفيصل وزيد. ومنهم ملك العراق فيصل الأول وملك الأردن عبد الله.

(٧) إن علاقة آل السعدون وهم فرع من آل شبيب بقبائل المنتفك وثيقة وعميقة وإلاّ لما خضعت تلك القبائل لمشيختها. وقد حاول الإنكليز تحطيم هذه المشيخة ولغم الصلات بينها وبين قبائل المنتفك الأخرى. لان هؤلاء حاربوا مع الأتراك ضد الإنكليز رغم إن صلاتهم ضعفت مع عشائرهم لتصرفات شيوخهم القاسية التي عاملوا بها أفراد قبائلهم[1].

(٨) هو ناصر باشا بن راشد وجدهم (ثامر) ويسمى أيضا سعدون وقد اصبح ناصر سنة ١٨٧٢ م متصرفاً على المنتفك –محافظة ذي قار حالياً–وفي سنة ١٨٧٤ ذهب بحملة عسكرية إلى الاحساء (بتوجيه من الحكومة العثمانية) وهي مقاطعة تقع بين الكويت وقطر على الساحل الشرقي من الجزيرة العربية تكثر فيها الينابيع ومنها أُخذ اسمها – لإخماد ثورة قامت هناك وفي سنة ١٨٧٥ عين والياً على البصرة ثم أقيل منها. وهو الذي مصّر مدينة الناصرية التي سميت باسمه.

(٩) على القارئ الكريم ملاحظة موقف سلطة الاحتلال من الذين تعاونوا معها ومن الذين حاربوا مع الأتراك ضد الإنكليز حيث إن الإنكليز –وهو شيء

---

[1] راجع كتاب علي الشرقي–ذكرى السعدون–مطبعة الشعب ببغداد سنة ١٩٢٩.

طبيعي – يصفون الذين حاربوا مع الأتراك بالخونة والمرتشين والخارجين على القانون أما الذين تعاونوا مع الإنكليز فيصفونهم بالعقلاء والطيبـــين والمعتـــدلين ...الخ وان ارتشوا منهم.

(١٠) هم عجمي باشا السعدون وأخوه ثامر وابن عمهم عبد الله بن فالح باشا السعدون.

(١١) بنو لام هم بطن من بطون قبيلة ربيعة عريقة الأصل العربي.

(١٢) هو الشيخ غضبان البنيّـــــة.

(١٣) هي قبيلة شمر طوقـــــــة

المقالة الثانية

أساس نظام الحكم التركي في الولايات العثمانية العربية

(١٤) جاندرما : قوة مسلحة يتكون غالبية أفرادها من السكان المحليين أو من العرق الألباني وهي قوة غير نظامية يستخدمهم الحاكم المحلي العثماني –الوالي– لتوطيد الأمن في الطرق الخارجية خارج حدود المدن ويدفع لهم الأجور على ذلك ويسمى أيضاً الدرك في بعض الدول.

(١٥) يقصد الكاتب بتعبيره هذا،إن الطرق غير موجودة على الأرض وإنما موجودة على الخرائط فقط وقد تكون مسالك غير معبدة أو نياسم في المناطق الجبلية.

(١٦) إن نقد الكاتب للدستور العثماني أنساه إن بلاده أيضاً يعتبر دستورها من الدساتير غير المكتوبة (غير المدونة).

(١٧) إن موقف أكثرية الأوربيين تجاه العرب والإسلام موقف حاقد ولئيم وهذا ليس بالجديد بل له جذر تاريخي قديم ملؤه الحسد والغيرة والخوف حيث يتصورون إن أي اتحاد أو وحدة للعرب أو وحدة للمسلمين وتكوين دولة موحدة تهدد أوربا ولذا عليهم أن يبقوا هؤلاء ممزقين متخاصمين مفرقين وهذا ما حدده مؤتمر المؤرخين الأوربي سنة ١٩٠٧م الذي حدد إن مصدر الخطر على أوربا هو الوطن العربي وعليهم إيقاف أي اتحاد أو وحدة له وتمزيقه[1] وهكذا زرعوا الكيان الصهيوني لشطر الوطن العربي أولاً وليكن وجوده معارضاً ومهدد لكل تقارب عربي وقد دعمت الإمبريالية ذلك الكيان الطارئ.

---

[1] راجع كتاب د. نزار الحديثي. الأمة العربية والتحدي– لجنة كامبل بندمان ص٨٦ دار الحرية ببغداد سنة ١٩٨٥.

إن هذا التصور المريض لدى الأوربي ناجم عن وصول العرب إلـــى فرنـــسا وصقلية في القرن الثامن الميلادي بعد ضمهم الأنـــدلس إلـــى دولـــتهم العربيـــة. وإسقاط الدولة العثمانية للقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية البيزنطينيـــة ســـنة ٨٥٧ هـــ/١٤٥٣م وتحويلها إلى عاصمة للدولة العثمانية بعد أن أبدلت اسمها إلى آستانة أو استنبول أو اسلامبول أو (درّ سعادة) وكذلك وصول العثمانيين إلى فينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٥٢٩م و١٦٨٣م. وعلـــى هـــذا الأساس كان جهد الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر ميلادي هـــو تمزيـــق الدولة العثمانية الإسلامية وإسقاطها وهكذا أطلق عليهـــا بـــــ (مـــشكلة الرجـــل المريض). إن وجود العراق القوي الجديد الناهض سيولد لدى العـــرب العزيمـــة والروح الجديدة نحو انبعاث جديد مبني على العلم لن يريحهم. أما موقف أوربـــا من الدولة الفارسية فهو موقف إيجابي وتعاوني لأنهم كمـــا يتـــصورون إنهـــا لا تضمر تجاه أوربا أي سوء.

(١٨) هما الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ والحرب العالمية الأولى ســـنة ١٩١٤ والتي انتهت سنة ١٩١٨.

(٩١) (The Mujalla) المجلة يقصد بها (مجلة الأحكام العدلية) وهي القـــانون المدني للدولة العثمانية وتأخذ اكثر أحكامها من الشريعة الإسلامية على المـــذهب الحنفي –وهو مذهب الدولة العثمانية الإسلامية- وللمجلة شروحات كثيرة، استمر العمل بموجب أحكامها في جميع أنحاء الدولة العثمانيـــة ومنهـــا ولايـــة بغـــداد –الموصل- البصرة (العراق حالياً) وتدريسها في كلية الحقوق –القانون والسياسة حالياً- حتى صدور القانون المدني رقم (٤٠) لسنة ١٩٥١، والـــذي نـــشر فـــي الجريدة الرسمية (الوقائع العراقية) بعددها (٣٠١٢) بتأريخ ٨-٩-١٩٥١، وقـــد اصبح نافذ المفعول بعد مرور سنتين على تأريخ نشره وأشرف علـــى صـــياغته العلامة السنهوري مع مجموعة من القوانين وللتوضيح :في العراق حالياً محـــاكم مختلفة منها محاكم الأحوال الشخصية وتنعقد من قاض واحد، وتختص بالنظر في

قضايا الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والنسب والنفقة والوصية والميـراث ...الخ، وتسري أحكام قانون الأحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ [1] علـى جميع الوقائع التي تتناولها نصوصه ما لم يرد فيه نص يحكمها تطبق عليه أحكام الشريعة الإسلامية الأكثر ملائمة لنصوصه. وهناك المحاكم البدائيـة والإداريـة وتنظر في الدعاوى المدنية والتجارية...، في حين تنظر محاكم الجنايات والجنح والأحداث في الدعاوى الجزائية. أما أوربا فقد سارت على القانون الروماني ثـم طورته على مقتضى حاجاتها أي أن قانونها وضعي. ولا ينسى القارئ الكريم إن التشريع في الحضارة العربية عريق وهو يسبق الحضارة الأوروبيـة حيـث إن شريعة اورنمو وشريعة حمورابي تسبقان حضارة اليونان بألفي سـنة وشـرائع أخرى لم نذكرها.

[عبد الستار محمد آل بازركان (عضو محكمة التمييز العراقية سابقاً)].

(٢٠) هذه هي وجهة النظر الأوروبية للشريعة الإسـلامية إضـافة لمـوقفهم التاريخي الحقود الذي نوهت عنه سابقاً. ونترك القارئ العربي اللبيب أن يستشف مقدار اللؤم الأوربي المفصح عنه بين السطور تجاه معتقداتنا وامتنا العربية.

(٢١) إن المطلعين على تاريخ التشريع يعرفون جيداً في أي بلد ظهر التـشريع وتطور وقد ذكرنا ذلك سابقاً ولكن لم يستطيعوا إخفاء الحقد الأوروبي ولغطرستهم وتعصبهم وغرورهم حيث إن كل ذلك افقدهم اتزانهم في كتابة ما يكتبون.

(٢٢) هو الشخص الذي يتولى حسم المنازعات بين أفراد العشائر التي تتفـق على اختياره حكماً فيما بينهم قد يكون السيد أو شيخ العشيرة المعترف بـه إلا أن الكاتب الإنكليزي يسميه (العارّافة).

---

[1] جرى تعديل على هذا القانون سنة ١٩٨٣ ثم وضع له اضافات.

(٢٣) (The Moot) مجلس شعبي انكلوسكسوني قديم جداً تمتع بسلطات سياسية إدارية وقضائية لم يحدد تاريخ وجوده وقد يكون في القرن الحادي عشر ميلادي (فرنجي).[١]

(٢٤) (Magna Charta of Carta) الوثيقة العظمى وهي التي اكره نبلاء الإنكليز الملك جون لاكلاند على إقرارها عام ١٢١٥م (فر) وتشكل ضماناً أساسيا للحقوق.[٢]

(٢٥) إن انتقاد الكاتب لمجتمعنا وقياسه بمجتمعهم المتحضر لا يمكن أن يكون منصفاً بل انه غير واقعي لأنه يعرف حق المعرفة إن مجتمعنا الغير مرتقي الذي يخيم عليه الجهل والفقر والمرض جراء ما أصابه من خراب على أيدي الغزاة البرابرة المغول والبويهين والتتر منذ احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م ثم وقوعه تحت سيطرة الفرس ثم العثمانيين فانه يحتاج إلى زمن معقول حتى يكون بالمستوى المقبول من ناحية التحضر وقد شعر الكاتب بعد ذلك إن نهضة وطننا العربي الجديدة الصاعدة إذا ما تعهدته حكومة مخلصة نابعة من الشعب ومخلصة وحكيمة تستطيع أن تقوده إلى ما يصبوا إليه من سعادة ورفاه وتقدم وتكون خادمة له بكل إخلاص. فإذا حصل ذلك كلنا يعلم إن أوربا ومن يسير في ركابها سوف لن تقف مكتوفة اليدين أمام هذا الذي يحصل بل ستبذل قصارى جهدها لعرقلة ذلك المسير لأنها لا تريد لنا التقدم والمسك بمقود العلم لأن لنا إمكانيات هائلة ستحرمها من أن تكون سوقاً لصناعتها ومصدراً للمواد الأولية التي ستستوردها منا وهذا صراع أزلي ودموي لدول أوربا وما الغزو الصليبي الأول والثاني[٣] بخاف علينا ولازال متمثلاً أمامنا يومياً إن الذي نعترف به هو إن التخلف الذي

---

[١] منير البعلبكي –المورد– دار العلم للملايين –بيروت ١٩٨٢ ص٥٩١

[٢] منير البعلبكي –المورد– دار العلم للملايين –بيروت ١٩٨٢ ص٥٤٩

[٣] في القرت الحادي عشر وفي القرن التاسع عشر والقرن العشرين والقرن الواحد والعشرين.

كان يعم جميع أنحاء الدولة العثمانية والذي لم يقتصر على ولاية دون أخرى وقومية دون غيرها فان الدولة العثمانية كما يرى بعض المؤرخين أن لها أهميتها التاريخية في تعطيل الزحف الاستعماري الأوربي إلى الوطن العربي زهاء أربعة قرون تقريباً وهذا شأن لا ينسى قط نعم قالها مؤرخنا العربي الفقيه وأستاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري والدولة العثمانية كانت تعتبر نفسها امتداد للدولة العباسية وامتداد لحكومة الإسلام وتؤكد ذلك في كل أدبياتها حتى مطلع القرن العشرين عندما تفشت من أوربا فكرة العنصرية لديها، وجاء رجال جمعية الاتحاد والترقي المتعصبين قومياً إلى الحكم في الدولة العثمانية فانهارت وخرج العرب منها وغير العرب. أيها القارئ العربي الكريم لا تنظر نظرة متشائمة إلى ما يكتبه الأعاجم عنا لان ذلك يمثل وجهة نظرهم التي لها خلفياتها المريضة التي ذكرناها سابقاً وهذه النظرة تختلف بزاويتها الفكرية والحضارية عنا رغم إننا متشابهون إنسانيا. والقارئ اللبيب يلمس بسهولة ويميز الأفكار بسبر أغوارها وأبعادها.

كما إن لنا زاوية ننظر من خلالها إلى الناس والمجتمع قد لا يقرها غيرنا من البشر أو يفهمها وعلى سبيل المثال كتب أحد أجدادنا وهو القاضي الأندلسي صاعد بن احمد القرطبي سنة ١٠٦٠ م/٤٥٢هـ يصف الأوربي آنذاك بعد أن شاهدهم ما يلي (إفراط بعد الشمس عن سامة رؤوسهم، برودة هواءهم وكثف جوّهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذه دقة الإفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشي فيهم العمى والغباوة). يوم لم تكن أوربا ما وصلت إليه الآن وتدهور وضع العرب العالمي.

نظام الحكم

وبمناسبة تطرقنا إلى النظام البرلماني وتطوره في إنكلترا، نود أن نبحث نفس الموضوع في الوطن العربي عامة.

إن النظام البرلماني وردنا نقلاً من التجربة الأوربية وحاولت تطبيقه الدولة العثمانية لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر في الدولة العثمانية التي كانت تحكم المشرق العربي وقسماً من أفريقيا العربية وهذا التقليد المستورد ما هو إلا تقليد فوقي للتجربة الأوروبية وغير نابع من تطور هذه المؤسسة ضمن المجتمع العربي الإسلامي آنذاك ولم ينبع من تراث الأمة العربية ولذا كانت أسسه هشة وغير أصيلة.

واقترح أن يقدم المختصون على دراسة هذه التجربة منذ بداية الحضارة حتى يومنا هذا مروراً بالسومريين والآشوريين ومصر القديمة واليمن والنظام القبلي العربي ثم دراسته في الدولة الإسلامية بدءاً من صدر الإسلام إلى حكم العائلة الأموية فالعائلة العباسية للدولة وكذلك دراسة حكم العائلة الأموية وما تلاها في الأندلس وفي جميع الأقطار العربية أيضاً على أن لا نتأثر بما أوحاه لنا الأوربيون من أفكار مغلوطة لنظرتهم التاريخية في تطور مجتمعنا، نعم ندرس ذلك بفكر عربي أصيل لان خلفيات مجتمعنا العربي الإسلامي وجذوره تختلف عن المجتمع الأوربي وتكوين شخصيته الإنسانية. ولنا حكم دولة سبأ كما جاء في القرآن الكريم او حكم مجلس الملأ في حكم قريش في مكة.

إن نقل التجربة الشعبية من مجتمع إلى مجتمع آخر شيء فيه صعوبة نفسية ونكذب على أنفسنا إذا ادعينا إننا يمكننا نقل مثل هذه التجربة الاجتماعية وإنجاحها في مجتمعنا. وأني اذكر بعض المفاتيح لهذه الدراسة ولا ادعو إلى التقيد بها بل أني ادعوا إلى الطريقة الإستنتاجية في الموضوع وليس إلى الطريقة الاستقرائية

أي أن لا نكون نتيجة ثم نبحث على التأييد لها بل نجمع المعلومات ثم نبحثها ثم نرى إلى ماذا سنصل إليه على أن تكون الأسس التي انطلقنا منها واعتمدناها واضحة وصحيحة ففي القرآن الكريم وضع الأسس التالية :

- ففي سورة آل عمران آية ١٥٩ يقول سبحانه وتعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).
- ويقول سبحانه وتعالى أيضاً في محكم كتابه في سورة الشورى آية ٣٦،٣٧،٣٨...
- (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون(٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨)).
- وكذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة آية ٢٣٣...(فان أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما..) ولا ادخل في تفسيره الآن بل اتركه للباحثين.
- ويقول سبحانه وتعالى في سورة النمل آية (٣٢) وفي باب الاستفادة من آراء الآخرين وهي باب الفتيا (قالت أيها الملأ أفتوني في أمري ...) والملأ هنا النخبة في المجتمع وتعني (المجلس) في وقتنا الحاضر.
- ويقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه في سورة الزمر آية ١٨ (... الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب..).
- وآية ٨٣ سورة النساء (واذا جاءهم أمر من الامن او الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى الي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا) .... الخ من الايات في السور الاخرى.

- ثم إن الله يقر تعدد المذاهب (الأحزاب) في المجتمع على أن لا يبغـــي أحـــدهم على الآخر ويكون التجادل بالحسنى والصبر وتكون الهيمنة لمن سوّده الله عليهم ولا يحارب إلا من أراد البغي على الغير والإضرار بالناس (المجتمع) والاعتداء عليهم والتزمت والتطرف وان يتبع الحجّة في القول وان يظهر ما يبطن فمن أراد الفتنة وتفريق الجمع والعمل الباطني فيضرب بالسيف فوحدة المجتمع خير مـــن تمزقه وان لا يسكت على الظلم أبداً وأجاز للمظلوم اخذ حقه سواء فرد أو جماعة من الظالم وان عفا مرة فلا يسكت عن أخرى وقد يقاضيه.

كما أننا ندرس الحركات التي ظهرت في الدولة العربية الإسلامية التـــي لهـــا جذور عربية كالخوارج والمعتزلة وغيرها من الحركات ورأيهم بالحكم والإمارة لوضع صورة صادقة كما قلت سابقاً عن نظرية الحكم لـــديهم إن هـــذه الدراســـة ستصلنا إلى نقاط رئيسية تمثل مجتمعنا ونابعة من تطوره عبـــر التـــاريخ حتـــى القريب القريب.

هذا اقتراح عسى أن ينال رضى المهتمين في البحث.

المقالة الثالثة

طلائع الحضارة إلى بين النهرين

(٢٦) (Outpost) تعني القوة العسكرية الأمامية التي توضع من اجل التحـذير وإعاقة أي هجوم مفاجئ أو قدوم مفارز عدوة للاستطلاع وبالتعبير العسكري الحديث (قوة حجاب). يريد الكاتب وهو العسكري المحتل أن يوحي للقارئ الأوروبي انه جاء للعراق عسكرياً لنقل الحضارة الأوروبية إلى بلد متخلف.

(٢٧) (المقايضة) طريقة الشراء والمقايضة بالمفهوم الاقتصادي هي مبادلة السلع بين طرفين نتيجة حصول موازنة فيما بينهما بمعدل قيمي وهي الأساس في المجتمع البدوي والمجتمعات البسيطة واستمر التعامل بها في المجتمعات المتقدمة ودولها والمجتمعات الأخرى أيضاً لحد الآن.

(٢٨) متوحشون (Savages) هذه نظرة الأوروبي إلى كل من يدافع عن وطنه ضد احتلاله وهي نظرة استعلاء حيث يعتبر نفسه متقدماً عليهم حضارياً فسكان الصحارى والحواضر غير الأوروبية هم متوحشون ونسوا هؤلاء أعمالهم تجاه البشرية وضد الإنسانية حيث إنها أعمال وحشية بعينها وسرقتهم للآثار والأقوات والنفائس وإفسادهم الضمائر وإشاعة الفوضى وإذلال النفوس في المناطق التي تواجدوا فيها فماذا نسمي هذا السلوك؟ ثم استحدثوا كلمة (الإرهاب) بدلها حالياً.

(٢٩) (الجوف) تقع هذه الحاضرة شمال جبل شمّر في المنطقة الوسطية الشمالية من جزيرة العرب وكانت تسمى (دومة الجندل) في صدر الإسلام التي مرّ بها خالد بن الوليد أثناء عبوره الصحراء من العراق إلى الشام بقواته العربية لدعم قوات اليرموك قبل المعركة سنة ١٥هـ/٦٣٦م في شهري تموز وآب منها.

(٣٠) إن قياس الزمن يؤخذ بالنسبة إلى وسائط النقل المستعملة لدى الإنسان. والمسافة بين كربلاء والاخيضر هي ٥٠ كم.

(٣١) (Ubeidh) (الأبيض) وادي يمتد من جنوب هور أبو دبس في محافظة كربلاء إلى الحدود العراقية السعودية وشمال خط عرض ٣٢ درجة.

(٣٢) مدينة (الخميسيّة) تقع في الجنوب الشرقي من سوق الشيوخ وفي النهاية الجنوبية الغربية من هور الحمّار، اضمحلت الآن.

(٣٣) يقصد الكاتب هنا إن (سوق الشيوخ) أهملت لصالح(الخميسيّة).

(٣٤) أ. القاسم: منطقة في وسط شبه الجزيرة العربية شهيرة بمراعيها وغنية بالإبل والنخيل وتجارة الخيول العربية الأصيلة. ذكرها الشعراء كزهير بن أبى سلمى والاخطل واوس بن حجر.

ب. القصيم: مقاطعة في نجد إلى الجنوب الشرقي من جبل شمّر يمر بها وادي الرمة تشتهر بزراعة القمح والذرة وبعض الأشجار المثمرة. اشهر بلدانها بريده، الرس، الخبرا، العيون. واعتقد إن الاسم (القاسم) قد غير إلى القصيم حالياً أو غُيِّر في القرون الأخيرة.

(٣٥) يسمي الأوروبيون الجيوش العربية التي قدمت لتحرير العراق والشام ومصر من نير الاستعمار الفارسي والروماني –البيزنطي (بالجيوش الغازية) بالمفهوم الحالي حيث تطور مفهوم كلمة الغزو إلى الاعتداء. وكان مفهوماً قديماً الذي يبدأ بالتعرض العسكري. فماذا نسمي مجيء الأوروبيين إلى الوطن العربي؟ أليسوا غزاة؟ لان الغزو يعني السلب والحصول على الغنائم.

(٣٦) يقصد بها حاضرة البصرة.

(٣٧) هما الصحابيان الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله قتلا في موقعة الجمل سنة ٣٥هـ/٦٥٥م.

(٣٨) السدير مقاطعة في نجد غنية بالمياه الجوفية وتشتهر بنخيلها وتقع إلى الجنوب الشرقي من (قصيم أو القاسم) أهم مدنها المجمعة وزلفى وجلاجل شقراء والحوطة وحريملة.

(٣٩) إن التشكيل القبلي للقبائل العربية يختلف عن التشكيل القبلـي الأوربـي (الذي كان في السابق) فالعمارة ثم القبيلة ثم العشيرة ثم الفخذ. وشـيخ المـشايخ للعمارة والشيخ للقبيلة والعشيرة والرئيس للبطن والفخذ.

والعرب جميعهم معترفون بهذا التقسيم وبالوضع الاجتمـاعي هـذا ويحـاول الأعاجم شق وحدة العشيرة وتمزيق الواقع الاجتماعي بكل جهدهم بإثارة النعرات بين الأفراد حول انتمائهم بعد أن استقروا مع تلك العـشائر وتركـوا عـشائرهم لأسباب كثيرة ومن يريد التعمق في هذا الموضوع لديه مصادر غنية فـي هـذا الأمر.

(٤٠) يقصد الكاتب الشيوخ والرؤساء وأفرادهم الذين تركوا حيـاتهم البدويـة واستوطنوا في الأرض وبدءوا في الارتقاء في سـلم التحـضر ومـصروا لهـم الأمصار وأبدلوا مهنتهم السابقة الغزو والرعي بالتجارة بالمقايضة أو الـصناعة الحرفية أو الزراعة كحاضرة الزبير والخميسيّة وغيرها التي تقع علـى حافـات الصحاري وبالجانب الزراعي.

(٤١) هذه الإشارة ترشد قادة الاحتلال لهذه المهمة وكذلك تفيد رجل التجـسس وقام بعض رجالها من الإنكليز بهذه المهمة قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وبعدها وكتبوا تقارير كثيرة إلى حكومة الهند التابعة للتاج الإنكليزي والى الحكومة الإنكليزية أيضاً تعرفهم على هذه المناطق حيث كانت حكومة الهند هـي المسؤولة عن منطقة الخليج العربي وما يحيطها أولاً. وإن هؤلاء المتجولين قـد وطدوا علاقات صداقة مع كثير من رجالات الجزيرة العربيـة وأطرافهـا أثنـاء تجوالهم حتى وصل ببعضهم الأمر إلى اعتناق الدين الإسلامي ظاهرياً للوصـول إلى مناطق يمنع وصولها غير المسلمين أمثال هـسنت جون فليبي الذي غيـر اسمه إلى عبد الله. ومن الذين عملوا في هذه المناطق المستر كلوب الملقب بـأبي حنيك وشكسبير ولجمن ولورنس ومس بيل ... وغيرهم ممن أرسلوا إلـى تلـك المهمة.

رؤساء شرق الجزيرة العربية المستقلون

(٤٢) يقصد الكاتب الذين لم يخضعوا للسلطان العثماني.

(٤٣) وحالياً هي دولة الإمارات العربية المتحدة.

(٤٤) لو نحلل هذين الهدفين: محاربة تجارة الرقيق ومحاربة القرصنة، نجد أن الهدف الأول ظاهره عمل إنساني وباطنه حجة التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد التي يرغبون الهيمنة عليها، ولا ننسى أن داخل بلاد الأوربيين عامة والإنكليز فيهم تجارة الرقيق البيض يمارسها وجهائهم، كما أنهم استغلوا الشعوب التي حكموها أبشع استغلال وظلموها باسم المحررين أو إنقاذهم من التخلف أو تخليصهم من الوثنية أو إبادتهم باسم البقاء للأصلح.

أما الهدف الثاني الذي يحاربونه فهو ليس من أجل الحرية ولا حرية الملاحة بل لإضعاف قوة المقاومة العربية لهم في المنطقة خاصة عند دفاعهم عن تراب وطنهم حتى يفسح المجال لتسرب نفوذهم الاقتصادي والسياسي والعسكري.

(٤٥) بقصد ألمانيا.

(٤٦) (التيوتون) أو (توتونيون) شعب جرماني قديم سكن ساحل البلطيق في القرن ١٤، ١٦ بعد الميلاد بمقاطعة بروسيا شمال بولندة حالياً باسم (اخوة التيوتون) وينسب فرسان التيوتون إلى هذه المقاطعة عند الغزو الفرنجية للوطن العربي في القرن ٥–٧ هجري الـ ١٠–١٢ ميلادي. وكذلك هم القبائل التي غزت جنوب فرنسا بين سنتي ٤١–٤٢ قبل الميلاد التي كانت تسمى بلاد الغال.

إن الكاتب الإنكليزي أطلق هذا الاسم هنا حتى يوحي للفكر الأوروبي الإنكليزي والفرنسي قسوة وبربرية هذه القبائل حيث كانت لا تعرف التحضر ولا تدين بدين سماوي آنذاك.

ويشبه هذه المقولة عندما نكتب نحن العرب عن المغول والتتـــر والبـــرتكيش (البرتغاليون) وما يوحيه هذا التعبير للعرب والمسلمين من وحشية وبربرية لمـــا أحلوه من دمار في بلادنا واستهتار بقيمنا والاستعلاء علينا.

(٤٧) هو السلطان محمد رشاد الخامس العثماني الذي دامت سلطته منذ سقوط السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م حتى سنة ١٩١٨م.

(٤٨) دأب الأوروبيون عموماً في كتابة أسماء الأعلام على كتابة الاسم الأخير للشخص أما العرب أجدادنا كانوا يستعملون (أبو فلان أو ابن فـــلان) أو اللقـــب الشائع للشخص ثم اسم الشخص نفسه.

ولذا أدعو صحفينا وكتابنا التمسك بالأسلوب العربي فهو يعكـــس حـــضارتنا وشخصيتنا وأصالتنا.

لأننا عندما نقول (عبد الناصر وناصر) على الطريقة الأوروبية نعني (جمال) وليس أبو جمال بن عبد الناصر.

أما سبب تعليقي أن الكاتب يكثر من استعمال (ابن الرشيد) و(ابن مسعود) فمن هو الذي يقصده؟! حيث انهما أكثر من واحد. كما سنجد في هامش (٥٦).

(*) يقصد حليف إنكلترا مبارك الصباح حاكم الكويت.

(٤٩) يعيب الكاتب الإنكليزي على المثل العليا العربيـــة الأصـــلية كالـــصدق والإيفاء بالعهد والإخلاص للصديق ... الخ ويعتبرهـــا مـــن مظـــاهر التخلـــف الحضاري.

(٥٠) كاتب المقال يخاف من وحدة قبيلة شمر لأن في وحدتها ســـتقف أمـــام مصالح إنكلترا في التوسع ولذا هم يحاولون إبقاءها مقسمة وضـــمن صـــراعاتها القبلية الناجمة عن صراعات شيوخها على زعامة القبيلة والاستعمار بدوره يزيد من ذلك بتحريض الواحد على الآخر ويديمها. أمل دوران العجلة يقصد السير في فلك إنكلترا.

(٥١) يبتئس الكاتب ويتألم لكون قبيلة عنزة موحدة الصف وغير متكونة من عناصر طارئة عليها أو ملحقة بها ولنرجع إلى هامش ٣٩.

(٥٢) هو السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)م.

(٥٣) (سالونيك) ميناء بحري يقع شمال بحر إيجة كان قبل الحرب العالمية الأولى يقع ضمن الدولة العثمانية ومن هذه المدينة خرج جيش جمعية الاتحاد والترقي بقيادة محمود شوكة باشا متجهاً إلى العاصمة استانبول لإسقاط حكم السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ وإعلان الدستور والمناداة بشعارات (حرية، عدالة، مساواة)، وقد أعطي هذا الميناء إلى الدولة اليونانية بعد الحرب العالمية الأولى ولا زال ضمن حدودها الحالية.

(٥٤) ناظم باشا والي ولاية بغداد ١٣٢٨هـ/١٩١٠م -١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

لقد وجدتُ أن تسلسل ولاة بغداد ووكلاؤهم كتاريخ تعينهم وعزلهم يحتاج إلى دراسة دقيقة حيث يوجد اختلاف كبير في ذكرها في المصادر المختلفة سواءً العثمانية منها وغيرها من المصادر. أجّلت هذا الأمر لفرصة أخرى (في حينه) إن شاء الله ((وأتممت ذلك الآن)) [١]، وكذلك مقارنة السنة الهجرية بما يقابلها بالسنة الرومية ثم السنة الفرنجية حيث عملت جدولاً شهرياً بذلك بكتاب مستقل اسمه (مجمع التوريخات).

[١] ضمنته ضمن الملحق الاول للمجلد الاول من (خاطرات مكتومة) لعلي آل بازركان.

المقالة الخامسة

حاكم في الصحراء

(٥٥) يجد القارئ العربي الكريم الفارق الكبير بين المفهوم الأوروبي للشخصية والمفهوم العربي لها وعلى هذا الأساس تقع الدراسات الأوروبية في كثير من الخطأ عندما تسحب مفاهيمها الأوروبية إلى المجتمعات الأخرى محاولة تعميمها والعكس بالعكس فلكل مجتمع خصائصه ومميزاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وخلفياته الحضارية.

(٥٦) إمارة شمر في شمال جزيرة العرب حكمها آل رشيد (ابن رشيد) وعاصمتها مدينة (حائل) وتقع في وسط سهل يعرف بساهلة الخمشية في جبل شمر وكانت في صراع مع آل سعود.

لقد أسس الإمارة (الأمير عبد الله بن علي بن رشيد) من عشيرة آل جعفر من فخذ ربيعة من بطن عبدة من شمر. كانت هذه الإمارة متعاونة مع العثمانيين وضد الإنكليز. حتى سقطت بأيدي السعوديين سنة ١٩٢١ ووحدت مع قلب الجزيرة العربية.

وفيما يلي بعض أفراد آل رشيد (والملقبون بـ ابن رشيد).

الاسم	تولي الإمارة	وفاته
١- عبد الله بن علي بن رشيد	١٨٣٨م	١٨٤٧
٢- طلال بن عبدالله		١٨٦٦
٣- متعب بن عبد الله		١٨٦٨
٤- محمد بن عبد الله (الملقب بالكبير)		١٨٩٧

الاسم	تولي الإمارة	وفاته
٥-عبد العزيز بن متعب (الملقب جبّار آل رشيد)		١٩٠٦
٦-متعب (الثاني) بن عبد العزيز		١٩٠٦
٧-سلطان بن حمود		١٩٠٨
٨-سعود بن حمود		١٩٠٨
٩-سعود (الثاني) بن عبد العزيز		١٩٠٨

(واستمرَّ ذكرهم بلقبهم (ابن رشيد)).

(٥٧) هما شيخ نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود (١٨٨٠ – ١٩٥٣م) (الملك فيما بعد) والشيخ أمير المحمرة خزعل (-١٩٢٤ انتهت إمارته بعدما استولت الحكومة المركزية الفارسية على إماراته المستقلة بقيادة رضا خان بهلوي وأخذه أسيراً ثم مات في طهران سنة ١٩٣٨) وكانا ضيفين على أمير الكويت مبارك الصباح (١٨٣٨ – ١٩١٥). وقائد الجيش الإنكليزي.

المقالة السادسة

أثر السلطة الإنكليزية في استتباب السلام في ولايات بين النهرين المحتلة

(٥٨) سقطت مدينة الكوت بيدي القوات الإنكليزية الهندية الغازية في تشرين الثاني ١٩١٥ ثم كرّ عليها الجيش العثماني وحاصرها في كانون الأول ١٩١٥ وبعد ذلك استسلمت للجيش العثماني في ٢٩ نيسان ١٩١٦. ثم استعادتها القوات الإنكليزية بعد ذلك. وعندما أعاد العثمانيون احتلالها نفذوا حكم الإعدام في العديد من سكانها بحجة تعاونهم مع الإنكليز أثناء الحصار.

(٥٩) إن الكاتب يوحي للقارئ الإنكليزي بأن الأتراك من سلالة آرية والعرب من سلالة أخرى وان كانوا مسلمين ولذا عليه أن يستفاد من هذا التناقض.

(٦٠) يلاحظ القارئ العربي التوجه الذي يوحيه الكاتب الإنكليزي لزملائه لاستغلال ذلك. إن الأتراك بوجه عام يدينون بالديانة الإسلامية ويعتبرون التاريخ الإسلامي كما هو موجود في كتبهم ضمن الدولة العثمانية إنهم جزء منه ويحترمون شخصياته جداً بالرغم مما حصل في أواخر حكم الدولة العثمانية من نزعة قومية متطرفة جداً ضد كل ما هو غير تركي وكان الأوربيون من وراء ذلك التطرف المخطط له لتمزيق دولة الرجل المريض لأسباب تاريخية.

(٦١) (كوت الإمارة) كما تسميه السانامة العثمانية (المفكرة (الحولية) السنوية العثمانية التي تصدر في بغداد) وهي قضاء ضمن ولاية بغداد بينما يسميها الأطلس العثماني المطبوع سنة ١٩١١ بـ(كوت العمارة) والصحيح حسب اطلاعي أن المنطقة تسكنها قبائل ربيعة العربية ومنها عشيرة الإمارة وشيخها يلقب بالأمير ومن ذلك أضيفت إلى مدينة الكوت – الإمارة. وكتابة الإمارة والعمارة باللغة الإنكليزية متشابهة الحروف وهكذا بعد تأسيس الحكم الوطني سميّت فقط بالكوت والآن محافظة واسط.

(٦٢) يتعجب الكاتب الإنكليزي من ملكية أراضي وادي الرافدين لأن مثل ذلك لا يوجد في الدول الأوروبية الإقطاعية حيث أن رقبة الأرض عندنا بيد الحكومة منذ الفتح الإسلامي حيث أن الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رفض توزيعها على المقاتلين وإبقائها بيد بيت المال (الدولة) وبدورها تؤجرها إلى من يرغب. وبقيت مشاعة بين أفراد القبائل ولم تسجل في (الطابو) دوائر العقار بل بقية (طابو ميري) وميري أي حكومي إلا أراضي السنيّة أي الأراضي المملوكة للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني وقد اسقطه من السلطنية سنة ١٩٠٩ وقد أخذت تلك الأراضي وضمت إلى الدولة وسميت بـ (المدورة)، إلى مجيء الوالي مدحت باشا إلى بغداد (١٨٦٩–١٨٧١)م حيث بدأ يملك الشيوخ الأراضي بطريقة جديدة يملكهم الأرض وتبقى رقبة الأرض بيد الحكومة تنزعها منه متى ما خرجوا عن طاعتها.

(٦٣) إن القرارات التي أصدرها مدحت باشا (١٨٢٢–١٨٨٣)م وهو بطل الدستور العثماني ١٨٧٦ ووالي العراق (١٨٦٩–١٨٧١)م، حول الأراضي في العراق قد غيرت الموقف جذرياً بين القبائل العربية في جنوب العراق والسبب في ذلك إن القبائل وشيوخها ورؤساء الأفخاذ كانوا غير ملزمين بطاعة الحكومة أمام مركز الولاية ولذا كانت السلطة العثمانية غير مركزية ولكن تسجيل الأراضي باسم شيوخ ورؤساء القبائل وحصرها بهم وبأولادهم وبعد تسجيلها طابو ميري وتسحبها منهم في حالة تغيير ولاءهم لمركز الولاية قد مزق التضامن بين أفراد القبائل وشيوخها كما أن أفراد القبيلة فقدوا حقوقهم في الأراضي التي يسكنون فيها ويعملون بها لأنها كانت مشاعة بينهم وأن الشيخ له حق التصرف بالأرض وحده ومسؤول مسؤولية مباشرة أمام الحكومة العثمانية من جباية الضرائب واستتباب الأمن إن هذه الحالة خلقت وضعاً متشككاً بين العشيرة نفسها وساداتها ورؤسائها وان هؤلاء يقدمون مصالحهم على مصالح العشيرة لدى الحكومة العثمانية من حيث موالاتهم للسلطة وغيرها واصبح وضع أفراد العشيرة اقتصادياً يشبه القنانة

المقنعة وسارت على هذا المنوال الإدارة الإنكليزية للاستفادة من النتائج نفسها بل سحبت جميع الأراضي التي كانت بحوزة العشائر التي قاتلت الإنكليز في ثـــورة ١٩٢٠ وأعطتها إلى العشائر التي كانت مع السلطة المحتلة.

مُلحة

ويحضرني بهذه المناسبة ملحة لوالدي رحمه الله حدثني بها:- قال: كان يوماً في مجلس يضم مجموعة من المسؤولين في الحكومة العراقيـــة والملـــك فيـــصل الأول من ضمنهم وكانت الأحاديث تدور بينهم عامة بينها مُلحٌ وفي أثنـــاء ذلـــك التفت الملك فيصل الأول نحوه –والمتحدث علي آل بازركان- وقال له:

- يا شيخ علي (وكان ينادي علي آل بازركان بذلك من قبل والد الملك فيصل الأول الملك حسين) إن لك ذاكرة جيدة كما وردني. فهل تحفظ أســـماء رؤســـاء وشيوخ العشائر في العراق؟

– ويقصد منطقة الفرات الأوسط خاصة.

أجابه علي آل بازركان:

- نعم يا مولاي (وهكذا العادة كانت تجري في التحدث مع الملك) أنـــا أحفـــظ أسماء رؤساء العشائر والشيوخ المعروفين أما الذين نصبتموهم أنتم فـــأنتم أعلـــم بأسمائهم مني.

فانفجر المجلس بالضحك على جوابي للملك فيصل الأول.

أقول لقد كان الجواب قاسياً للملك لولا الجو المحيط بالجلـــسة فبلـــغ الجـــواب ومعناه أن الذي عينتهم الإدارة الإنكليزية لا يستحقون حفظ أسمائهم.

(٦٤) كانت برقة تابعة للدولة العثمانية ومركزها مدينة بنغازي غزتها الجيوش الإيطالية سنة ١٩١١ وانتهت الحرب بانسحاب الدولة العثمانية منها سنة ١٩١٢ وتركت أهلها العرب يواجهون المعتدي الإيطالي وجها لوجه وخاضت الجمـــاهير

العربية هناك كفاحاً بطولياً ضد الغزاة الجدد ولا زال اسم القائد العربي الشهيد عمر المختار يذكر بالإجلال جراء ذلك الكفاح العنيد ونهايته المأساوية المشرفة.

(٦٥) كونت أو أسست إدارة الاحتلال الإنكليزي قوات الشّبانة من السكان المحليين –العشائر– لحراسة بعض منشآت المدن المحتلة وطرق المواصلات بينها لقاء أجور يتقاضونها تحت إشراف ضباط إنكليز ووضعهم يشبه الجنود المرتزقة يستخدمون لأغراض شبه عسكرية وأحياناً عسكرية ثم تطور الاسم إلى (Levy) الليفي ثم ادخل مع هذه القوات عناصر غير عربية مثل الآثوريين، ثم اقتصرت على الأخيرين واخرج العرب منها حيث الحقوا بالشرطة بعد تكوين الحكم الوطني.

والآثوريون وهم من بقايا الدولة الأشورية في نينوى ويسمون باسم إحدى عشائرهم بـ التيارتة وهم طائفة من المسيحيين ينسبون إلى نسطور بطريك القسطنطينية (٤٢٨ – ٤٣٠) فر حرمه المجمع الأفسس المسكوني ٤٣١ فر حيث قال بـ (باقنومين في عيسى بن مريم الرسول وأنكر على مريم لقب أم الله). وكانت النساطر على علاقة وطيدة مع الدولة العباسية ولهم مكانة فيها جليلة ولهم حضوه في بلاط العباسيين هم ولبطريكهم، وازدهرت حياة الرهبنة بينهم، وأوفدوا المبشرين إلى أسيا الشرقية منذ فجر القرن السادس فرنجية وبواسطتهم انتشرت النصرانية في فارس والهند والصين. قطنوا شمال العراق وتبدد شملهم أثناء الحرب العالمية الأولى حيث لاقوا المجازر من الأتراك.

(٦٦) بموافقة حاكم المنطقة العسكري الإنكليزي كان يسمح لأفراد القبائل وغيرهم ركوب القطار العسكري للتنقل حتى تتكون صلة مع القبائل والسلطة المحتلة.

(٦٧) لماذا يعاب على المتعاونين مع العثمانيين باستلام الأموال من الحكومة العثمانية إن كان ذلك صحيحاً ولا يعاب على المتعاونين مع الإنكليز باستلام الأموال منهم كما كان مبين هنا باعترافات الكاتب.

(٦٨) خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨م خضعت بلجيكا وبولندا والصرب للاحتلال الألماني وهو يمثل كما يورد الكاتب الشكل الأول من الاحتلال العسكري (سياسة الحذاء الحديدي) بينما يصف الاحتلال الإنكليزي بصفة أخرى.

والصرب كانت دولة مستقلة إبان الحرب العالمية الأولى وهي حالياً إحدى مقاطعات الدولة اليوغسلافية.

المقالة السابعة

الشيعة ومركزهم الاجتماعي في العراق

(٦٩) أ- المقالات التي نترجمها إلى اللغة العربية تمثل رأي كاتبها وفهمه الشخصي للأحداث التاريخية والاجتماعية ويترتب على ذلك استنباطات تم توظيفها لمصلحة قواته العسكرية المحتلة ومصلحتها السياسية والاقتصادية وحيث أنه يمثل قوات الاحتلال وهو يحاول الاستفادة من جميع النواحي السلبية الموجودة في مجتمعنا لأقصى حد وتوظيفها كما قلنا سابقاً - لمصلحة قواته الغازية وحكومتها العسكرية وقت الاحتلال وما بعد ذلك فيما يحاول التعتيم على النواحي الإيجابية وإهمالها والتقليل من شأنها أو إظهارها بمظهر الصور المتخلفة لأنها ضد مصلحته وتقف أمام سياساته.

ب- إن تطرق الكاتب إلى الشيعة والسنة ليس بجديد فقد بحثه كثيرون من المسؤولين والباحثين الإنكليز وغيرهم وأسباب ذلك معروفة ومحاولتنا لتحليل ذلك هو تذكير القارئ العربي الكريم بمدى خطورة الطائفية والتطرف القومي والعشائرية على مجتمعنا الناهض ومدى ما يبني عليها أعداؤنا من آمال واسعة. بينما نجد الأوروبيين يغضون الطرف عما يشبه ذلك في مجتمعهم ويحاولون التقليل من شأنها أمام أعين الغير. وما الحرب الدائرة في ايرلندا الشمالية الأمثال على ذلك الصراع الطائفي المذهبي بين الكاثوليك والانكليكان (الكنيسة الإنكليزية) كما أن المعسكر الرأسمالي يحاول تأجيج الطائفية في بولندة الكاثوليكية ضد الاتحاد السوفيتي.(*)

(*) **لقد سقط الحكم الشيوعي في بولندة قبل سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي فالأول سقط في كانون الثاني ١٩٩٠ والثاني سقط ٢٥-١٢-١٩٩١.**

وبالمناسبة، إن التعصب البابوي أدى إلى رفض كل ما هو غير إيطالي أو أوروبي حيث رفض في العقد الثالث من هذا القرن أن يرشح للكرسي البابوي عربي مسيحي وعراقي هو (عمانوئيل الثاني) رغم كونه من أقدم المرشحين على الإطلاق باعترافهم لكرسي البابوي.

جـ- وحاولت الرأسمالية شق وحدة الصف الألماني خلال الثلاثينات بإثارة الطائفية ولكنها فشلت أمام القومية الألمانية.

د- وقد حاول الإنكليز بتصورهم الخبيث أنهم جاءوا لإنقاذ الشيعة من هيمنة الأتراك واضطهادهم حتى يشقوا وحدة الصف العراقي إلا أن الشعب العراقي وحد صفوفه قبل وأثناء وبعد ثورة ١٩٢٠ وقد غاظهم وحدة الشعب وتعجبوا من ذلك وقد نقموا على كل من عمل على وحدة الشعب العراقي الذي تجاوز فيه الشعب الطائفية والعشائرية والمذهبية والتعصب القومي المتطرف ولا زال هو متمسك بوحدته حتى الآن.

(٧٠) لقد التقت رغبات شريف مكة حسين بن علي للتحرر من النير التركي بعد اندفاعه القومي الدموي وتأسيس دولة عربية تضم العراق والشام والحجاز مع رغبات الإنكليز الذين حاولوا إخراج العرب من النفوذ التركي وتحريضه على ذلك وجرت مراسلات بهذا المضمون بين الشريف حسين شريف مكة ومكمهون نائب ملك انكلترا في مصر سنة ١٩١٥ إلا أنهم في نفس الوقت كانوا يجرون المفاوضات السرية بين فرنسا وروسيا القيصرية حول تقسيم أراضي الرجل المريض حسب التعبير الأوروبي عن الدولة العثمانية ونتجت معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦ مع إعطاء الإنكليز الوعد لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين سنة ١٩١٧ سمي بوعد بلفور.

وعندما تمادى الأتراك المتعصبون في اضطهاد العرب ونفذوا مجزرتهم في الشام في آب ١٩١٥ وأيار ١٩١٦ أعلن الشريف حسين في مكة الخروج من الدائرة العثمانية والثورة على الأتراك في ٩ شعبان ١٣٣٤هـ المصادف ١٠

حزيران ١٩١٦ وفي ٢٧ حزيران من نفس السنة أعلن الشريف حسين بيانه التاريخي إلى العالم الإسلامي والعالم عامة استقلال العرب وتنصيب نفسه ملكاً بالحدود التي ذكرناها ولم توافق إنكلترا وفرنسا على ذلك لأنهما كانتا لهما طبخة لم تعلناها بعد كما أسلفنا بل فقط وافقتا على تسميته بملك الحجاز.

(٧١) حدثت في مدينتي النجف وكربلاء ثورتان ضد الأتراك سنة ١٩١٥ والثانية في ربيع الأول سنة ١٩١٦. كما حدثت ضد الإنكليز أيضاً ثورتان في نفس المدينتين المقدستين سنتي ١٩١٧، ١٩١٨.

(٧٢) يقصد الكاتب (بالكفار) كما كان يطلقه العراقيون على الإنكليز والأوروبيين خاصة.

(٧٣) أولاً: يا ليتنا نعرف اسم هذا الشخص؟

ثانياً: في بداية الحرب العالمية الأولى كان اليهود يؤيدون الألمان ويعولون عليهم الشيء الكثير فلما تغير ميزان القوى تحركت الجاليات اليهودية في كل دول التحالف (إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا) للتقرب من حكوماتهم ثم التعاون معها نحو العمل على تهويد فلسطين العربية.

(٧٤) لقد سمح الرسول العربي محمد (ص) بالصلاة –لأبي بكر الصديق– بالمسلمين أثناء فترة مرضه القصيرة والأخير قبيل وفاته.

(٧٥) بمؤامرة محبوكة بين الفرس واليهود اغتال أبو لؤلؤة الفارسي أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب وقد سأل رحمه الله من قتلني؟ فأجابوه بمن قتله قال (... ما كانت العرب لتقتلني ...). فطولب أن يوصي عمن يستخلفه فرفض وجعلها شورى بين ستة (علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف) ثم قال لأبي طلحة الأنصاري (إذا أودعتموني في حفرتي فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفهم فخذ هؤلاء النفر الستة واجمعهم في بيت فإذا اجتمعوا على أمير فولوه وإن اجتمع خمسة وخالف واحد فاقتلوه وان اجتمع أربعة وخالف

اثنان فاقتلوهما فان تساويا ثلاث بثلاث فخذوا برأي القسم الذي فيه عبد الـــرحمن بن عوف) وسكت.

حتى لا يشق المسلمين إلا أنه لم ينفذ الوصية. ولا ننسى أن الذين أغروا بقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الفرس أيضاً والذي قتله مولى هو (عبد الرحمن بن ملجم).

(٧٦) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية وليّ الدولة العربيـــة سنة ٤٠هــ (٦٦١م) – ٦٠هــ(٦٨٠م) بعد الخلفاء الراشدين.

(٧٧) لم يكن يزيد بن معاوية موجوداً مع الجيش الأموي وإنما كـــان الجـــيش تحت أمرة عبيد الله بن زياد بن أبيه وقد أوشك النزاع أن يفضّ بالمفاوضة إلا أن عبيد الله أصرّ على القتال وان شمر بن ذي الجوشن هو الذي أوقد النار وأضرمّها (٦١هــ / ٦٨٠م).

(٧٨) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المسمى (بزين العابدين).

(٧٩) ولزيادة التوضيح اذكر تسلسل الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام:

١- علي بن أبي طالب	ت. ٤٠هــ / ٦٦١م
٢- الحسن بن علي	ت. ٥٠هــ / ٦٧٠م
٣- الحسين بن علي	ت. ٦١هــ / ٦٨٠م
٤-علي بن الحسين (زين العابدين)	ت. ٩٥هــ / ٧١٢م
٥-الباقر محمد بن علي	ت. ١١٤هــ / ٧٣٢م
٦-الصادق جعفر بن محمد	ت. ١٤٨هــ / ٧٦٦م
٧-الكاظم موسى بن جعفر	ت. ١٨٣هــ / ٧٩٩م
٨-الرضا علي بن موسى	ت. ٢٠٣هــ / ٨١٨م
٩-محمد جواد	ت. ٢٢١هــ / ٨٣٥م
١٠-الهادي علي بن محمد	ت. ٢٥٤هــ / ٨٦٨م

١١-العسكري الحسن بن علي ت. ٢٦١هـ / ٨٧٤م

١٢-محمد المهدي (صاحب الغيبة) ت. ٢٦٥هـ / ٨٧٨م

(٨٠) تحدثنا كتب التاريخ عن أسباب مقتل أو تسمم الإمام (علي الرضا) عليه السلام حيث تتهم الخليفة المأمون أنه هو الذي أمر بذلك وهذا اتهام مدسوس من الفرس الحاقدين على العرب حيث أنهم هم الذين دسوا له السم وألصقوا التهمة بالخليفة المذكور. ومن يدرس الحادث ويحلل المواد التاريخية يظهر صدق ما أقول حيث أن الإمام علي الرضا نصح الخليفة المأمون بموقف الوزير الفارسي الفضل بن سهل وكيف أن الفضل بن سهل حجب أخبار بغداد عن المأمون وهنا وجد التآمر من هذا الأخير عليه فتخلص منه وقدم العرب واستعان بالفضل بن الربيع وهو عربي فأغاظ المأمون بعمله هذا الفرس فاضمروا لعلي الرضا السوء واغتالوه بعد ذلك بالسم واتهموا العرب ودسوا ذلك في كتب التاريخ. فالدعوة إلى إعادة كتابة تاريخنا وتخليصه من دس الكائدين لهو ضرورة حتمية.

وهذا ما أريده بإعادة كتابة التاريخ العربي ودراسته بعيداً عن نفوذ الروايات الفارسية المدسوسة والتزام البحث العلمي في ذلك وكذلك الروايات الاسرائيلية.

(٨١) أطلق اسم إيران من قبل رضا بهلوي على بلاد فارس سنة ١٩٣٥حتى يستر سيطرة الفرس على القوميات الأخرى الموجودة في إيران (العرب والأكراد والتركمان والبلوش) ثم يعطي دفعاً أوروبياً لدولة أريّة في أسيا وإيران جاءت من كلمة آري أحد أبناء النبي نوح.

(٨٢) للتفصيل عن (وقف أوده) يراجع هامش كتاب (فصول من تاريخ العراق القريب الذي نقله إلى العربية الأستاذ المرحوم جعفر الخياط للمس بيل في هامش صفحة ٩٢ والمنجد للإعلام صفحة (٨٥-٨٨) (ط٨). وحتى نسهل على القارئ الكريم الأمر فإن أوده، مقاطعة في أواسط شمال الهند تقع بين نهري جمنا والكانج. وكانت سابقاً تابعة لسلطنة دهلي (١١٩٢ – ١٥٢٦)م ثم للإمبراطورية المغلّية (١٥٢٦ – ١٧٢٦)م ثم أصبحت مستقلة (١٧٢٤ – ١٨٥٦).

أسس فيها النوّاب (وهو لقب الحاكم ومنه بيت النواب الذين سكنوا في بغـداد بعد نفيهم من الهند) سعادتْ خان الذي كان حاكماً للمُغل فيها وأعلن استقلاله عن دهلي ١٧٢٤م وأسس سلالة شيعية واعترف الإنكليز بها كدولة مستقلة ومنحـوا (النواب) السابع غازي الدين حيدر ١٨٢٧ – ١٨٣٧ لقب ملك. وأصبحت عاصمة هذه الدولة مدينة لكنا التي أصبحت مركزاً علمياً وثقافياً عظيماً، أخلص ملوكهـا للمذهب الشيعي وشيدوا في العاصمة ضرائح للأئمة الشيعة الاثنى عـشر تماثـل الضرائح الأصلية. خلع الإنكليز آخر ملوكهم النواب (واحد علي شـاه) ١٨٤٧–١٨٥٦. وهؤلاء النواب خصصوا مساعدات مالية للعتبات المقدسـة فـي مكـة والمدينة وكربلاء والنجف بمساعدة الحكومة الإنكليزية منذ سـنة ١٨٢٥م الـذي استدانت هذه الحكومة مبلغاً قدره عشرة ملايين روبية إلا أن ملك أوده اشترط بدلاً من تسديد المبلغ إليه أن تقوم حكومة الهند بـصرف الـربح ٥% علـى بعـض الأشخاص والطبقات في تلك المدن.

(٨٣) الكاتب الأعجمي يقصد تعميق الخلاف الطائفي بـين الـسنة والـشيعة بمحاولة جادة وعدم اتفاق الطائفتين ليستفاد المحتل من ذلـك لتثبيـت احتلالـه واستغلاله وعدم استقرار البلد ولكن خاب هدف الاستعمار بوعي الشعب العراقي لهذه المقاصد.

(٨٤) يقصد (بالخليفة) السلطان العثماني.

(*) إن ادعاء تنازل الخليفة العباسي الذي كان موجوداً في القاهرة–بمصر عن الخلافة إلى السلطان العثماني سليم الأول الذي احتل مصر سـنة ١٥١٦ ونقلـهِ خليفة العباسين إلى استنبول غير صحيح.

(٨٥) (الشريف) أو (شريف مكة) هو الحسين بن علي حاكم الحجاز ومَلَكُه بعـد ذلك.

(٨٦) إن سلوك قادة جمعية الاتحاد والترقي (بالتطرف التركي العنصري) أمثـال أنور باشا وجمال باشا ونيازي وكمال المتعصبون ضد العرب خاصة والقوميات

الأخرى عامة ضمن الدولة العثمانية التي كان يحكمها العنصر التركي باسم الدين الإسلامي وبمظلة الدولة العثمانية بدأت تتصدع بدءاً بالوضع الداخلي للدولة حيث كان رد الفعل لذلك التعصب تعصب مقابل إثارة للجانب القومي لتلك القوميات.

وقد استغل أعداء الدولة العثمانية من الأوروبيين ذلك الوضع المتذبذب والشعور النافر ضد تصرفات حكام الأتراك العسكريين المتعصبين وحاولوا جهدهم تعميق تلك الخلافات وتشجيع الجمعيات السرية المناوئة للأتراك داخل الدولة العثمانية بدافع التخلص من الحكم التعصبي التركي المقيت باسم الديمقراطية والسماح لهم بعقد المؤتمرات في أوروبا للمطالبة بحقوق القومية ليزرعوا بشتى الطرق الأشواك داخل مجتمع تلك الدولة الهرمة وقد أطلق الأوروبيون عليها اسم (الرجل المريض) وطمحوا إلى اقتسام أراضيها وتفتيتها انتقاماً منها لإسقاط الدولة البيزنطية ووصولها إلى فينا كما قلنا سابقاً وللتخلص من خطرها على أوروبا كما يتصورون. لقد احتل السلطان العثماني بيزنطية أو القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فرنجية إن محاولة الأوروبيين زرع عدم الثقة بين جميع أطراف سكان الدولة العثمانية هدف مركزي وصل أوجه بين (٥ أيار سنة ١٩١٥ وأواسط عام ١٩١٦) حيث أعدمت مجموعة كبيرة من العرب وهاجمت قواتها الأرمن والآثوريين وأعلن على أثر ذلك الشريف الحسين بن علي الثورة العربية الأولى وهكذا تحركت القوى التي كانت تسند الخيمة العثمانية فاقتلعت الأوتاد والتفت الخيمة حول عمودها فقط ولإعطاء صورة واضحة نعطي الإحصائيات التالية:

نفوس الدولة العثمانية حسب الأطلس العثماني الصادر سنة ١٩١٤ (مكمل ومفصل جغرافية عمومي أطلس)

المسلمين ٢٦,٤٠٠,٠٠٠ مسلمون

المسيحيين ٧,٤٠٠,٠٠٠ مسيحيون

الموسويين ٣٠٠,٠٤٧ موسويون

٣٤,١٠٠,٠٤٧ مجموعة سكان الدولة العثمانية يشكل العرب فيها ٢١,٠٣٠,١٠٠ مليون أي يشكلون ٦٢,٥% من سكانها.

المقالة الثامنة

المحمرة

(٨٧) (قناة خايين) هي قناة تصب في شط العرب عند مصب نهر (نـــاز الله) وتعتبر نقطة اتصال الحدود البرية العراقية بالإيرانية حسب بروتوكول الحـــدود الفارسية العثمانية لسنة ١٩١٣.

(٨٨) (شركة شرق الهند) ويسميها بعضهم (شركة الهند الشرقية) تأسست في هولندة سنة ١٦٠٢م للتجارة مع البلاد الواقعة ما بعد رأس الرجاء الصالح. تمتعت ببعض الامتيازات ثم ألغيت الشركة سنة ١٧٩٥م. وكان لكل من فرنسا وإنكلتـــرا شركة مشابهة لها بالاسم والهدف.

والشركة الإنكليزية هي المعنية هنا تأسست في آخر يوم من أيام القرن السادس عشر ميلادي وذلك في عهد الملكة اليزابيث الأولى وهدفها كسر طوق الاحتكـــار الذي كانت تضربه الشركة الهولندية حول تجارة التوابل من الهند. ثم اتسع نفـــوذ الشركة الإنكليزية تدريجياً حتى أصبح لها جيش خاص بها تمكن سنة ١٧٥٧م من السيطرة على القارة الهندية وفي سنة ١٨٥٧م ثار هذا الجيش فسارعت الحكومة الإنكليزية إلى تولي الحكم المباشر على الهند حتى استقلت (الهند والباكستان) سنة ١٩٤٧.

(٨٩) هو الشيخ جابر والد الشيخ مزعل والـــشيخ خزعـــل أميـــرا المحمـــرة بالتعاقب.

(٩٠) إن الاستعمار الإنكليزي والفارسي والعثماني تعاونوا جمـــيعهم للقـــضاء على إمارة كعب العربية لأنها كانت شوكة بوجه أطماعهم التوسعية وهـــي التـــي سبقت تكون إمارة المحمرة وقد كانوا يطلقون على مقاومـــة إمـــارة كعـــب لهـــم بالقرصنة وقد حاولوا بشتى السبل تفريق الكعبين في إثارة الخلافات بين أمرائهم

أو محاولة رشوتهم حتى قيض لهم الشيخ جابر أمير المحمرة الذي كـان تابعـاً لإمارة كعب فخرج عليها ومن هذا التاريخ بـدأت إمـارة المحمـرة بـالظهور وضمرت إمارة كعب الذي كان نفوذها ممتداً إلى أبعد من مدينة بوشهر الحالية في إيران والواقعة على الخليج العربي وكان أميرها عربياً آنذاك.

(٩١) ومن كلام الكاتب الإنكليزي نستشف أن الإنكليز دفعوا الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو إلى قتل أخيه الأكبر مزعل لخدمة النوايا والمصالح الاستعمارية سواءً الإنكليزية أو الفارسية المتعاونة معهم ثم انضم الشيخ خزعل إلى الماسونية وأصبح من رجالها البارزين وقد منحه المحفل الإنكليزي الماسـوني والحكومـة الإنكليزية الألقاب الكثيرة ولكن عندما انتهت مصالحهم منه تخلوا عنه بجرة قلـم تركوه إلى مصيره التعس بعد أن وعدهم رضا بهلوي بحصص في النفط. وهكذا قضى على إمارة خزعل العربية رضا بهلوي سنة ١٩٢٥ وأخـذه أسـيراً إلـى طهران ثم قتلوه في سجنه سنة ١٩٣٨. وهذه عبرة لمن يتعاون مع أعداء بـلاده فمصيره واحد.

(٩٢) أ- يدعي الكاتب أن الإنكليز هم حلفاء للشيخ خزعل وانهم سيـساندونه في حالة الاعتداء عليه وهذا الكلام ورد سنة ١٩١٦ وأظهـرت النتيجـة كـذب تعهدهم سنة ١٩٢٥.فقد كانت طموحاته واسعة وكثيرة ولم تكن إنكلترا ترتاح لهذه التخيلات وقد أضمرت له، أما هو فقد وثق بها ثقة عمياء وتناسى عبر التـاريخ هول الوثوق بالغريب فكيف بالطامعين. وحصل ما حصل بعد ذلك وكلنا نعـرف ذلك.

ب- والإنكليز منذ ذلك الوقت يحاولون تقوية الفرس في المنطقة وإضعاف الدولة العثمانية فيها.

(٩٣) في سنة ١٩٠١ حصل دارسي على امتياز لمدة ٦٠ سنة من الحكومـة الفارسية للتفتيش عن النفط في الأهواز العربية. وفي سنة ١٩٠٩ وجـد الـنفط وتأسست شركة (شركة الإنكلوفارسية للنفط) ثم أبدل اسمها سنة ١٩٣٥ إلى شركة

(النفط الإيرانية الإنكليزية) بعد أن تغير اسم فارس إلى إيران. وقد سوّق النفط من عبدان وكان إنتاجه سنة ١٩١٣ حوالي مليوني برميل في اليوم.

إن هذا الطموح لدى الشيخ خزعل وحسب تفكيره أنه يقدم في ذلك خدمات إلى حليفته ووليّة نعمته إنكلترا إن ذلك الطموح لم يعجب الحكومة الإنكليزية رغم أنه من القريبين لها. وعندما ازدادت مصالح الإنكليز في نفط الاحواز تقربوا لحكومة الفرس المركزية في طهران وتباعدوا عن الشيخ خزعل ولذا حسبوا أن الاستقرار في المنطقة يرنوا إلى هذا الاتجاه. وهذه الاستراتيجية غير بعيده عـن الإنكليـز الذين لا يقبلون السماح للعرب أن يتقدموا أكثر مما هم يريدون ويبقـي العـرب مجزئين حتى تسير مصالحهم على هواهم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

كانت طموحاته واسعة وكثيرة ولم تكن انكلتـرا ترتـاح لهـذه الطموحـات والتخيلات وقد أضمرت له العداء. أما هو –الشيخ خزعل– فقد وثـق بهـا ثقـة عمياء وتناسى عبر التاريخ حول الوثوق بالغريب فكيف بالطامعين. وحصل له ما حصل بعد ذلك.

(٩٤) إن الكاتب يتجاهل نسب الشيخ خزعل العربي ويعتبره فارسياً ما دامت جنسيته فارسية.

أما الإمبراطور البيزنطي فاليريان أوفاليربانوس فحكم بين سنة ٢٥٣ – ٢٥٩ ق.م وحقق انتصارات كبيرة على الجانب الشرقي من إمبراطوريته ثم زحف على بلاد فارس ووقع في أسر سابور الأول سنة ٢٥٩ ق.م وبقى في الأسر حتى هلك.

(٩٥) وعود كاذبة كما قلنا في الفقرة ٩١،٩٢ وأصبح أمره في التاريخ.

المقالة التاسعة

عشيرة على دجلة

(٩٦) إن تشابه أصل كلمة (عدن) و(معدان) باللغة الإنكليزية أوقع الكاتب بلبس بين المفهومين واعتبر كلمة معدان جاءت من عدن. ونحن نقول قد تكون مشتقة كلمة (معدان) من (معدي) أي المجتاز وحيث أن قبائل العمارة قد اجتازت نهر دجلة بعد قدومها من الجزيرة العربية من الغرب ومنها قبيلة (البو محمد) وحيث أن الاجتياز يكون بـ (المعديّة) أي العبّارة أو الطبكة والكُفّة أو غيرها... واحتمال آخر يرد عبر التاريخ بمثل مشهور عربياً (المعيدي تسمع به خير من أن تراه) ويقال لمن يكون خبره خير من منظره. والقصة معروفة موجودة في الأدب العربي يراجع المنجد في فرائد الأدب.

ويطلق الآن هذا الاسم (المعيدي) -بكسر الميم والعين- على رعاة الجاموس وحياك الحصران الكصب. أما كلمة (شركاوي) الذي يطلقها بعض أهالي بغداد على بعض أهالي العمارة فجاءت من كلمة الشرقية أي من جهة الشرق.

ومدينة العمارة مصّرت بنفس الزمن الذي مصّرت فيه الديوانية والرمادي حوالي سنة ١٨٦٠ زمن مدحت باشا والي بغداد.

وكان ثلث سكانها من اليهود سابقاً الذين تعاطوا الربا لتسليف الفلاحين وكذلك امتهنوا التجارة.

والعشائر بصورة عامة لم تسكن المدن بل سكنت الريف والاهوار لوجود عادة الثأر ويكون المطلوب أكثر استهدافاً في المدن. والعمارة (محافظة ميسان الآن) أكثر سكانها كانوا بالاهوار والريف. ونحن نعلم أن الفرد العشائري يحتقر زراعة الخضرة ويسمى صاحبها (بالحسَاوي) وكلمة (الحساوي) جاءت من الاحساء وهي إحدى مقاطعات المملكة العربية السعودية حالياً وتقع على الخليج العربي وتشتهر

بالنفط والزراعة وبالحمير ويطلق عليها أيضاً بالحساوي. والفرد القبلي يمتهن مهنة زراعة الشلب (الرز أو التمن) والحبوب الحنطة والشعير.

أما النجديون من السكان فسكنوا مدينة الكحلاء والحي وكان لهم بساتينهم ونخيلهم فيهما.

(*) وفي الفترة سنة ١٩٣١ كان سعر الليرة العثمانية الذهبية تساوي من ١٠ روبية وقبل إصدار الدينار العراقي. وقد قام رجل إنكليزي اسمه تيسيكل بدراسة المعدان جمع معيدي في سنة ١٩٤٦-١٩٥٨ وأصدر دراسة بعدة مجلدات وقد ترجم مقدمة هذا الكتاب الأستاذ باقر الدجيلي.

(٩٧) العزير ناحية تبعد عن القرنة بـ ٣٥ كم وتقع على نهر دجلة جنوب مدينة العمارة فيها دفن النبي الاسرائيلي العزير.

(٩٨) كما بينا سابقاً أن الكاتب لا يدرك علاقة الأرض بالمزارع إلا حسب التصور الأوروبي لذا اضطرب عليه تفكيره ولم يدرك تلك العلاقة.

(٩٩) إن العربي لا يحب الخضوع والخدمة في قوات أجنبية وتحت قيادة غريبة عنه فلذا كان يحاول في الفترة العثمانية التهرب من الجندية فلما مسكت العراق حكومة وطنية يعتز بها وقيادة رائدة برز الجندي العراقي في شجاعته وقدرته القتالية وتفكيره القيادي.

(١٠٠) في النظام البدوي جوانب حسنة يمكن الاقتباس منها ولا يحق للبعض أن ينظر إليها نظرة ضيقة هجينة فيصفها كما يحلو له. إن المؤلف يتعجب من سرعة تعلم العربي المذهلة في سلم التقدم الثقافي والمدني واللغوي ونجد الكاتب محتار أمام تبرير موقفه الضعيف هذا.

(١٠١) إن المرأة العربية تبقى محتفظة بشخصيتها واسم عائلتها عند تزوجها بأي شخص كان فهي بنت فلان ابن فلان لا كالمرأة الأوروبية التي تفقد شخصيتها وتنسب إلى زوجها بعد كل زواج وتفارق اسم أبيها وعائلتها وهذا نوع من الرق والعبودية الذي لم ترتضيه السيدة العربية والذي عتقها منه الرجل

العربي الأبي الغيور. ونجد الكاتب في حديثه يستغرب هذا في شخـصية المـرأة العربية هذه الشخصية القوية.

إن كثرة ما ردده الإعلام الغربي المعادي للقيم العربية الإسلامية عامّة وعـن المرأة خاصة قد تأثر به بعض العرب ممن درسوا في أوربـا وأصـبحوا مـن المفكرين وكذلك المتأثرين بالإعلام الأوربي ووسـائله كثيـرة الآن (مـسموعة ومقروءة ومرئية).

إن دراسة واقع المرأة العربية في الريف دراسة نابعة من الصميم دون تحيـز ودون الاستكبار يجدها أخذت مجالاً واسعاً وبعيداً في مساهمتها في المجتمع مـع الرجل بل وتكون في بعض الأحيان من المبرزات بجميع المجالات وقـد كانـت السبّاقة في جميع المضامير بل وحتى في المجال العسكري.

ولا تنكر إن في أي مجتمع فيه من الأعمال ما يأخذه بعض الرجال الـصدارة وآخرين الأدبار فالمرأة أيضاً لها باع في مجتمعها وقد يقال عن الكثرة والقلّة وهنا يدخل جانب التعليم في الأمر لأن به يتقدم المجتمع ويجلو أمـوراً كانـت قاتمـة يعلوها الصدأ الكثير. وهاهن في العراق الآن قد أمسكن بأمور بعـد أن منحـت الفرصة اللازمة لها خلال الحرب منذ سنة ١٩٨١ وأصبحت هي راعية البيـت وأصبحت تدير دوائر الدولة بدل الرجل الذي شمّر ساعده وأخذ البندقية بيده ليدافع عن وطنه وبلاده.

(١٠٢) أيها القارئ العربي الكريم عامة والعراقي خاصة ما هو شعورك وأنت تقرأ هذا التصور المدسوس والاستخفاف المتعمد لكل ما هو عربي؟

نقول لو أن التعلم دخل هذه المناطق، كما هو حاصل الآن، لكانـت شخـصية الفرد العربي عامة والعراقي خاصة غير تلك الشخصية بل لكان أرقى مما هـو عليه أكثر شعوب الغرب لأن في شعوبهم من هو أشد انحطاطاً في سلم التقدم بل في المجال الإنساني وعندما نشاهد عمال مناجم الفحم والتعدين في نفـس الفتـرة

التي كتب الكاتب مقاله نجد أحوالهم تعسة وكذلك حال الفلاح الأوروبي رغـــم أن العامل الأوروبي يعتبر رأسمالياً للعامل العربي.

أما يقصده الكاتب (الحكام الأقدر) يقصد بهم الإنكليز الذين جاءوا حديثاً إلـــى المنطقة.

المقالة العاشرة

عبدة النجمة في بين النهرين

(١٠٣) ويسمى بالسريانية (جليانة) وهو بالإنجيل (يوحنا المعمدان) وفي القرآن (يحيى بن زكريا).

(١٠٤) تصور خاطئ ومدسوس.

(*) مند آن وجمعها المندائيين كما يطلقون على أنفسهم هكذا.

ولدي كتاب (الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين العرب البائدة) تأليف عبد الفتاح الزهيري نقحه فريد عبد الزهرة المنصور والاثنان من الصابئة المندائيين. مطبعة أركان ببغداد سنة ١٩٨٣.

(١٠٥) لغة أصلها أرامي يتكلم بها حالياً مسيحيو الكنيسة الشرقية في سوريا وما حولها ومنها في العراق.

(١٠٦) وكذلك هم موجودون في محافظة ميسان (العمارة) أيضاً.

(١٠٧) يحاول الكاتب كما بينا سابقاً أن يخلط الأوراق لتضييع الصورة الصحيحة على القارئ فتارةً يقول:- المسلمون يقتلون الناس وتارة أخرى يقول أنهم أكثر تسامحاً وينسى إن جميع الأديان عاشت في وئام أكثر مما حصل في أوروبا وإن أكثر سكان العراق عرباً ولم تستطع جحافل الغزاة أن تغير هذه الهوية. وان وازنّا موقف الكاتب من الترك والفرس وجدناه ميالاً للفرس وهذا اتجاه لأكثر الأوروبيين حاقدين على الترك وليس هذا موقفاً جديداً فقد سبقه المستشرق الألماني بروكلمان[1] في ذلك وغيره من الكتاب المؤرخين. أما التنقيات مقصود منها الطهارة.

(١٠٨) هو إله التجارة والأشعار عند اليونان والرومان الأقدمين.

(*) من الذي أطلق عليهم عبدة النجمة؟ هم يطلقون على أنفسهم الصابئة المندائيين.

---

[1] **في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية.**

(القسم الثاني)

تركيا الآسيوية(١)

تأليف

كرترود لوثيان بيل

مباحث القسم الثاني

المقدمة:

كتبت هذه المقالات بناء على طلب وزارة االحربية خلال شـــهرى حزيـــران وتموز ١٩١٧، (٤) حيث أن تؤدى إنها قد تكون ذات فائدة لأفراد القوة الموجودة فى ما بين النهرين (٥) والذين ربما لم تكن لديهم الفرصة للتعرف على منـــاطق حكم السلطان(٦) وراء ساحات القتال في غاليبولي (٧) والعراق.(٨)

جي. أل. بي(٩)

التوقيع

مكتب القنصل المدني

تشرين الأول ١٩١٧

نظرة عامة

في إحدى المعلقات السبعة والتي تعتبر قمة الشعر العربي القديم هنالك وصف لمرور عاصفة عبر وجه الصحراء. ويصور الشاعر بأبيات مشهورة لجمالها المتصف بالخشونة تجمع الغيوم في الأعالي وبريق البرق كتذبذب ظلال الأيدي في الظلام واندفاع سيول الجبال وهي تطارد الغزلان من مأواها وسقوط أشجار النخيل وأماكن السكن في الواحات. ويقول أن التلال كانت تغلفها ثورة العاصفة كرجل قد التف برداء عظيم. ولكن بعد أن مر الخراب وانتهى انبثقت الحياة في السيول بأشكال الزهور وكأن تاجرا من اليمن قد نثر فيها حاجياته الملونة، بدأت الطيور تغني وكأنها قد تأثرت بخمور معطرة. ولكن في مجاري المياه كانت جثث الحيوانات الميتة كأبصال قلعت من الأرض.

بالنسبة لنا نحن الجالسون في بغداد يبدو أن الخطر الألماني (١٠) المرتد لاكتساح آسيا تماماً بنفس الوضعية التي وصفتها القصيدة وبالنسبة لبعضنا فان حملة ما بين النهرين هي مجرد الفصل الأخير من تاريخ قد تألفنا معه لوقت طويل.(١١) شاهدنا الغيوم تتجمع في السماء ولكن ولو أن الخطر كان يدعوا للحذر فان القليل منا قد تنبأ بقوة قمة هذا التهديد الذي خرب الشرق والغرب. وكما يقول أمرؤ القيس (شاهدنا تنفجر من ضارب إلى عذيب)(١٢) يمكننا نحن أن نقول (من الراين إلى أرضروم)(١٣) وإذا ما تطلعنا إلى الوراء إلى الخطر الواضح للطموح الألماني فإن حلمها الأسيوي يبدو كمفتاح لسياسة التطور الذاتي القاسية تلك أدت إلى الصراع الدولي، وليس من المبالغة أن نقول أنه عندما وضع الإمبراطور ولهيلم(١٤) إكليل الزهور التاريخي (والذي أثار السخرية) فوق قبر صلاح الدين في دمشق (١٥) كان القطار الذي أطلق نيران المدفعية في السوم قد أوضع. فإذا كانت المعركة الرئيسية من الضروري خوضها في أوروبا. فإن

الغنيمة يجب أن تكون في تركيا الأسيوية وهنالك استنتاج درامي في حقيقة أن الانتصار البارز الأول في الحرب وهو احتلال العاصمة الجنوبية(١٦) لتركيا الأسيوية كان يجب أن يكون في تلك القطاعات التي كانت ألمانيا تتوقع الانتصار في محاولاتها الجبارة. فماذا كانت الجائزة إذن والتي كانت تساوي دم الحياة للعديد من الآلاف من جنود المشاة (البوميرانيين(١٧) – Pomeranian) وكيف يمكن الحصول عليها؟ وما هي الحالة الواقعية لهذه الأراضي التي كانت ألمانيا تنوي أن تؤسس فيها إمبراطوريتها الشرقية وما هي نفعها؟ هنالك القليل من الإنكليز الذين يؤيدون بكل ثقة أو صدق الاعتداء على مقاطعات تركيا الآسيوية، فبالنسبة للسائح كان غياب السكك الحديد وندرة الطرق الجيدة وقلة أماكن السكن المقبولة تكفي لتثبيط عزيمته. فاعظم ما يأمل هو جولة في الأرض المقدسة(١٨) ونظرة على أزمير (Smyrna) وأفسس (١٩) (Ephesns) وأيام قليلة في القسطنطينية.(٢٠) أما الأماكن الأخرى بعد دمشق كحلب أو أي مدخل آخر لأسيا الصغرى فلم يكن لها وجود في خريطة تجواله وكذا كانت سهول ما بين النهرين.
أما بالنسبة للمستثمر(٢١) فإن الاعتماد التركي لم يكن يبدو ثابتاً ليعود إليه بمنافع فكان بالفعل يستطيع أن يجد ضماناً أكثر لرأسماله في أماكن أخرى صحيح أنه منذ أيام شركة الشرق (Levant)(٢٢) كانت لبريطانيا (العظمى) علاقات تجارية مع تركيا واستثمرت علاقتها ببيوت قديمة في مدن البحر المتوسط الساحلية على نفس المنوال في الوقت الذي كانت فيه الشركات البريطانية في البصرة وبغداد لا تزال تقوم بحجم أكبر من التجارة من أن يمكن توقعه من أي قطر آخر ولكن من أزمير (سميرنا) وبغداد على حد سواء فإن التعامل التجاري مع الداخل (أي الدولة العثمانية) كان يتم عن طريق وكلاء محليين والذين كانت نشاطاتهم تتحدد كنشاطات السائح بغياب وسائل المواصلات ناهيك عن القلق العام بخصوص الحياة والأملاك والذي كان سائداً في الأرجاء العثمانية. لقد نوقشت مشاريع شاملة للسكك الحديدية ثم أهملت حيث إن الحكومة البريطانية لم تقدم لهذه المشاريع أي

تشجيع وأظهرت رغبة ملحوظة في عدم التقيد بالتزامات قد تؤدي -كما ستؤدي- إلى عراقيل. وهكذا سمح للحظة النفسية أن تمر وليس بالضرورة من خلال عدم مبالاة وشعور بالذنب. ووجه الاستثمار البريطاني إلى قنوات أخرى أكثر ضماناً. واستبعدت تركيا مع إبداء الشعور بالأسف بسيط بأننا لم نكن بحاجة إلى الدخول في مخاطر الحرب من أجلها كما كنا قد أظهرنا أنفسنا في حرب القرم (Crimean)،(٢٣) وأمل وقور بأننا تحت جميع الظروف سنتمكن من الاحتفاظ بموقعنا التجاري في بلاد الرافدين ونفوذ سياسي في الخليج العربي الذي نعتبره حيوياً من أجل أمن الهند.

لقد كانت ألمانيا التي أيقظ فيها السياسيون الرأي العام نحو إدراك الثروة الممكن توفرها والتي تختفي وراء مظهر التفسخ الذي تغطيه الإمبراطورية العثمانية ودفعوا مواطنيهم لتثمين خيالي للمزايا التي يمكن أن يأتي بها التوسع في الشرق. ولكن في الفلسفة السياسية الألمانية فإن احتلال موقع تحت الشمس يعني استبعاد جميع الآخرين من الاستمتاع بأشعة هذا الكوكب المنير وهكذا تكونت فكرة تحويل تركيا إلى مواقع للتجارة الألمانية وتطورت بسرعة إلى فكرة تحويل تركيا إلى دولة تابعة لها تدرب على السلاح من قبل أساتذة ألمان لكي تصبح سلاحاً في الصراع القادم. وتكشف لدينا منذ اندلاع الحرب شبكة من الدسائس حيكت حول بلاد فارس(٢٤) وإلى داخل الهند للإطاحة بالمنافس الأوروبي الوحيد في أسيا والذي ينظر إليه بخوف شديد.(٢٥) وبالرغم من كون هذه الدعاية ضارة لنا فقد كانت ضارة لتركيا التي قدر لأدلائها الألمان أن يقودوها إلى الدمار. إن انبثاق هذه النزعة العسكرية القاتلة خنقت في المهد الحركة الدستورية لعام ١٩٠٨. وعوضاً عن صرف المبالغ على مشاريع الري لإرواء الأرض وجدت طريقها إلى خزينة شركة كروب (Krupp) (٢٦) لكي تصرف على الجيش وبشكل غير مثمر. ولكن الذي أدى إلى مزيد من الدمار في إمبراطورية تتألف من عدة قوميات هي سياسة ألمانيا في تقوية وإسناد الأتراك في تصميمهم على سحق كل العناصر

العرقية الأخرى تحت أقدامهم. وكان هنالك مبدأ مقبول بين الألمان العاملين في تركيا ابتداءً من أساتذة العسكرية وانتهاءً بخبراء الآثار بأن الأتراك وحدهم هم جديرين بأن يسندوا. ويمكن توضيح إلى أي مدى نفذ هذا المبدأ خلال الحرب: مذبحة الأرمن واعدامات العرب هي جرائم ارتكبت باسم السلطة العثمانية.(٢٧)

يمتد القسم الأسيوي من الإمبراطورية العثمانية من البحر الأسود شمالاً وإلى الخليج (العربي) جنوباً. وتضم كل الجسر الجبلي الذي يربط أوروبا بآسيا التي نعرفها باسم آسيا الصغرى. وهي بلاد ذات مرتفعات عالية وهضاب مرتفعة تمتد نحو الغرب من الحدود الفارسية وتمر بوديان خصبة إلى أن تصل سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط. بينما تقع بين خطي امتداد السلاسل الجبلية الأناضولية السوري والكردي أراضي للرعي واسعة تمثل الحوض الجنوبي لنهري بلاد الرافدين العظيمين. وعلى امتداد خط عرض بغداد تقريباً وعلى بعد حوالي (٣٥٠) ميل عن الخليج (العربي) يقترب دجلة والفرات من بعضهما ثم يبتعدان لكي يحيطا بمساحة من الأراضي الخصبة المذهلة ألا وهي ولاية العراق.(٢٨) ومن الناحية الاسمية فإن فرمان(٢٩) السلطان كان يصل إلى الجزيرة العربية أما في الواقع فقد كان لا يصل أبعد مما يمكن أن تصل به السكة الحديد. أي إلى الحجاز فقط. وباستثناء هذه الولاية ومدينتيها المقدستين لم تكن بقية أرجاء الجزيرة العربية تثير أي اهتمام حيوي للحكام الأتراك بالرغم من انهم بذلوا الدماء والنقود لكي يضمنوا سيطرة وقتية غير ثابتة على اليمن.

وعلى هذا وبصورة عامة فان تركيا الآسيوية تقع في قسمين: الجبال في الشمال والسهول في الجنوب. الجبال يسكنها الأتراك والأكراد والأرمن إضافة إلى مستعمرات كبيرة من اليونانيين -أكثرهم قرب السواحل-(٣٠) بينما السهول هي موطن العرب ويمكن اعتبارها بحق امتدادا للهضبة العربية. أما الحدود الجبلية الغربية والتي تشكل سوريا كلها فقد كانت منذ زمن موغل في القدم موطن سلالة من المهاجرين من الأصل العربي (جزيرة العرب) بينما الحدود الجبلية الشرقية

هي كردية في قسميها الشمالي والأوسط ولكن في قسمها الجنوبي تمر ببلاد فارس وتقطنها عشائر ذات اصل فارسي. وباستثناء الأراضي السورية فان التلال تعين حدود العرق العربي وهذا يتفق تماماً مع الحقائق. فإلى الشمال الشرقي من بغداد وحالما تبدأ الأرض بالارتفاع نحو جبال حمرين والتي كانت ساحة قتال مؤخرا" يبدأ السكان العرب بالتناقص لتحل محلهم عشائر كردية وبنفس الطريقة يحدث نفس الشيء عند الحدود الشمالية لبلاد الرافدين حيث يبدأ السهل العظيم بالارتفاع في تموجات طويلة نحو جبال الأناضول يسكن الأكراد القرى هناك ويبتعدون في الربيع لكي يختلطوا مع العرب في المراعي الصحراوية. وبصورة ثابتة يتجنب العرب الأراضي المرتفعة ففي جبال سنجار- تلك القمة التي تقطع المناطق العشائرية لشمال وادي الرافدين على استقامة الموصل تقريبا" -السكان جميعهم تقريبا "يزيدية" (٣١) -عبدة الشيطان- ذو اصل كردي وليس عربي بينما يسكن السهول إلى الشمال من ذلك قبائل عربية مثل شمر وطي غيرها.

لا توجد ظاهرة طبيعية اجمل من تلك التي تلاقي عيون المسافر الذي يقترب من الحائط الجبلي لكردستان من الجنوب.فوراءه يقع عالم من أراضي مستوية فباستثناء جبل سنجار لا يوجد أي نتوء برز في تلك الأرض السهلة أبتدأ من الخليج. ولا يرى المسافر ذلك المنحدر الصاعد -ذو الصعود التدريجي غير الملحوظ- ولذا يفاجأ بالمرتفعات عندما يرفع عينيه وينظر إلى جبل ماردين منتصبا" في السماء. لقد كانت هذه التلال الشمالية لآلاف السنين ملجأ ومخبأ لشعب مغلوب وجنس مكافح بالرغم من انهم غالبا كانوا يهاجمون. ولا يزال يسكن بين أخاديدها بقايا شعوب قديمة تمارس أنظمة وتقاليد غريبة غير مفهومة حتى لديهم وهنا وجدت المسيحية موطئ القدم قديم وقام رهبان باسل (٣٢) بحفر كهوفهم الجبلية في قمم شديدة الانحدار. والى أن أدت المذابح الأخيرة بإزالة ليس الأرض فقط بل وجميع الطوائف المسيحية الأخرى عن الوجود. وليس هناك شك أن هذه المذابح حدثت قبل وقت ليس بالبعيد، كانت هذه المناطق مأهولة من قبل مجتمعات

كبيرة تابعة للكنيسة السريانية تتعبد في أديرتها المنتشرة في المرتفعات التي يصعب الوصول إليها في (طور عابدين) إلى الغرب من ماردين والى الشمال من سعرت. أما النساطرة الأشداء (٣٣) -وهم بروتستانت في الإيمان حتى قبل ظهور أي حركة بروتستانتية في أوربا- فقد كانوا يسكنون الجنوب من بحيرة وان وراء ديار بكر (حيث الحد العرقي واهي لان سكان اورفه في الجنوب الغربي هم أتراك بصورة رئيسية) تقع الأناضول ارض الأتراك -ليس كليا- حيث قيل أن الأرمن واليونانيين كثيرين في العدد والعشائر الكردية لا زالت كما كانت في أيام أكزينفون (Xenophon's)(٣٤) تحتل الجبال على جانبي الحدود التركية-الفارسية. ومع ذلك تعتبر هضبة الأناضول المرتفعة موطن الطورانيين وهم مزيج من أناس تركمانيين، أفشاريين ويوروك (٣٥) وتتجمع حقولهم المزروعة حول القرى في الهضبة وتقع مراعيهم الصيفية في أعالي التلال التي يمكن أن ترى فيها خيوطا من الثلج حتى منتصف شهر أب. وفي المنطقة الوسطى من البحيرات وفي القرى التي تغذي مياندر(Maeander)، هرمس (Hermus) سانكاريوس(sangarius) وهاليس(Halys) (٣٦) التي أقيمت بين أشجار الفواكه وفوقها أشجار الحور الباسقة قسم منها تركي والقسم الآخر يوناني. وقبل الحرب كان اليونانيون موجودين في كل مكان يتخذون مهنة التجارة أو قطاع الطرق إذا مررت بالجبال الساحلية التي تغلفلها الحكايات الأسطورية.

وأنا اكتب الآن في بغداد وأنا أستطيع أن أتخيل منظر السواحل الجميلة والمرتفعات الواسعة والصباح في الربيع عندما تتفتح أزهار الفواكه البيضاء وتنتشر على طول طرق السفر وأتخيل أيام الصيف الحارقة عند الظهر وكوخ تركماني يقدم وسائل الراحة والمرطبات في تلك السهول الحار ولكن وراء المتعة التي لا مأخذ عليها للمنظر الجميل أو الترحيب الحار يقع انطباع بأن الأرض مهملة. فبالرغم من إسراف الطبيعة بالهدايا حيث أن (٥٠٠) عام من الحكم التركي لم يثمر عن عمل مثمر للإنسان -ولكن خيم على الأناضول ظل الصراع

الديني والذي ازداد عمقاً منذ بدأت الحرب بالانتقام الذي مارسه الأتراك والألمان من شعب لا حول له ولا قوة.

دعوني أعود إلى الإنسان التركي اللطيف وغير المتكلف كما عرفته وكما رأيته مؤخراً وهو سجين. كان ذلك في البصرة مباشرة بعد الانتصارات الكبيرة الأولى لجيوشنا في الكوت. كان في مستشفياتنا على شط العرب عدد من الجنود الأتراك الجرحى والذين اسروا في الصناعيات (Sunnai'at).(٣٧) زرتهم هناك وجمعت المصطلحات التركية المفككة التي اعرفها لكي اسألهم عن المدة التي كانوا فيها مجندين ومن أين أتوا. كانوا جميعاً اتراك من الاناضول، واحد من قيصرية وآخر من أزمير وثالث من قونية ورابع من أسكي شهر الواقعة على حافة التلول الفريجية (Phrygianhills) (مملكة جيوزل Giuzel) تنهدوا وهم يقولون إنها ((مقاطعة جميلة)) وابتسموا عندما شاركتهم بالمديح سائلين (ما هي الاحتمالات يا روحي؟) باللسان العثماني وهم يحركون رؤوسهم ويمدون بأيديهم لتناول سيكارة أخرى –لقد انتهت الحرب بالنسبة لهم.

هاهم نفس الرجال (يقصد الأتراك) الذين لم يعرفوا كيف يرشدوا أقوامهم ولا أولئك الذين كانوا خاضعين لهم إلى طرق السلام. فتحت حكمهم طمست بلاد الرافدين إلى ما يشبه العدم وهي البلاد التي لعبت دورا "عظيما" في تاريخ العالم حتى نهاية العصر العباسي وتحت حكمهم كذلك تدمرت آسيا الصغرى وهكذا تنطبق عليهم كلمات آياتهم –ومن يقول إنها لا تنطبق عليهم؟ (وهكذا جردناهم وأعطينا أملاكهم لكي يتوارثها شعب آخر).(٣٨)

المقالة الأولى

ولايات عربية –ولاية بغداد

لو كنت قبل خمس سنوات اكتب واصف ولايات تركيا العربية لكنت من دون شك قد بدأت بسوريا. ومنذ الاحتلال البريطاني للعراق اصبح واضحاً أن ابدأ ببغداد ليس لغرض الاحتفال بانتصارنا ولكن لان سوريا لا زالت محتلة (٣٩) بينما بغداد تحررت.(٤٠) ولا يمكن لأي كان أن يخطئ الظروف التي تسود هنا، هنالك شعور من الترقب والأمل يمتزجان بشعور من عدم الرضى على الأساليب العسكرية الحازمة وشكاوى بأن الإدارة المدينة لا يمكن أن تقام حالا وإنما تبقى محمولة على أنفاس زفرات قلبية راضية.ومهما تكن أخطاؤنا أو نواقصنا فسيمضي وقت قبل أن تتلاشى ذكرى السنتين والنصف التي سحقنا فيها الاحتلال التركي من أذهان رجال كانت حياتهم وأملاكهم مهددة يوميا.(٤١) أن السياسة المتبعة نحو العرب من قبل لجنة الاتحاد والترقي خلال الحرب كان قد أملاها فقط اليأس من اجتذاب القادة ذو الفكر العربي إضافة إلى ثقة عمياء بقدرة الأتراك على سحق الجنس المحكوم. وفي هذا الأخير لم تكن اللجنة بعيدة عن الحقيقة لقد كان العرب عاجزين حقا لكونهم غير مسلحين وغير منظمين وكانوا لا يزالون يدفعوا ثمن الخضوع ويندر أن توجد عائلة كبيرة من عوائل بغداد رحبت بنا لم يكن نصف درزن (٦) من أعضائها مع الأتراك– ولد في مراتب الجيش العثماني على الحدود الفارسية وثاني في الموصل وآخر في القسطنطينية وهكذا. ولا يمكن إنكار أن القليل فقط من هؤلاء انخرطوا عن رغبة، وصرف الأغنياء مبالغ طائلة على شكل رشاوي لإنقاذ أقاربهم من الخدمة العسكرية ولكن بعد أن قام خليل(٤٢) ورجاله بتغريمهم عاد من جديد فأرغم الشباب على الانخراط والبعض من أرقى رجال المدينة تم نفيهم إلى الأناضول أو إلى القسطنطينية والبعض الآخر والأكثر

حظا التجئوا إلى العشائر أو بقوا مختفين بين الفلاحين في أراضيهم ليعودوا مشرقي الوجوه بعد أن طرد الجيش العثماني فمع تشتت العوائل والجهل المطبق الذي لابد أن يسود فماذا يكون مصير أولئك الذين هم مع العدو وغيوم الحرب لا زالت تخيم فوق بغداد وتخيم بشكل خاص فوق رؤوس أفراد العائلات المرموقة. لان أولاد العوائل المشهورة يعتقدون أن من العار الهرب حتى من خدمة مكروهة وأملهم الوحيد المتبقي أن يقعوا بشرف أسرى في الأيدي البريطانية.

لندع أولئك الذين لم يتعرفوا على الأوضاع يرمون الحجرة الأولى نحن حالا سمعنا الكثير مما جرى ويمكن أن نلام. فنحن نرى يوميا رجال لم يشفوا بعد من أثار القلق المتواصل ورجال ذو امتياز فكري لم يكونوا يكنوا للمعاهد التركية أي محبة ويأملوا في الخلاص بواسطة تقدم الجيش البريطاني- كانوا لا يزالوا يكتبون ويتكلمون بتأثير مخاوفهم ضد المعتدي الكافر وبعد وصولي إلى بغداد(٤٣) بقليل كنت أتناقش مع رجل لم يكن قد سخّر قلمه للأتراك حول التغيرات المفاجئة التي شاهدتها. وكان محادثي رجلا ذو شخصية مستقلة جدا لسانه حاد لاذع جعله قبل وصولنا في وضع خطر جدا. وعندما نهض لكي ينصرف قلت له: (لا يوجد ما تقف خائفا أمامه) فأجاب بجد:(لا سمح الله. إني أخاف الظلم).

أن العذاب الذي خضع له الجنس العربي- وأخشى أن لا يمكن أن يزول كليا إلا بانسحاب تركيا من الحرب- كان قد شاهدتها بينما كنت لا أزال في البصرة. كان ذلك خلال زيارتي للأسري الجرحى في مستشفياتنا. ومن بين الضباط الأتراك كان هنالك شاب عربي على وشك الموت من رصاصة اخترقت رئتيه. كان الآخرون- وجروحهم طفيفة- يضحكون ويمزحون حوله وعندما سألت إذا كان بينهم من يتكلم العربية أشاروا إلي بعدم اهتمام وأجابوا: (هاهو ذا عربي إذ كنت تريدين واحدا). فتح الشاب عينيه عند سماع لغته وهمس لي اسم والده وعائلته-وكانت عائلة بغدادية محترمة- ثم استجمع نفسه وتمتم بأنفاس صعبة: (زوديني ما لديك من أخبار الشريف) فأجبته أن القضية العربية بخير في الحجاز

سألني (هل انتم متفقون معه؟) وأجبت: (هنالك تحالف بيننا)(٤٤) فحمد الله ودلت نبرات صوته على انه مستعدا لاستقبال الموت وهو مطمئن.(٤٥) ثم سألته: (كيف كانوا يعاملونكم انتم العرب في وسطهم؟) فأشـرقت عينـاه بالغـضب وأجـاب: (كالكلاب، وأضاف والله كالأزبال).

بينما كانت مشاعر كهذه واضحة جدا ومنتشرة كثيرا فان استمرار قتال العشائر العربية إلى جانب الأتراك يبدو متناقضا لا يمكن تفسيره.(٤٦) ومرة أخرى يمكن فهم وجهة النظر العربية من مسح غير متميز للأوضاع الحقيقية فبالنسبة للعشائر العربية فان الحرب قدر وقع عليهم بالرغم من عدم وجود أهميـة مباشـرة لهـا عليهم. فوقعوا في وسط قتال قـوى عظيمـة لا يمكـن قيـاس قـوة أي منهمـا وكالحيوانات الصغيرة التي تجد نفسها فجأة على سطح سـندان عمـلاق تراهـا تركض هنا وهناك لكي تهرب من ضربات المطرقة، فهمها الرئيسي هو الاحتفاظ بجلدها سالما صحيحا.

أن الأتراك كانوا أسياداً سيئين ولكن من يقول أن البريطانيين سـيكونون فـي النتيجة افضل؟ أن تجربتهم مع الجيشين المتخاصمين هي أن ليس هنالك فرق كبير لتفضيل الواحد على الآخر فكلاهما يدوسان حقول الحبوب ولا يستبعد أن يحرقوا الخيام أو يطلبوا القطعان (قطعان الماشية) فعلى الأقل الأتراك مسلمون ولم يفشلوا في القيام بطلبات مجدية لاهتماماتهم الدينية. كذلك في الوقت الحاضر هم ينثرون الذهب على العشائر ومع الذهب يقدمون تحذيرات تجمد الماء في العـروق عمـا ستكون عليه النتائج التي ستترتب إذا احتل الكفار الأرض. لقد كانوا أسيادا هنـا لأجيال عديدة -أفلا يكون لكلمتهم وزن؟ إنها- كما يمكنك أن تقول عمليـة قـذف قطعة نقدية إلى الأعلى ولكن القطعة النقدية هي قطعة نقود ذهبية تركيـة أثقلـت بصورة قانونية. ولدينا على أية حال سجل عامين من الإدارة في ولاية البـصرة ومن الجدير بالملاحظة أن العشائر التي أتت إلينا برهنت على إخلاصها.

نحن نعيش في بغداد خلال ساعة كثيرة العواطف. فالفلاحون في الحقول يتوقفون ليؤدوا لك التحية أثناء مرروك وحملة الفاكهة وهم يسيرون إلى السوق بحمولتهم يجيبون على تحيتك لهم بنهار سعيد ويدعوك لأن تغمس يدك في سلالهم وتأكل قدر ما تريد، والأطفال يعطوك تحياتهم بابتسامة والطبقات العليا في المجتمع تصرف بطريقتها الخاصة ويقدمون لك اكثر من الفاكهة أو الابتسامات وبغداد هي مركز لنشاط فكري ملحوظ، يعيش فيه رجال اشتهرت أسماءهم ككتاب وشعراء في أرجاء العالم العربي. وهم لا يعايشون الغرباء بسهولة ولكن كرجال الفكر في العصور الوسطى يعيشون منعزلين ويحكون معارفهم الشرقية اللامتناهية جزءا بعد جزء. وفي هذه اللحظة تستطيع أن تدخل وتخرج في منازلهم وهم كذلك في منزلك فالصداقات تدوم إذا لم ينسها أي من الطرفين وإذا ما قامت على أساس من الثقة. وإذا بدا للغربي أن هؤلاء المؤلفين لكتب ضخمة عديدة انهم مرتبطون بالشهرة بجبال من رمال(٤٧) فان هذا هو ليس تقييم مواطنيهم لهم فلهم نفوذ ويعتبر قبولهم جوازا غير مشكوك به في الإسلام يفتح أبوابا في أماكن بعيدة حيث يكون التعلم البسيط مغلقا بالتأمل الذاتي ويعطيك الحرية فيما يعتبره الشرق رفقة طيبة ويصفح عن أخطائك ويغسل غلاظتك والمفتاح الأكيد إلى قلوب هؤلاء النساك هو الاهتمام الذي يبديه عالم الآثار الأوربي في أبنيتهم التراثية. وأنا لا أقول أن الرضا الذي يثيره ذلك هو كليا تاريخي أو فني. هنالك أمل مساعد مفاده أن الإدارة الأفضل لأوقافهم الدينية سوف لن يحافظ على الأبنية من الاندثار وحسب ولكن ليعين الحقوق المالية للأساتذة الذي يجلسون مع تلاميذهم في الصفوف العليا. ولكن هنالك أيضا فرح بان هذه الأضرحة لفن العمارة العربي في القرن الرابع عشر سوف لن يسمح له بالاندثار. وقال حامي المرجانية(٤٨) المحترم ذلك المكان الغني بالكتابات المحفورة على أحجار مقطوعة بصورة جميلة: (الأتراك جعلوا جوامعنا تعاني الاندثار عمدا. ولكن بمساعدة الحكومة العلية لبريطانيا العظمى...) والجامع لم يمسسه أحد بأذى سوى أن نصف الأحجار

المحفورة (المخطوطة) والتي تتوج قوس الإيوان في الساحة قد حملت إلى برلين خلال الحرب. ويجب أن نصر على إعادتها لكي يبقى نموذجا واحدا كاملا للفن العربي في العصور الوسطى في العاصمة الشرقية.(٤٩)

وبغداد في أيدينا أمانة وفرصة لكي تنمو إذا ما أردنا، من واقعها الحالي المتهدم والمتدني بشوارعها الرديئة التي فتح منها الأتراك طريقا عاما يخترق المدينة والغير متأثر بفساد أوربا وصفقات شركة ليفانت (٥٠) وتحويلها إلى نموذج للحضارة العربية الحديثة. كانت توجد فيها دائما مدرسة للمعماريين ماهرة في أساليب البناء والزخرفة فماعدا مقر البعثة البريطانية، وهو بناء فاخر فان جميع الأبنية الحديثة لها طابع محلي متميز. واعظم ميزة هي إن بغداد بعكس القاهرة تقع على النهر الذي يخترقها ويعطي سعة ووقارا لتصميم المدينة.

أن بغداد عاصمة منطقة غنية باهتماماتها العرقية والسياسية والى الشرق على مسيرة يومين بالعربة أو بضعة ساعات بالسيارة تصل إلى العشائر الكردية التي تعطيك طعما مقبولا للفروق عن جيرانها العشائر العربية. ليس هناك أي حدود اجتماعية فاصلة بين الشعبين ولكنهما يكملان أحدهما الآخر اكثر من أن يشابهاهما، أن معابد كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء -وهي المراكز المقدسة للمذهب الشيعي -تجتذب أعداد كبيرة من الفرس والهنود المقيمين في البلد والحجاج بينما يزور القادرية(٥١) في بغداد نفسها السنة في جميع الأرجاء وخصوصا من الحدود الهندية.هنالك حركة في الجو السائد وأولئك الذين يحسنون تقدير العقلية الشرقية سوف لن يأسفوا لكون بغداد تمسكت بشدة بعلاقاتها الآسيوية.

أن خصوبة المنطقة الواضح قد تحدى إلى حد ما حتى سوء الإدارة العثمانية ولكن على ضفاف نهري دجلة وديالى فان الزراعة لا تمتد بعيدا عن الضفاف أما ثروة الفرات-العظيمة تنتظر بطريقة مماثلة نظاما علميا للري فإذا ما تركت الأنهار على هواها تغمر-القنوات الموجودة حاليا بالطمي والغرين وتشق لها منافذ

جديدة وعندما لا تكفي هذه تنغمر مساحات كبيرة بمياه الفيضانات. أن الطرق والأساليب اللامسؤولة للعرب أنفسهم تعتبر أساسا لكثير من هذه المساوئ. فكلما يجد الماء له طريقا جديدا ألا وبدأ المزارع بمعوله للعمل على تدميره، وبتلهفه على التوزيع هذا المجرى السخي فانه يستغل افضل جهوده لكي يعمل على اختفاء القنال. وعلى الفرات فان التغييرات التي جرت على كل من فرعيه -الحلة والهندية- قد تركت الأراضي الزراعية في حالة سيئة. ففي السنوات التي سبقت بناء سدة الهندية من قبل السادة جاكسون- كان نهر الفرات القديم والذي كان يمر بالحلة قد جف تقريبا. والحلة نفسها كانت تعتمد صيفا على مياه الآبار. وفي القسم الأسفل من النهر تلاشت بساتين النخيل وهجرت القرى وانتقل رجال العشائر الشبه مستقرين إلى الهندية يرافق ذلك تفكك اجتماعي من الصعب تصوره. وبعد بناء السدة على نهر الهندية عادت قسم من المياه إلى قنال الحلة وبدا رجال العشائر بالعودة إلى إمكانهم السابقة. ولكن عند اندلاع الحرب غابت الإدارة التركية كليا -وهي غير كفوءة بالأساس- وأدى تكسر السدود إلى تشتت المياه، وتجمعت المياه الباعثة للثروة والتي كان يجب أن تسقى حقول الرز السفلى في بحيرة كبيرة في الصحراء إلى الغرب من بغداد. وكانت النتيجة أن تشتت المزارعون العشائريون، وكل شيخ يأتي ليقدم احترامه للحكام الجدد وبنفس الوقت ليتسلم منهم الهدية التي تقابل زيارته الأولى هذه يطلب نفس الشيء -الماء، اعظم الهدايا، الذي سيمكنه من زراعة محاصيل كثيرة وإرجاع رجاله المتشردين وضمان العيش الأكيد لهم بمساعدة وإسناد الحكومة العظيمة(٥٢) والله تعالى. وفي الحقيقة فان طموحاتهم هذه تتوافق مع رغبات الحكومة العظيمة فيما عدا إنها -أي الحكومة- غير مهتمة جدا بمصالح ابن فلان أو فلان كاهتمامه هو بنفسه ولكنها تقرن معه شركاءه على طول الأنهار فأي نتيجة أخرى يمكن أن تكون أهم للدولة من الاستقرار في الأرض وتوفير العمل السلمي والمثمر الذي سيوقف كافة الميول في التجوال عند العشائر بحيث لا تترك لهم أي وقت فراغ ليبدعوا نزاعاتهم مع

جيرانهم- أو بدافع بسيط (تافه) طالما أن الخلافات بين العشائر كانت تنبع بصورة رئيسية من المنازعات حول الأرض والماء. وفي نفس الوقت سيتحولون إلى عوامل فعالة لتصحيح واحد من أشد الأخطار التي تنبع من حرب كونية وذلك هو النقص العالمي في الغذاء.

العربي هو بالضرورة هو جامع للنقود. وبكل صراحة سيخبرك بأن الجشع هو أقوى دافع لأعماله. ولكن في نفس الوقت هو يصرف النقود. فهو يجب أن يعيش جيداً وأن يرتدي ملابس فاخرة ويثير الضجيج حول فوائد المدينة ليس المادية فقط بل-الفكرية كذلك ويطالب بالفرص التعليمية بنفس الوقت الذي يعبر فيه عن رغبته في امتلاك الملابس الحريرية وعصير التفاح المعلب. ويقوده جشعه إلي محاولة استغلال المزايا الطبيعية لبلاده. ولذا فإن مضخات النفط والآلات الزراعية الحديثة التي تناسب متطلباته ستجد سوقاً جاهزاً لها وأما بيوت الاستثمار التجاري في بغداد وهم في الأغلب يهود ومسيحيين والذي كانوا حتى قبل الحرب قد أسسوا لهم فروعاً في أوربا فستقوم بتوجيه طاقاتها لتجهيز الاحتياجات لمناطق الريف حالما تتوفر فرص نقل البضائع المستوردة. إن ما نرغبه في بغداد هو فرصة مبكرة نجعل بها عجلة التجارة تدور. وليس ثمة سبب للقلق على اقتصادنا في المستقبل بوجود سكان سيرفع من مستوى معيشتهم حالاً وتربة مصادرها الغير متطورة كثيرة جداً لتسد الحاجات العاجلة.

ولتعلم الحكومة العظيمة بأنه لولا الإهمال التركي وهي صفة مستديمة حتى في أيام السلم فإن العراق لم يعاني الكثير من الأضرار المادية بسبب الحرب. فلا يوجد مكان آخر تختفي فيه آثار الحرب بصورة أوسع ولم يكن هنالك أية مؤسسات لكي تدمر ولذا فلا يوجد أي شيء يعوض وعندما جئت صعوداً في دجلة (٥٣) لم يكن قد مضى شهر على المعارك البطولية التي اندلعت حول الكوت ولكني وجدت أن علامات المعاناة قد انمحت وغطت أعشاب سريعة النمو الخنادق وعلى طول ضفاف النهر حيث هرب الجيش التركي بحالة عظيمة من

الفوضى وقواتنا تلاحقه، نصب العرب خيامهم السوداء فـــي مناطقهـــا المعتـــادة والأغنام ترعى الحشائش والجواميس تدفئ أجسامها في المياه الــضحلة. وحتـــى الكوت –تلك المدينة الصغيرة المأساوية في الهزيمة والنصر– والتي كانت تقــف مظللة بين نخيلها المحطم عندما مررنا بها عند الفجر، سيعاد خلال أسابيع بناؤها وإسكانها وإيصالها إلى حياة جديدة وأكثر غنى. وهكذا في كل أرض العراق ندعو أن نتبارك بفأل الكوت [فلا يمكن أن نصلح النواقص التي عانتها البشرية جـــراء الحرب إذا لم نسرع بالأعمار بدءاً من البلاد التي دمرتها الحرب].

المقالة الثانية

ولايات عربية-ولاية(ذات النهرين)الجزيرة(سنجغ زور)(دير الزور ٥٤)

إلى الأعلى من خط العرض الذي تقع عليه مدينة بغداد تتغير أرض العــراق تغيرا جذرياً. حيث نصل إلى حدود الدلتا الرسوبية على بعد حوالي (٦٠) ميل إلى الشمال. أما النهرين فعوضا عن اتباع مجرى متموج في امتداد واسع من الأرض الخصبة الواطئة فانهما يجريان في وديان ضيقة نسبياً وعلى العموم اقل تموجا بين مرتفعات صلبة من الصخور المتكتلة أو حجر الكلس. وتوجد أحزمة من الأراضي الرسوبية في الوديان ولكن على المرتفعات فان الطبقـــة الترابيـــة التـــي تغطـــي الصخور الأساسية رقيقة. ولم تجر في أي زمان زراعة متواصلة بين النهرين أو في الصحراء السورية إلى الغرب من الفرات ولو أنه توجد بين هيت وتدمر آثار لمستعمرات سكانية دائمية يعود تاريخها إلى بداية عصرنا الحالي على شكل مدن مسورة بصورة خشنة مبنية بالحجر كانت تستقي ماءها من آبار عديدة أغلبها الآن قد غطت بالتراب والفضلات لابد أنه كانت توجد زراعة لا بأس بها حول أماكن كهذه كما في وادي حوران الذي يسقي جنوب الصحراء السورية ولكن عدم كفاية مياه الأمطار أو المياه الأرضية لا بد وأن أعاقت الزراعة بشكلها الموسع.

إن حوض نهر دجلة أجدب بصورة واضحة لمسافة (١٥٠) ميلا واكثـــر إلـــى الشمال من سامراء ولكن الزاب الأسفل يجري في منطقة خصبة حيث يبدأ حوض نهر دجلة من مصبه (أي الزاب) شمالا بالاتساع. وفي سنوات الخير كانت ترتفع تلول مدن أشور وكالح القديمة على حقول واسعة لزراعة الحبوب. والمزارعــون هنا هم عشائر نهرية شبه رحل مثل الجبور وهم أناس صغار ليسوا قليلي العـــدد وإنما قليلي الأهمية السياسية والاجتماعية وشمال نينوى (الموصل حديثاً) –تبـــدأ ثروة الدولة الآشورية– فالحشائش المزهرة تلامس سرج حصانك وأنت تختـــرق

التلال الكردية وسلاسل الجبال تشق طريقها في مناطق ضيقة حيث أشجار الحور والجوز والدلب تحمي أشجار الفواكه والأعناب ومحاصيل الحبوب.

أما الفرات فهو اكثر خصوبة من دجلة. وينمو النخيل بكثرة شمالا إلى مدينة عنة على جانبي النهر وفي الجزر الوسيطة التي تدل آثارها على أنها كانت مستعمرات سكانية قديمة جدا. وتقع رقع غنية من أراضي الحبوب إلى الوادي الذي كان يمكن أن يزرع أكثر لولا نهب البدو له والى الجنوب من دير الزور يوجد حزام آخر من الخصوبة الوفيرة وحوضي النهرين الشرقيين الغزيرين (الخابور، وبلخ) وهي أراضي يمكن أن تتطور كثيراً وحيث أن الفرات ينبع من جبال طوروس القريبة جدا من البحر المتوسط الذي كان يمكن أن يصب فيه فأن السهول على كلا جانبيه كانت في وقت ما منابع غلال واسعة كانت أساس ثروة مدن شهيرة مثل الحيثيون (Hittite) عاصمتهم (كركميش، Karchemish) و(هيرابولس، Hierapolis) مقر الآلهة السورية (كارحة Carrhae) والتي تعرف بواسطة حقول (حران Harran) الخربة (وأديسا، Edessa) التي هي اورفة(٥٥) حاليا. وكم انتعشت الآمال بالربح عندما تتصل هذه المناطق الشمالية ببغداد عن طريق السكة الحديد وتأكد هذا من حقيقة انه قبل أربع سنوات عندما كانت السكة الحديد تقترب من الفرات في (كركميش Karchemish) قام الرأسماليين العرب من دمشق والبصرة بشراء اكثر الأراضي في المناطق الواقعة شمال (الجغجغة Jaghjaghah) إلى الشرق من نصيبين وتهنئة أنفسهم بالأرباح التي سيجنوها عندما يستطيعون نقل محاصيلهم من الحبوب بالقطار إلى البحر في الاسكندرونة. إن سقوط الأمطار هنا كافي في السنوات الطيبة لزراعة الحبوب بدون الحاجة إلى الري الاصطناعي وينطبق هذا على المنطقة الخصبة الواقعة شرق دجلة والتي فيها (أربيل) يمكن أن يقال عنها إنها مركز المنطقة والزاب الأسفل حدودها الجنوبية وبين النهرين من بغداد والى الخابور وجبل سنجار يسكن عرب بدو لا يبذرون ولا يحصدون ويشغلون كل منطقة الصحراء بين الفرات وسوريا. إن

تاريخ هذه الاتحادات العشائرية بقدر ما يمكن تجميعه يسيطر عليه عامل كان قد ساد الجزيرة العربية منذ القدم ألا وهو هجرة سكان الهضبة نحو الشمال. وربما كانت أسباب هذه الهجرة معقدة منها التغيير التدريجي للظروف المناخية ومن ضمنه الجفاف وضغط السكان الذين يكبر عددهم على أرض تزداد فقراً وربما أهمها هي الفرص التي يقدمها التوسع نحو الشمال التي يمنحها الضعف أو الإفلاس السياسي للدول الشمالية المجاورة. كانت أول الهجرات كانت هجرت بابل السامية وآشور المستعمرة(٥٦). وأدت هجرة أخرى إلى تثبيت النفوذ العربي في دمشق وحولها وكان الغزو الإسلامي(٥٧) واحدة من هذه الظواهر المتشابهة ولم تبدأ معرفتنا بالمجاميع العشائرية التي لا زالت موجودة إلا مباشرة قبل بداية العصر الإسلامي(٥٨). إن هؤلاء المهاجرين الأوائل لا يمكن تتبعهم بين البدو الحقيقين المعاصرين في سهول وادي الرافدين الوسطى والصحراء السورية تلك المناطق التي أرغموا على التخلي عنها لجحافل أقوى جاءت من الجنوب. أن القبائل القديمة توجد على جوانب منطقة الهجرة حيث نجدهم نصف مستقرين ومرغمين على حراثة الأرض لحاجتهم إلى المساحات الواسعة الضرورية للحياة البدوية. وهكذا كانت عشائر قيس والموالي سكنة القرى الواقعة على الحدود البعيدة لوادي الرافدين. بينما عشيرة طي التي كانت شهرتها عظيمة في بداية العصور الوسطى إلى الحد الذي أصبح اسمها يمثل كافة الأمة العربية البدوية، تشارك العشائر الكردية المراعي الشمالية الشرقية البعيدة. وغالباً ما كانت هذه المجاميع تنشطر وتنفصل عن بعضها بفعل اتحادات عشائرية متطفلة. ويعرف عن آل زبيد إحدى أقوى عشائر شمال العراق أنهم أيضاً قطاع طرق(٥٩) معروفين في الصحراء جنوب شرق دمشق.

لقد حفظ رجال العشائر بعض الذكريات عن أصلهم وتاريخهم تعتبر الخطوط العامة لها صحيحة عادة طالما يمكن البرهنة على صحتها. هناك على سبيل المثال مجتمع قديم جداً يطلق عليه اسم بني تميم معروفين بتقاليدهم الجاهلية ومن الثابت

انهم احتلوا في القرن الخامس الميلادي كل منطقة وسط الجزيرة العربية. أن أغلب سكان واحات نجد اليوم هم من بني تميم ولكن حدثت هجرة مهمة إلى وادي الرافدين قبيل العصر الإسلامي وانتشرت أقسام من العشيرة في العراق وفي السهول إلى الجنوب من التلول الفارسية. وجاء أحد شيوخ العراق ليقدم الاحترام لنا بعد احتلال بغداد بقليل وخلال الحديث سألته فيما إذا كان يقيم علاقات مع أقربائه البعيدين في نجد فأجاب: (قبل وقت ليس بالبعيد جاء رجل من بني تميم في نجد يروم البحث عن أقاربه. فذهب إلى بني تميم في الحويزة وإلى بني تميم في العظيم وإلى شيوخ بني تميم على دجلة فلم يستطيع إقناع نفسه بأن هؤلاء هم من يبحث عنهم، وأخيراً جاء إلينا في عقرقوف وهي مكان إلى الغرب من بغداد وأكرمناه فسألناه: ما هو وشمكم الذي تسموا به جمالكم؟) أجبناه: (أن وشمنا القضيب والدائرة). عند ذلك فرح وقال (هذا وشمي أيضاً فأنتم أقربائي). (ولكنا لم نكن قد التقينا لعدة أجيال وتعجب عندما علم أننا شيعة حيث أنهم جميعاً وهابيين في نجد. (هذه هي الدنيا) قال الشيخ هذا وهو مؤمن بحكمة أن القدر تقرره الظروف.

إن البدو الذين يتجولون في البراري الشمالية لم يبدءوا بالظهور إلا في منتصف القرن السابع عشر عندما نزح قسم كبير من شمر من شمال وسط الجزيرة العربية إلى الصحراء السورية وهم يسوقون سكان يدفعون الأولين أمامهم. وجاء في أعقابهم عشيرة العنزة وأرغموا شمر إلى عبور الفرات والاستيطان في شمال بلاد الرافدين وقاموا باحتلال الصحراء السورية كلها إلى حلب في الشمال. وقاموا أيضاً بالعبور إلى أعالي منطقة الفرات واستأثروا بالمراعي بين نهري الخابور وبلخ. أن هذين الاتحادين العشائريين يحددون السياسة العشائرية للنهرين. والعداء العام بينهما هو المبدأ الذي يقود تصرفاتهم أما حصيلة علاقتهم مع بعضهم فهي الإغارة والإغارة المضادة عبر الفرات أو الخابور ولم ينجح الأتراك مطلقاً في كبح جماحهم. وكانت تحدث أحياناً انتفاضات

مشابهة لغزواتهم أكثر مما هي مطالبة بكيان مستقل تكبح بين وقت وآخر شيخ ثائر بين شيوخهم. ولجأ الموظفون العثمانيون بكثرة إلى افتعال أحداث خيانية أو إعطاء وعود زائفة ولكن العشائر كانت قد توصلت إلى الخروج عن الطاعة الدائمة وكانوا وهم يشعرون بأمان في صحاريهم يسخرون من الحكم التركي. وككل البدو وكانوا يعتمدون على الأرض كمورد لغذائهم وعلى المدن في تحصيل ملابسهم وأدواتهم إضافة إلى الكماليات الضرورية كالقهوة والتبغ. ولذا فإن أي سلطة حازمة وقانونية سوف لن تجد صعوبة في السيطرة عليهم(٦٠). وإذا ما ترك البدوي الجائع والخامل على سجيته وهو شخصية غريبة من دون شك وتركة اجتماعية رومانسية (عاطفية) فأنه سيكون عائقاً للمدينة. أنه سلاّب يجب أن تشتري نشاطاته اللاقانونية طالما لم يكن هنالك قوة للحد منها. أن مصالحه الخاصة تتناقض مع مصالح المجتمع، فهو لا يريد أن يرى المحراث قد غزا الأرض التي كان فيها العشب كافياً لأغنامه وجماله ولا الطرق التي كان يكمّن فيها للتاجر أو قوافل البغال ويخضع المسافر للفدية قد تحولت إلى طرق تجارة ومواصلات آمنة وتحت حراسة جيدة. فالسلم لا يناسبه وليس لديه أي نية على وضع حد للمنازعات الدموية والتي تمثل القيام بواجبات عائلية رغم الحماس الذي تقدمه له. ولكن هذه الميول بالرغم من عمق جذورها غير مستترة، أن المزارعين من العشائر على طول النهرين والتي كانت بدوية قبل مائتي سنة هم الآن قرويون خاضعون لتنظيم عشائري وأدرك البعض من كبار شيوخ البدو الفوائد الثابتة للأملاك الخاصة وبالرغم من أنهم لا زالوا يتباهون بأنهم لا زالوا أولاد أحرار للبراري إلا أنهم استقروا لنتيجة امتلاكهم العقارات ومزارع المناطق المستقرة. وهكذا فأن فهد ابن هذال شيخ شيوخ العنزة الشرقيين –وهو ذو عقل وحكمة إضافة إلى أصله الرفيع والتي أكسبته مجتمعة احترام الصحراء جميعها من الفرات وإلى دمشق– يملك أراضي على قناة الحسينية غرب كربلاء، ليس هناك شك بأن قضية الاستقرار كان بالإمكان الإسراع بها لو اتخذت سياسة مغايرة نحو

العشائر. أن صفة الجشع –وهي صفة قومية– تؤرجح البدوي بقدر ما تؤثر على أخيه في حقول الرز في العراق، ولكن سوء الإدارة العثمانية لم تقدم إغراء جيداً على جمع النقود في الوقت الذي ممالا شك فيه انك حالما تستقر دائماً في مكان يصل إليه الموظفون فانك ستكون معرضاً للسلب من قبلهم. إضافة إلى ذلك فان الخوف من الخدمة العسكرية كان بحد ذاته رادعاً كافياً (لنفرته).

ولا يوجد آثار لسكان مستقرين في الأرض الواقعة بين النهرين إلى أن تصل الخابور حيث وجد (لايرد Layard)(٦١) بقايا مدن أشورية. والى الشرق فان الآثار العظيمة لمدينة الحضر(٦٢) البارثية التي حوصرت ثلاث مرات من قبل الجيوش الرومانية بدون جدوى ترتفع فوق مستوى العشب. وهي على حالها المندثر لا زالت تعتبر عاصمة للصحراء لان كبار الشيوخ من شمر يعتبروها ملكهم ويضربوا خيامهم في الربيع حول قصورها. وعندما خيمت هناك في عام ١٩١١ كان يحتلها لواء عسكري تركي كان قد أرسله هناك ناظم باشا والى بغداد لجباية الضرائب المستحقة منذ زمن طويل على الأغنام والجمال وكانت تلك حسب علمي آخر مرة فرضت فيها الضرائب على العشائر. أما أبار الحضر فهي الآن وربما كانت دائما مالحة. وعلى بعد حوالي ميل واحد عن المدينة تجري مياه الثرثار المرة وهو جدول ينبع من جبل سنجار ويجري في خط موازي تقريباً لدجلة إلى أن يصب في الاهوار إلى الشمال من عقرقوف. وقد ذكر عنه في سجل مسماري يعود إلى أحد اقدم ملوك الدول الآشورية الذي كان قد قام بحملة كبيرة من أشور بقصد نهب بابل ولكنه عندما وجد أنها اكبر من أن ينتصر عليها اقنع نفسه برحلة عودة يتخللها السلب على طول الفرات والخابور. وكان الثرثار يوم ذاك بنفس الدرجة من الملوحة كما هو اليوم –أي بعبارة أخري– يكاد أن يكون غير صالح للشرب لأنه يذكر في سجله هذا كيف أن جيشه جاء إلى الوادي واخذ حاجته من الماء طوال الليل أما الملك فقد جلب له ماء عذب من دجلة. وإذا سرت مسافة يومين إلى الشمال من الحضر فانك تصل إلى جبل سنجار حيث تجد نفسك

لأول مرة على احتكاك مع جنس غير عربي (٦٣). إن تلال سنجار هي حصن اليزيدية وهم أناس بدائيون يعتبرون مصدر رعب للعشائر العربية حتى الفرات. ولا يتفق العلماء بخصوص أصلهم وهم يتكلمون الكردية –وتدعى عائلتهم الحاكمة التي تسكن شمال شرق الموصل حيث يقع معبدهم الرئيسي أنهم ينحدرون من عشيرة طي العربية. وبعض رجالهم يدعون أنهم جنس أرمني بالرغم من عدم امتلاكهم الخواص الجسمانية للأرمن. وبعض آخر يدعى أنهم يهود والله أعلم. ومعبد الشيخ عادي الواقع في الجبال الواقعة فوق الموصل هو بناية تشبه الجامع تعرض للدمار في عدة مناسبات. تحيط بابه نقوش لحية سوداء ونقوش أخرى غريبة ولكن رمز عقيدتهم هو الطاووس المقدس الذي يرمز إلى الشيطان نفسه. إن تسمية (عبدة الشيطان) التي يعرفون بها لدينا له مدلول جداً متشائم فهم لا يعبدون الشيطان وإنما مجرد يسترحمون قوة الشر. ومهما تكن عقيدتهم فان المسيحيين في ذمتهم. ومنذ اندلاع الحرب ضد اليزيديون نير الأتراك وهم يحمون الآن في تلالهم الصخرية بضعة آلاف من النساء والأطفال الأرمن الذين أنقذوهم من أيدي الأتراك في الصحارى إلي الجنوب من نصيبين. وبالنسبة لأولئك الذين يعرفون تاريخ اليزيدية فان هنالك نبرة متميزة في تصرفهم الإنساني هذا فكونهم مثل جميع المذاهب الصغيرة التي اضطرت لحماية طقوسها عن طريق إحاطتهم بالسرية وتحملت بهذا اتهامات بالشر الخفي فان اليزيديين عانوا كثيرا وطويلا من القتل على أيدي جيرانهم المسلمين والمسيحيين كذلك ولمرات لا تحصى ذبح (عبدة الشيطان) كالأغنام في قراهم الجبلية أو طردوا إلى السهول ليجدوا الموت أو ما هو أسوأ بانتظارهم. ولذا فان تجربتهم الخاصة مع الوحشية أو القسوة العثمانية هي التي جعلتهم يقومون بالعمل الكريم في تحرير النساء الأرمنيات. كما انهم ليسوا الوحيدين الذين يمثلون نموذجاً للمغلوبين الذين ينقذون مغلوبين. فان آل قزل باش(٦٤) في وسط الأناضول قد هبوا لمساعدة الأرمن بصورة مشابهة ويحمون عدد منهم بأمان في وديانهم التي لا يمكن اختراقها.

إن الشعور بالرثاء والغضب الذي أثاره معاناة العرق الأرمني كان لـــه أثـــره. وتأثرت جميع المذاهب بمنظر قسوة كهذه لا يمكن تصورها والمسلمون يبـــارون المسيحيين في إظهار تعابير الكراهية لمن آذى الأرمن ويجب أن لا ننسى أنه لـــم يحدث أي قتل للأرمن في الولايات العربية وفي الحقيقة يوجد فقـــط القليـــل أو لا يوجد تعصب بين المسلمين العرب قد تحدث أحياناً حالات فردية لمشاعر عنيفـــة تماماً كما يمكن أن تتحرك بعض العشائر المتوحشة بصخرة الحرب المقدسة ولكن لا توجد أي مدينة أو مقاطعة عربية لا يعيش فيها المسلمون والمسيحيون في اتحاد إذا لم يكن في صداقة، فالمسلم هو الحاكم ويطالب بامتيازه في ذلك ولكن يحدد هذه ضمن حدود معقولة. ففي بغداد ودمشق لم يحدث أن تهدد الأرمن وبالرغم من أن الأتراك في دمشق قاموا ببيع النساء الأرمنيات علناً في سوق النخاسة ولكن فـــي بغداد فان الفتيات القليلات التي وصلن إليها من الشمال أخذن إلى داخـــل بيـــوت المسلمين وعوملوا بعطف إلى أن وصلنا نحن وأصبحنا مسؤولين عن إعاشتهن.

وباختصار فهكذا هي أرض النهرين –وهي بلاد عربية ما عدا العشائر الكردية على حدودها الشرقية– أرض صالحة للمراعي فيها أحزمة غنية من الأراضـــي الصالحة للزراعة على طول الجداول والمناطق الزراعية الواسعة فـــي الـــشمال إضافة إلى سفوح التلال الكردية في الشرق. وفي الأساس فان بلاد الرافدين هـــي موطن الراعي ورجل المحراث وبالمقارنة فان ثروتها المعدنية ذات أهمية قليلـــة. إن آبار القير في هيت المشهورة منذ أيام البابليين مع ينابيع الكبريت المرافقة لها، وآبار النفط ذو النوعية الرديئة في القيارة جنوب الموصـــل –المتـــصل بالتأكيـــد ببحيرة النفط تحت الأرض والتي لا تنضب في جنوب غرب بلاد فارس– ومقالع الأحجار الجيدة على الفرات جنوب عنه، وقليل من الفحم في جبل حمرين والملح في وادي الثرثار، تكون جميع هـــذه الكميـــة الكليـــة تقريبـــاً مجمـــل للمعـــادن المستغلة،(٦٥) فليس من الضروري التغلغل تحت التربة لنجد الثروة فان عمق آلة الحرث كافية.

المقالة الثالثة

ولايات عربية – ولاية سوريا

يجب أن أكتب عن سوريا كما أعرفها بالرغم من أني أخشى أن تكون ذكرياتي تحمل شبهاً قليلاً من سوريا اليوم. وعندما يطرد الأتراك من دمشق وحلب سيكون بمقدورنا أن نعلم بالتفصيل نتائج الحكم المتوحش لجمال باشا ولكننا الآن قد سمعنا ما يكفي لكي نعرف أن سوريا الآن هي الظل المتهرئ لما كانت عليه. ولا أستطيع أن أفكر بهذا الخراب بدون أن يمتلكني غضب يغلي ورغبة في الانتقام من الأتراك والألمان نجمت في أثارتها القليل من أعمالهم الفظيعة. فأنا أعرف البلاد السورية الجميلة من جنوبها إلى شمالها، من الحدود الصحراوية للجزيرة العربية والى جبال طوروس وتلقيت على أيدي سكانها [مسلمين ويهود ومسيحيين ودروز (٦٦) ونصيريين (٦٧)] على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم، ترحب بالضيوف بالاستضافة والخدمة والعطف. وكان لي مع العديد منهم علاقة أكثر من تعارف عابر. فتمت بيننا الصداقة التي كانت تتجدد من سنة إلى أخرى. ولذا فإن العودة إلي دمشق أو حلب هي عودة إلى حلقة مألوفة لي. أن مصير أولئك الذين يحملون أسماء معروفة والتي لا يمكن أن تختفي بدون ملاحظتها قد نشر عنهم في الصحف التركية، ولم يبق حياً منهم ولا واحد من كل عشرين. فقد أصدرت محاكم جمال الدموية الحكم بالموت عليهم في لبنان أو تم نفيهم مع عوائلهم إلى مناطق غير محددة في آسيا الصغرى حيث من غير المحتمل أن يعودوا منها مطلقاً. وهرب البعض منهم إلى مصر أو عبروا الصحراء إلى البصرة طلباً لحمايتنا. ونستطيع أن نؤكّد نجاة هذا العدد القليل فقط من غضب(٦٨) الأتراك. أما بالنسبة لأولئك الأقل موقعاً وليس الأقل احتراماً، أولئك المرافقين لي في سفرات عديدة والخدم وأصحاب البغال وسواق الجمال فلا بد أنهم شاركوا السكان الفلاحين

مصيرهم المشترك. أدخل شبابهم عنوة في الجيش التركي وسيق الكبار منهم إلى معسكرات العمل ليموتوا من العمل الشاق والجوع تحت رحمة أسياد العمل العثمانيين. أما نسائهم. الزوجات والأمهات اللواتي قدمن ما بوسعهن لنا عندما عدنا ونحن ملطخين بآثار السفر فقد تحملن مصيراً ليس أقل مأسوية.

ليس من الصعب أن نجد سبب العنف الشديد لجمعية الاتحاد والترقي نحو سوريا ولا هي –من وجهة نظر التركية –الألمانية– قسوة لا يمكن تبريرها. لقد كانت سوريا عقل المدينة العربية الحديثة ومولد الحركة العربية والرابط بين المقاطعات الشرقية والغربية القصوى –بلاد الرافدين وشمال أفريقيا–. ووضعها وموقعها الجغرافي قريبة الاحتكاك بالفكر السياسي الأوربي وأدى التدفق السنوي للسواح إلى الأراضي المقدسة ودمشق بالأوربيين أن يهتموا بتعاطف بهذا البلد وهؤلاء الناس ولكون لبنان كانت تُحكَم تحت ضمان دولي(٦٩) أشرك هذا الدول الكبرى بمسؤوليات لم يكونوا يستطيعوا التنصل عنها. ولذا فأن كانت تواجه شروطاً كريهة بشكل غريب فقد كانت الجماعة التي طالبت باللامركزية على أساس عرقي أقوى في سوريا من أي مكان آخر وكان احتجاج أوربا على الأكثر سيرافقه رد فعل على مستوى عالي في الحكومة العثمانية. وقطع اندلاع الحرب عقدة الخيط. فأن ألمانيا لن تثير اعتراضها على قتل العرب أكثر من اعتراضها على مذبحة الأرمن. لقد حلت الفرصة الذهبية لكبح العرب بدون أي إعاقة من تدخل أجنبي واستدار الأتراك والألمان ليشقوا طريقهم في حياة الأمة. ولم يكن العرب مستعدين لإبداء أية مقاومة. وكان التفكك الموروث قاتلاً في مجتمع لم ينجح أبداً في محو صفاته العشائرية عندما أصبح مضاداً لأي وحدة وطنية. وفي أحسن الأحوال لم يكن هنالك أكثر مما يمكن أن يوصف بالوطنية البلدية وهي وحدة لم تمتد أبعد من حدود المدينة. والتنظيم الشامل كان غير موجود واستسلمت البلاد بدون أن توجه أي ضربة.

ويجب أن نقر أن العناصر المكونة للسكان في سوريا مختلفة جدا إذا لم نقل أنها مخالفة الأصول. في الغرب من الأردن كانت مصادمات التعصب الديني. من الشرق من الأردن منع نفوذ السلطة العشائرية المتفكك تطور أي شعور وطني حقيقي. ومن دمشق والى الشمال يوجد تجانس أعظم ولكن حتى هناك فأن كل مذهب ديني سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين من جميع الطوائف أو النصيريين أو الإسماعيلية يدور حول محوره ويعتبر ارتباطه بالنظام الذي هو جزء منه شيئاً غير مهم.

وتظهر بين القوى التي تعمل على نزع الروح الوطنية حقيقة أن جزء من سوريا بالرغم من كونه كباقي الأجزاء تسكن غالبية عربية فهو يعتبر من قبل شعب غير عربي على أنه ميراثه النظري(٧٠)، وفي تقدير غير دقيق قد يمثل اليهود ربع سكان الولاية والمسيحيين خمسها والبقية فهم مسلمون عرب. وكانت الهجرة اليهودية ترعى بشكل مصطنع بحسنات ومساعدات مالية يقدمها أصحاب الملايين من اليهود في أوربا. وثبتت المستعمرات الجديدة أسسها وتقوم بتدبير لوازمها ذاتياً. وبالتأكيد يوجد أمل محترم بأن تؤسس يوماً ما دولة يهودية مستقلة في فلسطين بالرغم من أنه يشك أن يكون لدى اليهود المحليين أي رغبة جادة في رؤية ذلك يتحقق إلا كوسيلة للهرب من الاضطهاد التركي. وهذا الشعور ينشط أكثر في صدور أولئك الذين يعيشون بعيداً عن تلال فلسطين الصخرية والذين ليس لديهم نية تغيير مسكنهم. وذكر لنا اللورد كروم بفرح حديثاً كان قد أجراه حول الموضوع مع واحد من أشهر اليهود الإنكليز الذي قال:(إذا ما تأسست مملكة يهودية في أورشليم (تعني القدس) فسوف لن أضيع أي وقت بتقديم طلب تعييني بمنصب سفير لها في لندن). وإضافة إلى وجود مشاعر كهذه فأن هناك نقطتين تخرج فكرة إنشاء فلسطين يهودية مستقلة من نطاق السياسة العملية. الأولى هي أن المنطقة كما نعرفها ليست يهودية ولا يقبل أي مسلم أو عربي سلطة يهودية فيها. والثاني أن العاصمة أورشليم (القدس) هي مدينة مقدسة بشكل متساوي

للأديان الثلاثة. اليهودية والمسيحية والإسلام ولا يمكن مطلقاً –إذا كان بالإمكان تجنبها– أن توضع تحت الحكم الكلي لأي واحدة من الجماعات المحلية مهما يكن شكل ضمان حقوق الجماعتين الأخريين.

وسواء أمكن أم لم يمكن تحويلها إلى موطن مناسب لأصحاب الملايين فأن فلسطين بالنسبة لمن يحب الأشياء البسيطة لها جاذبية متميزة. صخور حجر الكلس الرمادية وبساتين الزيتون الخضراء الرمادية وحقول الأعناب المرتفعة والتي لا زالت تسكنها الثعالب الصغيرة وفي الوديان العميقة الشقوق الصخرية الممتلئة تماماً بأوراد السوسن وشقائق النعمان وبخور مريم وخف السيدة وغيرها. وتزدهر على ساحل البحر بساتين البرتقال التي أعطت ليافا شهرتها أما في الداخل فأن قفار جوديا الموحشة تهبط فجأة إلى وادي الأردن بحقول الحبوب وبيوت الحرارة العالية فيه أما ثروة المناطق الجبلية التي تمثل القسم الأعظم من فلسطين فهي الأعناب والزيتون والقمح ولا غيرها.

وعبر الأردن تقع أفضل مناطق سوريا في نظري عيدوم وموآب في الجنوب (وفي غور الأردن الجنوبي) وجلياد (الجليل) في الشمال(٧١). وتقترب الصحراء كثيراً من المنحدرات الشديدة التي تكون ما يشبه الكأس للبحر الميت ولكنها لا يوجد لها مثيل في أي مكان آخر فهي مراعي يهجرها لأشهر قليلة في السنة فقط خلال فصل الصيف رعاة الجمال من البدو وجماعات العشائر الشبه مستقرة. أما المزارعين الأشداء، والعديد منهم مسيحيون –أصدق أنواع المسيحيين في سوريا باستثناء مسيحو حلب– فقد دفعوا حقول القمح العائدة لهم إلى خطوط أراضي الحشيش إلى أقصى حدود الزراعة المثمرة وحتى آخر حصون المستعمرات القديمة ولكن وراء خطوط المحراث وبقايا القرى في العصر الجاهلي وربما كان أكثرها يعود إلى زمن ما قبل المسيح فهي آثار ضخمة لحزام من القلاع الرومانية حيث يستخدم رعاة البدو (تراجان، سبتيميوس، سيغيموس، وديوكليثيان وبيوت الصيد للخلفاء الأمويين في دمشق ملاجئ لهم. ويأتي مسيحيو هذه المنطقة من

مأدبا شمال البحر الميت ومن (سلط) وهي مدينة صغيرة تقع بين بساتين الفواكه على الحافة الجنوبية من الجليل- ويفخر سكانها بأن أجدادهم أعتنقوا الدين من شفاه مؤسسة (الرسول عيسى) واستطاعوا البقاء بالرغم من اغتصاب الدولة لأموالهم من جهة وارتشاء العشائر من جهة أخرى فهم مضطرون لفتح بيوتهم في مزارع على حافة الصحراء للعشائر ولا تمر ليلة إلا وغرفة الضيوف ممتلئة بعرب رثي الثياب واصطبلاتهم مليئة ببغال هؤلاء الأعراب في الوقت الذي يجب أن تقدم وليمة كبيرة للرجل وبغله. أن هؤلاء الضيوف الثقلاء يأكلون أغلب أرباح البساتين. ولكن إذا رفضت استضافتهم فأنهم يجعلون أي نوع للعمل مستحيلا بالغارات والغزوات التي يقومون بها والتي لا تستطيع الحكومة ولا تريد أن تسيطر عليها وتوقفها.

وتوجد في قلب كيلياد (الجليل) مستعمرة شركسية كبيرة مقرها الرئيسي في رابوت عامون القديمة وهي مدينة مثل جارتها جرش لابد وأنها كانت مقراً فخماً للمدينة في بداية عصرنا. فيها بقايا مسرح ضخم متسلط فوق دوائر الحكومة الحديثة. وحوائط طوقيه لإحدى آلهة المياه والطوفان تزخرف ضفتي جدول وآخر هذه الجماليات بناية أموية جميلة تتوج قمة التل. وقام الشركسيون البخلاء بزراعة الأشجار وإقامة البساتين على سفح الوادي والجداول تدير دواليبهم، وعرباتهم ذات العجلتين تزقزق على أفضل طرق الأردن. وهم غير محبوبين من جيرانهم ولكن يمكن القول في الدفاع عنهم أن كفاح يد بيد من أجل البقاء لا تميل لأن تلطف الخصائص القومية.إلي الشرق من كيلياد (الجليل) تقع مدينة حوران البركانية التي يسكنها الدروز المهاجرين من لبنان وهم عرق من رجال أقوياء ونساء جميلات يمارسون مذهباً غريباً لا هو بالمسيحي ولا بالمسلم ولكن على الأغلب يتبعون تقاليد أقدم من تعاليم أسطورية لسلطان(٧٢) مجنون في مصر في القرن الحادي عشر والتي يفترض أنها كانت أصل مذهبهم. أن الدروز في حوران أناس قساة ودهاة وشجعان تخشاهم العشائر ويخشاهم الموظفون الأتراك. ونجحوا في الحفاظ

على نوع من الاستقلال عن الحكم العثماني بالرغم من وصول حملات عسكرية بين وقت وآخر كانت تنتهي بمذابح شاملة منعت رجال الجبال من توسيع حدودهم. وعلى مسيرة يومين على ظهور الحيوانات من جبل حوران تصل إلى دمشق، منبض الحياة السياسية العربية الحديثة عاصمة تليق بالمدينة العربية الحديثة وبالصحراء القديمة. تلجأ إليها عشيرة العنزة القوية، أولئك البدو الذين يربطون بلاد الرافدين بسوريا، يلجئون إليها بنفس الحرية ألتي يزورها فيه تاجر من بيروت أو الحاج في طريقه إلى مكة أو السائح(٧٣). وكانت قبل الحرب كما كانت عليه في القرن السابع م عندما كان خلفاء أمية يعقدون مجالسهم هناك باعتبارها المدينة الأولى للعرب بالرغم من أن ثروة أرض الرافدين الطبيعية العظيمة قد ترفع بغداد مرة أخرى كما ارتفعت في العصور الوسطى إلى موقع أكبر من موقع حتى دمشق. أكتب عنها الآن كما عرفتها خلال (١٥) سنة الماضية مدينة لطيفة ومضيافة غنية بفواكهها وأزهارها ومياهها الجارية تشبه الجنة على الأرض كما كان سكانها يسموها.

إن أعظم جميع المزايا الطبيعية التي تتمتع بها هي قربها من الجبال فلا تبعد ثلوج جبل حرمون أكثر من مسيرة يوم واحد والقرى السورية المقابلة للبنان تعتبر ملاجئ صيفية ليست أقل جمالاً من قرى لبنان نفسها وأكثر إنعزالا عنها يؤمها نوعاً ما موظفي شركة الشرق في بيروت والإسكندرية. ولكن للبنان أيضاً سحرة -قراه المارونية(٧٤) الجاثمة في منتصف الطريق بين البحر والسماء- بساتين الأعناب فيها أو الغابات المنحدرة وفيها الجداول تنبع من بين الصخور والتي أشهرها عين عفكة والتي لا تزال ملونة بالأحمر بدم (أودنيس).

من الصعب الآن تذكر هدوء وجمال ذلك الجبل وهو ينحدر تدريجاً نحو البحر المتوسط الأزرق اللون. وقد قاسى هذا الجبل على أيدي جمال باشا أكثر من أي جزء آخر في سوريا وأشجار الزيتون والفواكه قطعت لتزويد السكك الحديدية بالوقود. والفلاحون قطعت عنهم جميع مصادر المؤمن بقانون جائر فماتوا من

الجوع أو ذهبوا إلى بيروت وهم يعانون من المجاعة لكي يموتوا هناك وكثيرة هي القصص التي تحكي عن أطفال باعهم والديهم وزوجات باعهن أزواجهن لقاء كيس من الطحين.

إن كون هذا النقص الفظيع في الغذاء يجب أن يكون سببه جزئياً إجراءات فعالة اتخذتها السلطات التركية –الألمانية لتجويع الشعب العربي ويصبح هذا أكثر وضوحاً عندما يتجه المرء بذاكرته شمالاً. إن وادي أورونيتس (وادي نهر العاصي) هو عبارة عن حقل واسع للحنطة فإذا أضيفت إليه السهول التي تزرع فيها الحنطة إلى الشرق من حلب فيمكن إنتاج غذاء يكفي لتجهيز عدة جيوش ومع هذا تترك السكان في بحبوحة إذا ما تم توزيع الحصاد بشكل عادل. وتعتبر مدينتي حمص وحماة عاصمتان لهذه المنطقة وكلتاهما مدينتان عظيمتان في قدمهما وهناك كذلك مكان أقدم هو قادش الحيثية في وادي العاصي نراها باقية على شكل تل ضخم تحتل قمته بعض الأكواخ العربية المطلة على بحيرة قطينة وكباقي المدن السورية فان حمص وحماة تملكان لونهما وخصائصهما الغريبة. ولكنهما تشتركان في كونهما في وضع جيد تظهر عليهما سمة الغنى الذي كان يسود في سوريا. ومثل دمشق كانا على اتصال وثيق بالعشائر العربية وخصوصا العنزة الشمالية الذين يسوقون مواشيهم في الحقول بعد حصادها في الصيف ترافقها بعض المقلقات الصغيرة تحدث عندما تغزو الصحراء الأراضي المأهولة سنوياً وقد اعتاد ابن المدينة السوري عليهم ويكاد لا يلاحظهم إلا بإيماءة من كتفه أو ملاحظة عابرة على أن البدو متوحشين. وبالرغم من شدة ظهور التحديد بين رجل الصحراء بقميصه الرث وعباءته السوداء تنبعث منه رائحة الجمل ونار الخيام وشعره متدلي على شكل ضفائر على كتفيه وبين مالك الأرض المتأثر بأوربا– ولنقل في حماة– فان الخاصية المدهشة حقاً هي سهولة تخطي ذلك. ففي خلال جيل واحد يمكن للبدو أن يتحول إلى مواطن متكامل. وأنا أعرف رجلاً ولد في الخيام لعشيرة صغيرة من الصعاليك التي كانت تعيش بشكل قلق غير ثابت

بأسلوب يعتمد أساساً على قطع الطرق في مناطق جنوب دمشق. كان والده من الشيوخ له نفوذ كبير بين اللصوص يملك مواشي وأراضي ولكونه ذو نظر بعيد كان يرغب أن يرى أولاده يعلموا القراءة والكتابة وأستقدم مدرساً مسيحياً لهذه الغاية والذي كان يعلم الأولاد في الخيمة المجاورة.وانتهت هذه الدروس نهاية سريعة بسبب غارة قامت بها عشيرة مجاورة جعلت المعلم المسكين يهرب بسرعة ويرفض العودة. وصادف أن وجد الشيخ بعد سنة أو سنتين في دمشق مع أكبر أولاده وكان ذلك في الوقت الذي أنشأ فيه السلطان عبد الحميد مدرسة لأولاد الشيوخ في القسطنطينية بهدف الإمساك بهم وهم يافعين وتحولهم إلى عثمانيين غيورين(٧٥). وتم استدعاء ستة أولاد من سوريا واضطر شيخ السلط إلى التبرع بأحد أولاده فوافق، وتوجه صديقي إلى القسطنطينية فقاطعت حكايته سائلاً:(ألم تندهش عندما رأيت المدينة؟) فأجاب (اندهش؟ أنا ذهلت عندما رأيت دمشق) وتابع تعليمه مستفيداً من ذلك كثيراً ولكن دون التقرب إلى الهدف الأصلي الذي كان يرمي إليه سيده السلطان. ولم يتحول أبناء الشيوخ إلى عثمانيين بالرغم من كل المحاولات التي يمكن تصورها التي جرت لكي يروا مجد الأتراك وينسوا أصلهم ولغتهم. وعلى العكس أصبحوا أكثر عروبة من قبل وحصلوا على تفهم أفضل – باعتبارهم أولاد من صحاري مختلفة تعرفوا على بعضهم البعض–لما يعنيه أن يكون المرء عربيا. وكان لهذا التعارف اثر جيد على صديقي عندما جاء اليوم الذي وجد نفسه فيه مضطراً للهرب إنقاذا لحياته وعبور الصحراء العراقية كلها من الشمال إلى الجنوب ليجد الطمأنينة معنا في البصرة. ففي كل اتحاد عشائري مهم مر به وجد زميلا من زملاء الدراسة ساعده في طريقه. وبعد إصغائي لهذه القصة البديعة سألته (هل رجعت إلى خيام السلط؟) فأجاب (رجعت ولكنهم يعتبروني غريبا وأنا انظر إليهم على انهم حفنة من اللصوص(٧٦).

والى الشمال من الدن السورية الكبرى الأربعة (٧٧) –لأني لا أعتبر بيروت ولا أورشليم (القدس) المقدسة متعددة المذاهب كمدن سورية حقيقية(٧٨) –تقع

مدينة حلب على حدود الشعوب الناطقة بالتركية أن موقعها وعلاقتهـا الطويلـة والوثيقة بالعالم الخارجي الذي تمتعت به كمركز تجاري شهير أعطـى صـبغة غربية لعقلية سكانها، استخفاف ولد تألفهم مع العالم أو على الأقل العالم الـشرقي، وهو نوع من اللامبالاة ممتزج مع حيوية فردية كبيرة ومحبة بهيجة لكل النـاس وأنا لا أستطيع أن أتصور أي إصلاح ديني أو اجتماعي مهم نبع فـي حلـب ولا يمكن للمجتمع الحلبي أن ينجر بعيدا بحماس في غير مكانه. فمثلا قوبلت المساعي لإجراء المذابح بدهشة مؤدبة حتى عندما اعدم الأرمن في سنة ١٩١١ في قراهم على بعد مسيرة أقل من يوم باتجاه الغرب.ولكي أنهي كلامي دعوني أقدم احـدث وصف لحلب استلمته مؤخرا من أحد اللاجئين لأنه يعطي وصفا موجزاً لـسوريا في عهد جمال:

(لا تستطيعي المرور عبر المدينة بدون انقباض للقلب ففي كل بيت نحيب تملأ أصواته جميع الشوارع(٧٩)).

المقالة الرابعة

ولايات تركية ـــ الجبال الكردية(٨٠)

إن الولايات العربية بالرغم من أنها تعرض تنوعاً في العادات والعقائد ليست فقط متجانسة في العرق ولكنها ربما تميل إذا ما سنح لها أن تأخذ طريقها الطبيعي – إلى وحدة هدف ومصالح أعظم مما حصلت عليه لحد الآن. فمن البحر المتوسط وعلى مدى مسيرة يومين عن الحدود الفارسية هنالك لغة واحدة يتكلم بها النــاس. ولو اعتادت الطوائف المسيحية على اعتبار أنفسهم مسيحيين أكثر مما هم عــرب يجب الاعتراف بأنه لم يكن هنالك فائدة جنيت من المشاركة بقومية كانت بــدون نفوذ سياسي أو كان لها ذلك النفوذ منعكساً من سلطة تشككية جداً مــن المطــامح المسيحية ومضادة لأي افتراض بالمساواة أظهره العرب لأنفسهم. ولكن إذا كــان للمرء أن يكون عربيا قد يعني أن يكون المرء عضوا في عرق سائد فــان مــن مصلحة جميع سكان الولايات العربية أن يطالبوا بمشاركتهم فيه. لن يكون أصلهم المشترك عند ذلك غير محترم ولغتهم المشتركة ستسهل اندماجا اكبر.

العكس تماما من هذه الظروف تسود ما أطلقت عليه حسب الجنسية بالولايــات التركية. يملك العنصر الطوراني بين سكان آسيا الصغرى كلها أغلبية بــسيطة – هذا إذا كانت هنالك أغلبية– وفي العديد من المناطق تتفوق عليه بالعدد عناصــر أخري. واللغة التركية متداولة رسميا ومعروفة في كل مكان ولكن النــاس فيمــا بينهم يتكلمون لغاتهم الخاصة ويتمسكون بها. إن هذا التناقض معروف فــي لغــة السياسة وعندما نبحث موضوع آسيا الصغرى فأننا لا نتكلم عنها باعتبارها تركية خالصة وبسيطة وإنما نجزئها إلى أجزاء مثل أرمينيا (بــالرغم مــن إن اللــورد سالزبوري أكد انه لا يستطيع إعطاء تعريف جغرافي مــضبوط لهــذه التــسمية) وكردستان أيضا. وقد يثار اعتراض على أن بريطانيا العظمى هي أيضا متعــددة

الجنسيات ومع ذلك فهي جبهة واحدة فأجيب قائلة بان هنالك تشابه في النقطة الأولى فهنالك تنوع للجنسيات في آسيا الصغرى كما في بريطانيا العظمى ولكن في آسيا الصغرى لا يوجد أي اتحاد.

ولا توجد أي مكان تظهر فيه بوضوح الفوضى العرقية والسياسة كما تظهر في كردستان وكما قلت فان الحدود الجبلية الموحشة(والتي لهذا اليوم يصعب الوصول إليها) لجبال الأناضول الجنوبية والجنوبية الشرقية كانت مقرا للاجئين من السهول بسبب الغزوات المتعددة.

الميديون طردوا الآشوريين، والهجرات العربية، التي بدأت قبل الغزو الإسلامي والتي لا يمكن أن يقال إنها انتهت كليا في أي وقت، قلعوا الميدين والبارثيين وجماعات سامية اقدم. إضافة إلى ذلك فان الجبال كانت منذ اقدم العصور التاريخية مقرا لأجناس مختلفة فهناك أكنيوفون اوزينوفون(Xenophon) (٨١). وجد أن اصل الأكراد من الكاردوخي. والمملكة الأرمنية تعود إلى السادس قبل الميلاد وقبل هذا نصرف القليل عن وحدات سياسية كانت لها علاقات وثيقة مع الحيثيين والذين لا يمكن بصورة مؤكدة تحديد إلى أي فرع من البشرية يعود أصلهم. إن هؤلاء الناس تمت تغطيتهم ولكنهم لم يذوبوا. وإذا نظرنا الموضوع من جانب آخر فان القسم الكبير من كردستان هو أرمينيا –وهذه حقيقة تبرر جهل اللورد سالزبوري– وإذا أخذنا كل الظرف التاريخي بنظر الاعتبار فليس مدهشا أن نجد انه بينما توجد أجزاء قليلة من الأناضول فيها جزء كبير من السكان لا يتكلم لغتين نرى في التلال الجنوبية رجالا يستعملون حاليا ثلاث وحتى أربع لغات. وهكذا ففي الغابات الموحشة شمال الزاب الأعلى –النهر الرئيسي الشرقي الذي يصب في دجلة، شمال الموصل قابلت قرويين يتكلمون الكردية والعربية والتركية ولكن لغتهم الخاصة التي يتحدثون بها فيما بينهم هي لهجة سامية تعرف بالفلاحين –أي لغة الفلاحين– والتي بالرغم من اسمها المتعدي هذا اعتقد أنها بقية ممزقة من اللغة الآشورية القديمة. أما في طور عابدين إلي الشرق من ماردين

فانه اللغة ألام للمسيحيين هي السريانية ولكنهم يتكلمون إضـافة إليهـا الكرديـة والعربية ويملكون عادة إلماما بالتركية. إن هذه الظروف يجب أن تؤخـذ بنظـر الاعتبار في أي محاولة لقياس الوحدة السياسية للولايات التركية. إني لحد الآن لم أتطرق إلى الشركسيين وهم وافدين جدد وعددهم قليل نسبيا.

ومع هذا فأينما نجح هؤلاء المهاجرين من القفقاس في الاستقرار فانهم قد قدموا من أنفسهم عنصرا عرقيا مختلف تماما وكثير الحيوية كانت له آثاره. لقد كـانوا كثيري الحيوية حقا لكي يحافظوا على بقائهم ضد المشاكل التي تواجههم. وافضل مستعمرة سكانية معروفة لدى هي مستعمرة راس العين والتي كانت إلـى وقـت قريب محطة على طريق الموصل –حلب من خط سكة حديد بغداد. وفيها حكـى لي رئيس القرية– الذي كان السماور(٨٢) الروسي العائد له دائما معدا لاستضافة الناس إلى الشاي –عن تجاربه والتي أستطيع أن أؤكد أنهـا مقبولـة باعتبارهـا نموذجا لتاريخ المهاجر الشركسي بوجه عام، كان رجلا قد تجاوز السبعين مـن العمر– وكان ذلك عام ١٩١١ وربما كان رحمه الله قد أنهى حياته قبل الآن، جاء إلى حدود الصحراء وهو صبي –وتستطيع أن تتصور خروجهم مـن القفقـاس– عوائل بكاملها مع مواشيها وبعض حاجات الدنيا التي استطاعوا حملها مكومة فوق عرباتهم ذات العجلتين وأطفالهم جالسين في قمة الكومة.كان السلطان قد خصص لهم أراضي حول المنبع الكبير الذي هو أحد مصادر الخابور ولكن عندما وصلوا هناك وجدوا أن سلطة السلطان في تخصيص الأراضي سلطة مشكوك بأمرها ولا كان باستطاعته أن يساعدهم بأي شكل وتحدوا بمصادمات يدوية مطالب الأكـراد والعرب المضادة وعندما كانت تسنح لهم تبادل البندقية بمحراث كـانوا يكـسبون عيشاً بسيطاً بكفاح شاق. وقال لي مضيفي (إذا جاءت السكة إلى عندنا فـسوف نثرى) –وفي ذلك لم يكن المشروع قد أعلن بعد– وإلا فلا أرى أن هنالك أي أمل لنا) فسألته (هل قمت بزيارة إلي القفقاس؟) فأجاب: (نعم ذهبت إلى هنـاك قبـل عشر سنوات –خانم أفندي– وكان يجب ألا نغادر بلدنا. فأولئك الذين بقوا هنـاك

أصبحوا أثرياء ويحتلون مناصب في الحكومة الروسية وحصلوا على أراضي أو أملاك. فلو بقينا لكنا أثرياء كذلك). وقد سمعت شبه ذلك من شفاه العديد من المهاجرين الشركسيين وربما كان هذا إدانة واضحة للحكم العثماني حيث تظهر الأتراك قاصرين عن مساعدة أولئك الذين ضحوا بكل شيء سوى ولاءهم لهم.

ولكن الشركسيين في مناطق أكثر أنعاماً من رأس العين عرفوا كيف يعينوا أنفسهم. وتبقى في ذاكرتي انطباعا واضحاً عن قسم من قراهم إلى الشرق من القيصرية انحدرنا في منحدرات عديمة الطرق مليئة بالغابات إلى ما يشبه منظر ريفي أوربي –حقول محروثة جيداً وطرق قد أصلحت وسواقي نصبت عليها الجسور وأكواخ محاطة بحدائق أنيقة مسيجة وفلاحين بملابس جيدة جالسين على مقاعد أمام أبواب دورهم يرتاحون من جهد يوم عمل عند الغروب.

وماذا عن أولئك الذين لم ترغب الحكومة التركية حتى في مساعدتهم؟ مررت في وديان حوض الفرات الأعلى الجميلة قبل شهر من مذبحة أدنة عام ١٩٠٩ وكان ذلك في الربيع وكانت الثلوج تغطي الممر المرتفع الذي يفصل أعالي مياه دجلة عن الفرات. ولكن سهل خربوت والأراضي المخضرة حول مالاطيا حيث أسس السلطان عبد الحميد الذي خلع عن العرش مؤخراً –حقلا كبيراً وفاخراً لتربية الخيول فقد كان عبارة عن أرض خصبة جداً فسنابل القمح عالية وأشجار التوت ثقيلة بحملها وأشجار الأعناب متشابكة بعناقيد صغيرة خضراء من العنب وباختصار فالأرض كانت تصرخ بالجمال والثروة. ولكن في القرية الأرمنية نادراً ما كان الرعب يتوقف.

فالحكايات عن أدنة كانت على كل لسان وحكايات أيضا عن الحظ الرفيع الذي وضع بين المتكلمين أنفسهم والمذبحة. وبينما كنت أسافر نحو الغرب وصلت إلى مناطق الدمار ورأيت أكوام متفحمة من الطين والحجر كانت مناطق مزدحمة للمياه الزراعية.

توقفت الضربة في منتصف طريقها حيث دافع السكان عن أنفسهم وهم مشردون وبدون سكن وحصلوا على مجرد البقاء- وحملت فترة ست سنوات -إذا عرفناها- حتى عام ١٩١٥ العمل الذي تركته سنة ١٩٠٩ غير كاملاً.

كتبت في مكان آخر عن أخلاقية المذابح وفي وسط أعمال جهنمية لا زالت الأخبار تصلنا عنها ولا زلت لحد الآن اشهد أن المذبحة في الولايات التركية لم تبعث من الداخل. وصلت أوامر ونفذت. ولكني بالرغم من علمي بهذه الحقيقة لا اعتبرها حجة، فطاعة كهذه جريمة يجب أن تدافع الإنسانية عن نفسها ضدها وتغتصب حقها في الحياة. هذه الإنسانية التي تدافع عن نفسها ضد طاعة مماثلة في هذه الحرب الدائرة مع ألمانيا.

وبقدر ما اعلم فان الأكراد قد اظهروا قسوة طبيعية اكثر من الأتراك في تعاملهم مع المسيحيين وربما كان ذلك بسبب تملكهم حيوية أسرع من حيوية المزارع التركي الذي يتميز اكثر بمميزات الحيوان بطيء الذكاء في استجابته لمن يدفعه(يحثه). ففي مناطق كردستان التي تعرفت عليها كان الكردي يرتعب من المسيحي اكثر من التركي في المناطق التي غالبيتها أتراك. وقاسى النساطرة في تياري (٨٣) شمال شرق الموصل بدون انقطاع على أيدي الأكراد وبالرغم من أن شجاعتهم المذهلة قد حفظتهم من الانقراض الكلي فان القوى المضادة لهم كانت قوية جدا وحتى قبل الحرب بدا وكأنهم يجب أن ينصاعوا. وهكذا كان الأمر أيضا مع الكنائس السورية في طور عابدين فإذا لم يكونوا قد سحقوا وانقرضوا على أيدي شيوخ الأكراد (البيكات الأكراد) فعلى الأقل اصبح تقدمهم أو تطورهم مستحيلا. أما أديرتهم التي جردت من ثرواتها وتحولت إلى جزء من مائة مما كانت عليه من مجد في العصور الوسطى لم تستطع أن تعلن نفسها أنها فقيرة لدرجة عدم استطاعتها استضافة كل عصابة كردية مسلمة تمر في طريقهم بالرغم من أن الخبز اليابس والبيض والدهن والزبيب التي كانت كل ما يستطيعوا تقديمه هي مواد مهمة في مصادرهم الغذائية المبتورة. ولكن قبل الحرب كان الرهبان

على الأقل يستطيعون الاعتماد على الحياة، وفي كهوفهم المنحوتة في الصخر والتي لا يصلها إنسان كانوا يقدمون صورة عن الظروف التي سادت الرهبنة في العصور الوسطى-الأمل في إيجاد بعض الأمل في العصمة خارج عن القانون- عصمة عن أسوأ الشرور مقابل تقديمهم الخدمة والضيافة التي لم يكن بإمكانهم تقديم غيرها.

ولكن حسب التقارير التي وصلت فقد وصلهم آخر الشرور إن لم يكن أسوأها واندثرت تلك المجموعات التاريخية الصغيرة.

وحدث ما يشبه ذلك في كردستان كلها. ماردين في حالة مذابح وديار بكر الهائجة الموشحة بالسواد اجمل المدن المسيحية بالشؤم تحولت إلى جهنم غاضبة. وفي أيام عبد الحميد-خلال تسع سنوات من حكم جمعية الاتحاد والترقي يقتنع المرء فيها بأنه سيذكر في المستقبل بكل تبريك- كانت هنالك جماعة كردية واحدة كانت تفخر برحمتها تجاه المسيحيين فالقائد القوي في مليّ، إبراهيم باشا،والذي أصله عربي، ومهما كانت أخطاؤه أو جرائمه، جعل البلاد من الفرات إلى نصيبين ملجأ للمسيحيين. وشهدت السنة الأولى من حكم الاتحاد والترقي سقوطه وبالرغم من أن أولاده بعد سجنهم لمدة طويلة استعادوا بعض نفوذه وسلطته فهم مشبوهون وفي الحقيقة فان واحدا منهم هو لاجئ عندنا الآن في بغداد.

ولكن لا يمكن الحكم على الأكراد جميعا حسب علاقاتهم مع المذهب(الطائفة) المسيحي فإذا كانت لهم آثامهم فلهم أيضا فضائلهم كشعب بدائي في حضارته. فالقانون الاجتماعي الذي يلجئون إليه أنفسهم جعلهم معروفين بحياتهم النظيفة وشجاعتهم بالإضافة إلى أن أخطاءهم لم تكن من أخطاء القوميات الأخرى الخاضعة لسوء الحكم التركي، ومن الجدير أن نتذكر أنه في جميع أقسام تركيا الآسيوية فأن المشاكل الزراعية تقبع في جذر المشاكل العشائرية وينطبق هذا على الأكراد شبه البدو كما ينطبق على فلاحي وادي الرافدين الثائرين وأصبحت جميع الأراضي بوسائل غير مشكوك فيها بأيدي المسلمين الأغنياء الذين فرضوا إيجارا

عاليا على ساكنيها من المزارعين. إن طغيان قادة العشائر يشبه طغيان البارونات الأوربيين في العصور الوسطى. ففي اكثر المناطق وحشية فأن المزارعين الأكراد هم عبيد لشيوخهم أو بيكاتهم أو اغواتهم وما عدا التأمين على بقائهم فهم ليسوا بأحسن حال من المسيحيين. وفي قاطع آسيا الصغرى الذي يقع بين الروس الآن والتي عمودها الفقري هو الطريق القديم الذي سلكه العشرة آلاف في طريقهم إلى البحر(٨٤)، يبدي السكان على طول الساحل امتزاجا قويا مع اليونانيين فالعديد من القرى مسلمة اسميا ولكن صفات سكانها وتقاليدهم واحتفالاتهم تفضح أصلهم الهيليني، فحول رضا شرق طرابزون يعيش الـ(لاّز) وهم عرق تبتي في القفقاز يمثلون بحارة البحر الأسود وبالعقيدة فهم مسلمون متعصبون هم قوم متوحشون لا يطاقون سريعين في استعمال الخناجر ينطبق عليهم مثل تركي في إعطاء تقييم جيد وعام: (أغنى الطيور الوزة، واسوأ الرجال هم اللاّز). وإذا ابتعدنا عن الساحل يختفي العنصر اليوناني ويحل محله العنصر الأرمني الذي كان يقدر قبل الحرب في أرض روم بخمسين بالمائة من السكان ويحتفظ بنفس هذه النسبة في مدينتي وان وتبليس الجنوبيتين، ومن الجهة الأخرى فأن الأتراك الذين يمثلون نصف السكان أرض روم يصبحون أقل نسبة من الأكراد في الجنوب. أما حول بتليس فأن الأتراك قليلي العدد وفي بعض القرى الكردية لا يعرف الناس اللغة التركية.

إن طبيعة الأرض الجبلية والصفة المجدبة للتربة وقلة وسائل الاتصال قد حفظت هذه البلاد في حالة فقر. جميع الأخشاب قد أحرقت منذ زمن طويل وفي الشتاء يتوجه السكان مع مواشيهم إلى مناطق الرعي طلبا للدفيء وكانت هناك أرباح تجنى من القوافل المارة بين طرابزون وتبليس ولكن كل هذه التجارة تقريبا قد تحولت إلى باطوم وقفقاس. لقد كانت المنطقة كلها ولزمن طويل تحت النفوذ المعنوي لروسيا ومنذ ٢٠٠ سنة كان الحائط التتري الذي يفصلها عن روسيا يضيق تدريجيا ولا زال هناك رجال أحياء يذكرون الغزو الروسي عام ١٨٧٨

وأصبح شعور التركي مجسما في العبارة التالية:(الخوف الموسكوفي) وعند رؤية الفرق الموجود بين وضع المسيحيين في القفقاس الروسية وبينهم على الحدود التركية فلا عجب أن يكون شعور الأرمن في تركيا نحو الروس دائما هو شعور بالخوف. ولكن من الخطأ أن نظن بان السكان الأرمن كانوا جميعا موالين للروس.

فقد كان هناك الكثير من الدماء الأرمنية الشابة الذين عملوا بطريقة غير مجدية لإثارة ثورة تؤدي بإيقاع ضربة بالأتراك تساوي تلك الضربة التي أوقعها الأرمن في(القفقاس الروسية) بالتتار قبل(١٥ سنة) ولكن أغلب الأرمن كانوا جدا هادئين وكان جل اهتمامهم أن يتركوا لوحدهم. وإضافة إلى ذلك كانت هناك جماعة قوية بالتأكيد معادية للثوريين من الأرمن ويتطلعون نحو اتفاق ومصافاة مع الأتراك.

ويمكن بحث موضوع ولاية أناضوليا أخرى هنا، ليس لكونها جزء من كردستان ولكن لأنها كانت تعود يوما ما لأرمينيا ، فعندها وضع السلاجقة في القرن الثاني عشر حدا للنفوذ الأرمني في كردستان، أسس أحد أقارب الحاكم المقتول عاني أو آني في كليكيا (٨٥) مملكو أرمينيا الصغرى التي دامت مدة من الزمن تقل عن مائتي سنة حيث أطاح بها المماليك ولكنها تركت آثارها في العديد من الخرائب التي كانت كنائس جميلة بنيت بالحجر كما تركت آثارها بعدد كبير من السكان الأرمن (٨٦). وهذه الطائفة قاست الكثير في مذبح عام ١٩٠٩ ولكنها أنقذت من الانقراض الكامل-بسبب تدخل ضابط بريطاني إلى حد كبير الذي كان حينذاك في مركز القنصل في أدينه. ومات هذا المنقذ وأولئك الذين أنقذهم. وهو يرقد الآن في غاليبولي مكرما أما الأرمن في كاليسكي فقد جندوا للقتال بأوامر الأتراك والألمان.

وأنا أذكر، بتناقض واضح لما هو، حمد الله- المزاج البريطاني قصة لحقيقة ما يمكن أن أجيب عليه بالرغم من أنها لم تنشر لحد الآن عند اندلاع المذابح كانت جماعة صغيرة من المهندسين الألمان مشغولة بعملية مسح للسكة الحديدية في بقجة في ممر جبال طوروس. وكانت الجماعة تتكون من أربعة أو خمسة رجال

ومعهم فتاة وهي أبنه رئيس المساحين، وبقجة قرية كانت جزء من سكانها أرمن التجأ عدد منهم إلى الدار الخشبية التي احتلها الألمان. فاجتمع الأكراد حول الدار وهم يهددون بحرقة إذا لم يسلم اللاجئون إليهم وكان من المستحيل- إذا لم يكن من المستبعد- تنفيذ هذا التهديد ولكن الألمان لم يرضوا بالمغامرة ففتحوا الأبواب ودفعوا أولئك المساكين إلى الخارج حيث تم قتلهم أمام أعينهم وبعد أيام قليلة هربوا إلى آدنة بمعية مرافق أرسله إليهم القنصل البريطاني مروا بالعصمانية في اسفل التلال حيث قام مسافر إنكليزي بتحويل الخان الذي وجد نفسه فيه إلى مستشفى وملجأ للجرحى من الأرمن. وعندما رآهم أندهش من الرعب الكريه الذي أظهروه. وبرروا فعلتهم تلك بسبب خوف الفتاة فليصدق من يريد أن يصدق.

ومن الناحية الاجتماعية فأن كاليكيا كانت ترتبط في العادة بسوريا أكثر من ارتباطها بآسيا الصغرى التي انفصلت عنها جغرافيا بجبال طوروس العالية. وسهل آدنة الغني والذي يسقيه ثلاثة انهار عظيمة، وقف متحديا بإصرار أمام العديد من الجيوش الغازية، ويمكن أن يتطور تحت إدارة مدنية إلى ثروة لا حدود لها. وترتبط آدنة بطوروس وميناء مرسين بسكة حديد قديمة بناها الفرنسيون أصلا أما سكة حديد بغداد فتقطع النصف الغربي من الولاية من البوابات الكيليكية إلى امانوس(٨٧). لا يمكن تسمية الطرق هناك بالطرق ما عدا الطريق العام الذي سبق إنشاء خط بغداد. أما الأنهار فقد بنيت عليها جسور للعبور منذ زمن طويل. ولا زال هناك جسر على نهر سدنوس يعود إلى زمن المملكة الأرمنية وجسر أخر على نهر ساروس يعود إلى جستنبان وجسر ثالث على نهر براموس يعود إلى زمن قسطنطين أما السكان حتى في أسيا التركية فهم مختلفون بشكل محير ويستقبلون في الشتاء الكثير من العشائر الشركسية والأكراد والطورانيين من المرتفعات الجبلية. ولا يوجد إلا قليل من الأمل في السلم والأمن ما لم تقم حكومة هذا البلد المحتل بالاستقلال عن الأيدي العثمانية.

المقالة الخامسة

ولايات تركية-الهضبة الأناضولية

تحتل أواسط أسيا الصغرى أراضي مرتفعة يصل ارتفاعها إلى (٣٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وتمتد حوالي (٤٠٠) ميل من أفيوم أو شبين قرة حصار في الغرب إلى قيصرية في الشرق و(٣٠٠) ميل أو اكثر من أنقرة في الشمال إلى منحدرات طوروس في الجنوب. ولهذه المنطقة صفة متميزة كونها تعتبر مكاناً منعزلاً في أي وصف للأناضول. يسكنها في الأغلب رجال من اصل طوراني وكانت مركز إمبراطورية الروم السلجوقية (٨٨) التي أسست قونية عاصمة لها في نهاية القرن الحادي عشر وتكثر في الصروح السلجوقية الفاخرة. ويسكن المناطق الريفية عشائر تركية نصف بدوية وتركمان ويورك ولكن توجد في المدن إضافة إلى العنصر التركي مستعمرات كبيرة من الأرمن كما توجد قرب قونية قرى جميع سكانها يونانيين بالرغم من انه إلى وقت قريب عندما ظهر ميل واضح لاستعادة اللغة اليونانية عمّ السكان اليونانيون باب لم تكن قبل ذلك معروفة أي لغة للسكان عدا التركية.

لقد طفت الهضبة من جميع الجهات تقريباً ولكن ليس هنالك جانبا أجمل من الجانب الغربي. فهناك وراءك ارض تمتاز ببحيراتها ومياهها الجارية- ارض كما سأصفها، وتبدو للأوربي غريبة اكثر مما هي وعند اجتياز الممر الأخير فوق مراد داغ أو سلطان داغ تتحول من ارض ذات روحية أوربية إلى ارض هي في الروح والحقيقة آسيوية، ولا أستطيع أن اصف الفرق بين القارتين إلا بالقول أن في أوربا وفي الأراضي الساحلية الغربية للشرق التي تماثل أوربا بميزاتها إذا لم يكن بجغرافيتها فان الطبيعة تبدو في أوربا مستعدة لتقديم نفسها لخدمة الإنسانية، طيعة لينه بينما في آسيا يقدم الإنسان الخضوع الكامل ويلجأ حيث أمكن بين

الجبال المنعزلة أو الصحارى الغير مضيافة، يشرب من المياه المرة وفي الأراضي التي تعد بالثروة نراه يجهد تحت شمس محرقة أو يتجمد من شدة البرد الهائل. والهضبة الأناضولية هي مهما كانت مقدمة لهذه الظروف فلا يوجد على سطحها أي ملجأ عدا بعض الملاجئ البركانية مثل قرة داغ وقره جه داغ وحسن داغ أو قمة اركايوس المواجهة لسيزاريا والتي تجمع وتحفظ ثلوج لتقي منحدراتها في موسم الزراعة وتحمي القرى والحقول بين طياتها.

والى الشمال من أق سراي إلى قونية هنالك بحيرة ملحية تغطي عدة أميال من الهضبة والأراضي المحيطة بها مجدبة لا تنبت شيئاً سوى بعض النباتات الحرافية (لاذعة الطعم) المتفرقة التي لا يمكن لأي حيوان أن يقتات عليها. ولكن إلى الغرب حول قونية وجنوب كارامان توجد آلاف الفدادين من الأراضي المزروعة بالحبوب. وعندما كنت في قونية آخر مرة كان مشروع جلب المياه إلى السهول من بحيرة بيشهر على وشك البدء به.

واعتقد انه تم تنفيذه قبل اندلاع الحرب. وسوف يؤمن هذا المشروع الماء للمزروعات حتى في فصول الجفاف والثروة للقرى الشركسية إلى الجنوب من قرة داغ. وهنا أيضاً توجد أمام الشركسية حياة صعبة ليس بقدر العداءات المحلية بقدر ما للإهمال الإداري والنقص في الحاجيات المطلوب لاستقرارهم، وقد رأيت قوافل من المهاجرين –والذين لا يوجد ما يمنع توافدهم لحد ألان من القفقاس– والذين بقوا في قونية ينتظرون لسنة أو اكثر تخصيص الأرض لهم. ولعدم توفر أي وسيلة للعيش لهم اضطروا إلى ذبح المواشي التي جاءوا بها معهم وبيع أثاثهم المنزلية وعندما حصلوا أخيرا على قطعة ارض من الهضبة لم يكن لديهم حيوانات لتحرث حقولهم ولا أثاث للأكواخ الطينية التي شرعوا ببنائها. ولذا ليس من المستغرب إذا ما ظهرت قراهم بحالة من الفقر المدقع.

وتحت التلال توجد زراعة دائماً حيث يرعى اليوروك قطعانهم وحيث يؤمها التركمان صيفاً. وتعتبر الجوانب الشمالية لحسن داغ آية في الجمال والكمال

وتشتهر قمة جبل اراكيوس بأعنابها وفواكهها حيث أن التربة البركانيــة هنــاك اشتغلت جيداً لزراعة الأعناب التي يمكن أن تنافس بجودتها أعناب منطقة فيزوف وأثينا وتقدم الجبال لعالم طبقات الأرض مواقع جديرة بالاهتمام. ووجدت موقعــاً عالياً من آثار الحيثيين على قمة قرع داغ مع آثار كنيسة صغيرة وقديمــة جــداً ومقبرة كرست وقدست للمسيحيين موقعاً مكرماً من قبل سكان النهضة منذ بدايــة العصور التاريخية وتتوج قمة قرة جه داغ كنائس وأديرة مندثرة وتنتــشر فــوق السفوح العليا لحسن داغ. أما على قمة اراكيوس توجد كهوف منحوتة بالــصخر إلى حد الثلوج وما فوقها.

أن شهرة سهل قونيه الحالية تعود بصورة رئيسية إلى علاقتها بمشروع ســكة حديد بغداد ولكن هذا الخط لم يكن الخط الوحيد أو الأول الذي يصل إلى الهضبة حيث أن تاريخ مشاريع السكك الحديد الثلاثة التي أنــشئت مــن الــساحل إلــى المرتفعات في الداخل والذي كان اثنان منها ووصلت أهدافها هــي مــشاريع ذات ميزات سياسية واقتصادية تثير اهتماماً كثيراً. أن المنفذ الطبيعي الذي تخرج منه النتاجات الأناضولية إلى الأسواق الأوربية هو ليس القسطنطينية وإنمــا أزميــر (وخطوط السكك الأولى التي امتدت إلى الداخل بدأت من هذا المينــاء. أن ســكة حديد (أزمير-قصة) الذي أشرفت عليه شركة فرنــسية (وكــان بالأصــل عقــد بريطاني) امتد في وادي هرمز إلى أفيوم قرة حصار بينما خط آيدن والذي كان لا يزال بأيدي البريطانيين عند اندلاع الحرب كان قد أنشئ علــى طــول وادي مايندر (مندرس الكبير) الخصب. وهذا الخط الأخير هو افضل مــن أي خطــوط السكك الأناضولية الأخرى وأكثرهم ربما غير مستثنية في ذلك الخط الذي يمتــد من حيدر باشا إلى انقره وطالما أن هذا الخط لم يسند منذ البداية بنظــام ضــمان كيلومتري لذا من الضروري اتخاذ أجراء تضمن نجاحه حــسب مبــادئ العمــل الاعتيادي. وعلى هذا لم يسرع بدفعه من قاعدة انطلاقه إلى نقطة بعيدة في الداخل وإنما ترك لكي يقدم ببطيء وكل قطاع منه يمهد طريقه بواسطة خطوط فرعيــة

صغيرة ارتادت أراضي خصبة على جانبيه وكانت هنالك دوما نية في إيصال الخط إلى قونية ولو حدث هذا لأصبح هذا الخط اكثر الخطوط انتعاشاً في تركيا. ولكن بينما كان الخط قد وصل دينير شرق أيدن بدا خط سكة حديد بغداد، وهو خط ستراتيجي وليس اقتصادي، بدأ باتخاذ شكله العملي وكرست الشركة الألمانية التي قامت بتنفيذه كل نفوذها لإعاقة هذا الخط المنافس الخطير. ولذا لم تحصل الشركة البريطانية المنفذة للخط الأول على امتياز مدّه من دينير إلى بحيرة أكردير إلا بصعوبة بالغة وأكمل قبل الحرب. أما موضوع هل كان الألمان سيسمحون بربط أكردير بقونية وعند ذلك يصبح الخط واضح الفائدة للبلاد ويحول مواردها إلى أزمير بدلاً من القسطنطينية، فهي مسألة ليس من حاجة أن نجيب عليها ألان. أن خط سكة حديد أزمير-قصبة والذي لم يطور بصورة جيدة كما طور خط أيدن ولا يستطيع أن يستغني عن نظام ضمان كيلومتري، قد وصل الهضبة في افيوم قرة حصار قبل أن يكمل امتياز خط بغداد للألمان ولكنه مع هذا لم يسمح له أن يلعب دوره الطبيعي كمنفذ من الهضبة إلى البحر المتوسط وذلك بعدم السماح له بالارتباط بخط القسطنطينية-قونية أن المسافة بين المحطتين الفرنسية والألمانية والتي لا تزيد على بضعة مئات من الياردات والتي حتمت تحجيم جميع البضائع القادمة من الجنوب أعاقت المصدرين إلى حد كبير من إرسال لبضائعهم (وأهمها الحنطة) إلى أزمير حيث انهم كانوا بفضلونه عادة لو كانت سهولة النقليات متساوية. وبالنسبة لي فكل ما كنت أمر بأفيوم كنت أفكر بالجريمة الاقتصادية التي كان يقترفها أصحاب الامتياز الألمان بمنع التجارة من اتخاذ ارخص طرقها إلى أسواق أوربا.

إن امتياز خط سكة حديد بغداد-كما يعلم الجميع-تملكه الإمبراطور (ولهلم) شخصياً وذلك عندما زار القسطنطينية في سنة ١٨٩٨ وكان هذا مقابل إعلانه عن عزمه على إسناد السلطان العثماني بقوة والذي كانت نظرة بقية العالم المسيحي إليه سيئة وذلك بسبب الدور الفعال الذي لعبه خلال عامي ١٨٩٦-١٨٩٧ بدفع

الرعايا المسلمين على ذبح الأرمن الخاضعين لدولته. واتخذ المشروع شكل امتداد عظيم إلى خط ثالث كان قد وصل الهضبة من الساحل وبالذات من خــط حيــدر باشا. فمن بدايات بسيطة-حيث كان بالأصل خطأ محلياً بنته شركة بريطانية بين القسطنطينية أو بالأحرى حيدر باشا وازميت- اصبح هذا الخط وسيلة مواصلات مهمة يصل إلى أسكي شهر وانقره وخلال بنائه فقد خاصيته البريطانيــة واتخــذ خاصية كانت كلياً ألمانية (٨٩). وكان يقطع الأراضي الزراعية الخصبة جنــوب بحر مرمرة كخط رئيس منفرد لا تتفرع عنه خطوط جانبية مغذية أما في اســكي شهر إلى انقره فقد كان يقدم خدمات كبيرة لمنطقة كثيرة الخــصب. وكــان قبــل اندلاع الحرب لم يعمل بنظام الضمان الكيلومتري الذي وضع له. أما مد الخط إلى قونية ثم إلى طوروس الذي اكمل عام ١٩٠٦ فقد كان يختلف كثيراً. فلولا مشروع ري بيشهر لم يكن هنالك احتمال لان يرى هذا الجزء من الخط النور وحتى لو تم تنفيذه لكان من المحتمل أن تمر سنين عديدة قبل أن يتوقف خط قونية من أن يكون حملاً على دافع الضرائب العثماني. ولكن طالما أن خطي السكة الحديديــة مــن أزمير -كما شرحنا- قد أعيقا بسبب غيرة الألمان وحسدهم فلم يكن ممكناً تطوير سهل قونية إلا بطريق حيدر باشا وحتى إذا كان خط سكة حديد بغداد، لــضمانه الذي لم يسبق له مثيل عبئاً ثقيلاً على الموارد القليلة للخزانة التركية فليس من شك انه أفاد الأجزاء الغربية من الهضبة. ولهذا يمكن اعتباره استثماراً تجارياً حتــى اسفل جبال طوروس ولكن مده فوق طوروس لم يكن له أي اعتبار اقتصادي. فلم يكن بالحساب أن يقوم ميناء على بحر مرمرة بجذب المنتوجات من كليكيا وشمال سوريا وشمال وادي الرافدين من منافذها الطبيعية فــي ميرســين الاســكندرونة وبالرغم من أننا يمكن أن نقول الكثير لصالح فتح حقول الحبــوب شــرق حلــب إضافة إلى تلك التي تقع على الجانب الأخر من الفرات واعتبار الوصــول إليهــا ممكناً بالسكك الحديدية من الاسكندرونة فقد كان هذا في الحقيقة فكــرة اســتثنائية وليس جزءاً من التصميم الأصلي. ولكن أعمال حفر الأنفاق في جبال طــوروس

وامانوس الباهظة التكاليف لم يكن لها أن تسير وفق أي هدف اقتصادي. أن فكرة ربط بغداد بالقسطنطينية (بيزنطينية) وقعت ضمن سياسة عبد الحميد في المركزية التي في بلاد تركيا كانت سياسة خطرة كغيرها من السياسات وبعد بسقوط عبد الحميد وعندما وقع (الرجل المريض) الذي كان يعرف بالإمبراطورية العثمانية بأيدي رجال سياسة اكثر انحرافاً جنونياً منه في جعل جميع السلطات في شبكة تركية في القسطنطينية كانت الرغبة في إكمال سكة حديد بغداد اشد من قبل. فحسب نظر جمعية الاتحاد والترقي فان تكوين تركيا قوية كقوة يجب أن تحتل موقعها بين أسياد الحرب كأن يتطلب ليس مجرد تسكين الشعوب الخاضعة للباب العالي وذلك بالاعتبار الكريم والمتعقل لشكاواهم ولكن أيضا بالاعدامات السياسية التي تسكت أولئك الذين تجرؤا بالإفصاح عن شكاواهم: وكان أول عمل ضروري هو فتح الإمبراطورية بسكك حديد ستراتيجية تسمح بالمرور السريع للقوات العسكرية من نقطة إلى أخرى. أما خط السكة الحديدية الرئيسي فقد كان منسجماً مع الطموحات الألمانية. فكانت تركيا تبدو المكان تحت الشمس الذي كانت ألمانيا تحلم به طويلاً، واتصال بغداد ببرلين صرخة تتيح لهم الفوز في الانتخابات لو كان الحكام الألمان يعتمدون على أمنيات الناخبين، والآمال التي أشرقت أعطيت إشراقة اكثر بتصور النجاح الذي تضمنه خروج النفوذ البريطاني والاستثمارات البريطانية وتأسيس مركز ثقل مضاد وخطير للاستعمار البريطاني للهند ومصر، وذلك في غرب أسيا. ولا يخامرني أي شك انه لولا اندلاع الحرب من عام ١٩١٤ لتحققت هذه الأهداف ما لم يتوسط بين وسط أوربا والقسطنطينية كيان يقع مانعاً أن لم يكن معادياً جداً وذلك بنمو قوة سلافية مؤثرة في البلقان. أن هذا الخطر، الذي تكون نتيجة حرب البلقان في عام ١٩١٢-١٩١٣ (٩٠) الذي عجل قرار المقابلة بالسلاح والذي كانت ألمانيا تعتبره منذ زمن بعيد شيئاً لا يمكن تجنبه.

ويمكن أن نستنتج لفائدتنا المستقبلية مبدأ واضحاً واحداً من اقصر دراسة لتاريخ إنشاء السك الحديدية التركية. ذلك هو أن إنشاء خط رئيسي طويل غير متفرع يربط بين الولايات والذي لا يملك أي فائدة اقتصادية مهمة عليه مآخذ خطيرة عديدة فهو يتطلب نظام ضمان كيلومتري ثقيل أي بعبارة أخرى يمثل عبئاً على دافع الضرائب الذي لا يحصل على أي فائدة مناسبة. وهو يعطي انطباعاً عاصفاً عن الوحدة بين شعوب ليست مستعدة بعد لارتباط وثيق كهذا (٩١) ناهيك عن الإدارة المركزية والحديث الغير مجدي بين رجال الدولة –نصف ناضجين– محليين، وأجانب أما الأسس السياسية والاقتصادية التي توجه بموجبها منشئو خط أيدن فقد كانت اكثر تعقلاً وباتباع نموذجهم، فسيكون من المستحسن توسيع خطوط السكك الحديدي في آسيا التركية على شكل قطاعات واعطاء المجال للموانئ المختلفة سواء على الخليج العربي أو البحر المتوسط أو البحر الأسود لجس النبض في المناطق التي يحكموها والسماح لهذا التوسيع أن يسير جنباً إلى جنب مع تطور صناعي وزراعي سيزود كل ميل إضافي من الخط بأمل أيجاد توازن مرضي.

وبالرغم من أن المنتوجات الزراعة للولايات التركية والعربية سوف تستمر من دون شك لتكون ذات أهمية فائقة فسوف لن يطول الوقت إذا كانت الظروف مواتية – للبدء بتطوير المصادر المعدنية لكي تلعب دورها وخصوصاً في الولايات التركية. إن وفرة المصادر المعدنية في الأناضول جيدة. ولم يستفاد منها لحد الآن إلا قليلاً وهذا الاستثمار البسيط لو وجد قد استخدم لحد الآن بشكل غير مضبوط جداً. واذكر هنا مناجم النحاس الثمينة في أرغانة في الجبال بين خربوط (أيله زج) وديار بكر حيث بعد عملية بدائية في تذويبه يجرى المعدن المذاب في عجينة مدورة. يتحول النحاس بعدها إلى أقراص يحمل كل اثنان منها على جمل واحد أو تحمل فوق التلال بواسطة قوافل ماشية بطيئة الحركة لا نهاية لها –وهي بالتأكيد أسوا وسائل التنقل– إلى منطقة صناعية (إذا أمكنني تسمية

وادي أرغانة المتوحش بهذا الاسم) قد يتاح لك رؤيتها. أن ملح البارود(٩٢) في القيصرية ورصاص كيبان معدن والفحم والحديد والزئبق والخارصين (الزنك) الموجودة في المرتفعات الأناضولية واحتياطي الملح العظيم في السهل هي كلها بانتظار راس المال وواسطة النقل لغرض استثمارها بنجاح وبالرغم من أني بدأت بالقول أن الهضبة الأناضولية هي منطقة مستقلة بحد ذاتها إلا أني استدرجت عند وصفها إلى ذكر مواضيع تخص الإمبراطورية العثمانية ككل ولكن هذا الابتعاد عن الموضوع الرئيسي له منطقُه. فان الهضبة هي قلب تركيا وتخترقها من الشرق إلى الغرب طرق كانت منذ أزمان بعيدة قد ربطت ساحل البحر المتوسط بداخل آسيا أما من الشمال إلى الجنوب فان الطرق الصعبة القليلة الموجودة كانت طرق للجيوش اكثر من كونها طرق للتجار واشهر هذه الطرق والذي هو في الحقيقة الطريق الوحيد من الشمال إلى الجنوب الذي له أهمية تاريخية هو الطريق الذي يقطع جبال طوروس من البوابات الكليكية (٩٣) وهو الطريق الذي اتبعه خط سكة حديد بغداد والذي كان له تلك الأهمية المشؤومة للإمبراطورية العثمانية. وهذا الطريق (الذي لم يصبح كله خط سكة حديد) يخدم اليوم، كما خدم في الماضي، ليس فقط أهداف السلام المفيدة وانما متطلبات الحرب المدمرة أيضاً.

المقالة السادسة

ولايات تركية –الساحل الأناضولي

عندما استذكرنا الأراضي الساحلية في آسيا الصغرى، سحر تلك السواحل المشرقة والورديات الجميلة أرى أن ذكرياتي تسبق الحقيقة. أن الحر اللافح والرياح الحارقة لشهر تموز في بلاد الرافدين والغبار الذي يغلف الحياة ويدعوها قبل أوانها لكي تمتزج بالعنصر الأساسي لتكوينها، تزيد من الجماليات التي أتذكرها. أن الأراضي الساحلية لا ترضي العين فقط وإنما تملأ الخيال بالإشاعات الأسطورية أصداء التاريخ. فالتاريخ والأسطورة كلاهما إغريقيان أو وصلا إلينا عبر تفسيراً إغريقي لان اليونان قامت بأكبر توسعاتها هنا وهنا طورت آخر حضارتها. ونافست مدن شهيرة مثل ميلنس وافسس لأثينا وإسبارطة بعظمتها وبعد أن توقفت اليونان الأوربية عن القيام بدورها الرائد استمرت اليونان الآسيوية في قولبة الحياة والفكر البشريين. أن آسيا الصغرى نقلت إلى دولة روما الوليدة نصيبها من المناجاة إضافة إلى حب اللّذات للمذاهب النصف–هيلينية الشرقية، وأبرزت من خلال فنونها المرنة العاطفة البشرية كما لم يتم تصويرها من قبل في الحب المثالي لمدرسة بيرغامون (Pergamon). (٩٤)

أن الأرض مليئة بالمدن اليونانية المندثرة الجميلة. بعضها قدم أخر عطاء لها للتاريخ والفن وبصورة اكمل بفضل المنقب النمساوي. التكريم يعطي لمن يستحق التكريم. ولذا يعطى التكريم للألمان في مغنيسيا وبرين (اجمل المدن المنقبة) وميلنس وديديمس وبركامون أما للنمساويين فيعطى لهم التكريم في تنقيب أفسس. وهنالك مواقع هيلينية أخرى لا زالت محجوبة بأغصان الغابات والحشائش العالية، وهكذا بقيت أفروديسياس وساكالاسوس في قمة التل وعشرات السهول قرب البحر نصف مدفونة. وإذا سرت خلال التلال والغابات تصل فجأة إلى الأعمدة البيضاء

لمعبد يشبه معبد يوروس قرب ميلاس والتي تنخفض تـدريجياً إلـى أن يـصبح أخرها مدفوناً بكامله. ويعبق الهواء بالأساطير الإغريقية. يـصرخ أدينـون فـي غابات أوليمبس البيثينة ويقع انديميون في نوم يشبه الموت في لاتموس ومارسياس المعلق على الشجرة الفريجية (٩٥) يكفر عن انتصاره على أبولو. وحيثما تنتظر تجد الأساطير الأناضولية مصبوغة بجو آسيا الحزين كونها ولـدت فـي آسـيا وتحولت بالفكر الإغريقي إلى درجة الكمال ذو الشكل الحزين.(٩٦)

وإذا استدرت مبتعدا عن شبح حضارة الماضي ونظرت إلى البلاد كمـا هـي الآن تعيش حيث لا زال يلعب العنصر الهيليني في المناطق الساحلية دوراً هامـاً ويبلغ عدد سكان آسيا الصغرى تسعة ملايين منهم مليون يوناني الـذين طالمـا يسكنون بصورة مركزة في الموانئ أو قربها فانهم يمثلـون أغلبيـة فـي هـذه المناطق. فمثلاً اكثر من نصف سكان أزمير هم يونانيون يسيطرون على التجارة الداخلية بالرغم من أن الأرمن كانوا لهم منافسين أشداء ومتزايدين النجاح وهـم عنصر لا يستغنى عنه في التجارة في جميع المدن حتى اغردير شرقاً ولهم شهرة أخرى اقل من شهرتهم التجارية يستحقون عليها الثواب. كانت اللصوصية وقطع الطرق متفشية حول أزمير والمناطق التي تفصل هرمس عـن وادي ألمايانـدر وكانت جميعها تنسب إلى عصابات يونانية وكان لبعض رؤساء هذه العـصابات شهرة محلية لا تقارن جميعها إلا بشهرة روبن هـود(٩٧) أو دك تـرين (٩٨). وكان أحدهم ويسمى شكرجي كان قد أرعب المنطقة بكاملها خلال جيل مـا قبـل الحرب وملأها بخزين لا ينضب من الحاكيات الرومانسية (العاطفية) ولكن فـي الأخير نجحت الجندرمة الأتراك في محاصرته –وحسب ما أذكر كان ذلـك فـي سنة ١٩١٣– وحصلوا على جثة عديمة الرأس عرفت على أنها جثتـه. وذكـر رجال انه مات بيديه وفضل أن لا يعاني من الأسر وان اتباعه هربوا وهم يحملون رأسه معهم على أمل أن تبقى الحكومة جاهل بمـصيره. أمـا لمـاذا اسـتمرت العصابات بالعمل فيمكن أن يتوضح جزئياً بحادثة شاهدتها بعيني. كان ذلك فـي

إياك الشكرجي وكنت مسافرة ركوباً من هاليكارناسوس إلى أيدن غير بعيدة عن تمولس والتي بحوزة رئيس العصابة بدون منازع وكنت أسافر مسرعة خاصة وان حمولتي خفيفة تتكون من خادم واحد وبغل واحد يحمل حزمة حاجياتي. وقضينا الليل في ضيافة رجل كبير مضياف في القرية التي توقفنا فيها وهكذا وصلنا إلى ألينا -على مسيرة يوم جنوباً من أيدن- ونحن نسير بمحاذاة الجداول والمراعي ونزلنا في منزل أحد الاغوات. وهناك قابلنا ضابط تركي للجندرمة كان يطارد قطاع الطرق وكان لي معه حديث ودي في المساء. وفي تلك الليلة قبض رجاله على أحد قطاع الطرق جلبوه وادخلوه بيت الاغا وكان مسلحاً حتى رأسه ومظهره يناسب تسميته كثيراً. وإضافة إلى ذلك تعرف عليه الضابط الذي قرأ في مذكرة رسمية من هو ومن كان يعمل معه. وكانت تحتوي على أوصاف شخصية لخارجين على القانون معروفين وطابق صاحبنا هذا أوصاف أحد أولئك المجرمين. ووضع داخل السجن في وسط صيحات التهاني للضابط. واعتقد انه حبس في زريبة الأبقار. ولكن توقيفه لم يدم اكثر من ليلة واحدة. ففي اليوم التالي نجح في رشوة الاغا والضابط واستطاع الخروج خفية وسمعت بالخبر عندما كنت أتجول وأتفحص معبد هيكات القريب ويجب أن الضابط كان يجب أن يعيش وان راتبه كان متأخراً لعدة اشهر (ولهذا قبل الرشوة). وهذه الحادثة جعلتني أدرك افضل من السابق المصاعب التي كانت تعانيها الحكومة العثمانية في التخلص من قطاع الطرق.

وكان الشيء نفسه بالنسبة لليونانيين وكانوا عنصراً غير مرغوب بهم جداً. فمثلهم مثل الأرمن كان الأتراك ينظرون إليهم بغيره لان الرجل العثماني البطيء الفهم لم يكن يستطيع منافستهم بالتجارة فهنا كما في أي مكان آخر -كان قاطعوا الأخشاب وساحبوا الماء- وكانوا يعرفون باسم تختجي- كان الطوراني في مناطق البلاد في احسن الأحوال مزارع يحرث الأرض بدون شكوى لكي تغتصب منه عائدات عمله بصورة رسمية أو تغرق بفيضان أهمل القائم مقام السيطرة عليه

أو بصروف الدهر نتيجة نقل الغلاّت في طرق غير معبدة ونهيرات لا تغطيها الجسور. وعانى وادي المانيدر كثيراً التلف الكبير الذي كان يسببه النهر الذي يجري فيه وشاهدت بنفسي المياه تجرى بعرض ثلاثة أميال عند مصبه في ميلنس وخضت في طين الحقول الغارقة لمدة ساعة جنوب أيدن. أن فلاحي آسيا الصغرى هم الذين حملوا عبء حرب البلقان ١٩١٢-١٩١٣. فنظراً لأنهم كانوا عاطلين بسبب المعارك والأمراض تم استدعاءهم في خريف ١٩١٤ لكي يحاربوا مع الألمان في أوربا والقفقاس وبلاد الرافدين. ونقص عددهم بحيث يصعب تصور كيف يمكن للحقول أن تحرث أو المحاصيل أن تنقذ. وحسبما عرفت الساحل الأناضولي لم تكن اليد العاملة الوطنية كافية للمتطلبات الزراعية وكانت تكمل كل صيف بأعداد كبيرة من الألبانيين في موسم الحصاد. أما الأوساط التجارية فقد تشتت لأسباب أخرى. فعلى الساحل طرد اليونانيين من مساكنهم ليموتوا جوعاً في داخل البلاد والأرمن كانت حالتهم أسوأ. فأصبحت الأوضاع في الساحل الأناضولي أسوأ واصعب حالاً من أوضاع سوريا.

تكلمت بصورة خاصة عن الحافة الغربية لأسيا الصغرى لأنها المنطقة التي اعرفها جيداً ولكن الأراضي المحايدة لبحر مرمرة والبحر الأسود ليست اقل خصباً. فمن رأى طروادة وعبر بورما إلى ايزبك ونيقيا القديمة ومن أيزن إلى أزيميت وشرقاً إلى قسطموني توجد أحزمة خصبة مزروعة تمتد فوق السهول وتعرجات الوديان التالية لها. وتقع بعض أجزاء هذه المنطقة ضمن مناطق السياحة. وبالنسبة لأولئك الذين زاروا قونية أو أيدن فهناك المئات الذين يعرفون سهل برسه الذي لا يجاري أو عبروا إلى نيقيا ليلحقوا بالقطار في أزميت. ومثل قونيه كانت برسه عاصمة ليس للسلجوقين فقط وإنما للعثمانين أنفسهم لأكثر من مائة سنة قبل أن يغتصبوا القسطنطينية (٩٩) من البيزنطيين وربما تصبح-والله اعلم -عاصمة عثمانية مرّة أخرى.(١٠٠)

وتختلف كثيراً السواحل الجنوبية لأسيا الصغرى من هاليكارنوسوس وبودروم الحديثة إلى حدود كليكيا. وتنحدر جبال طوروس بشدة نحو البحر بحيث لا توجد في الغالب طريق ساحلي ممكن ولذا يتحتم الوصول إلى آثار الهيلينية التي تــزين ليسيا وبانفيليا. وافضل وسائل المواصلات نحو الداخل كان دوماً من انطاليا التي منها يؤدي الطريق إلى بحيرة بلدور فوق ممر مرتفع إلى الغرب مــن افيرديــر. وتنتصب آثار ساكالاسوس على قمة الممر – وكنت مرة هناك في أواخر شــهر نيسان وشاهدت المكان لازال مغطى إلى منتصفه بالثلوج. أن هذا الممــر القــديم للتجارة كان على وشك الأعمار قبل الحرب من قبل الحكومة الإيطالية التي كانت قد حصلت على امتياز لإنشاء سكة حديدية من أداليا إلى بولــدور حيــث كــان المفروض أن تربط بخط أكردير المتفرع من خط أيدن العائد لنا. والخــشب هــو واحد من الموجدات في المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس سواء هنــا أو فــي كيليكيا ولذا فان تحسين وتطوير الغابات ممكن جداً أما في تركيا الأسيوية حيــث يستغل الخشابين بدون دراية علمية للأخشاب وحيث تقضم المــاعز الأشــجار أو يقطعها صانعوا الفحم فنادرا ما يسمح للأشجار أن تصل إلى ارتفاع جيــد بينمــا يمكن أن تكون الغابات ذات قيمة عالية إذا تم السيطرة عليها بصورة صــحيحة. وإضافة إلى خطوط السكة الحديدية الرئيسية من أزمير والى الداخل والتي ســبق أن تحدثت عنها كان يوجد خطين آخرين اقصر على الساحل.

فالأميال القليلة من خطوط السكة من ميدانيه على البحر الأسود إلى بورصــة كانت موجودة منذ –١٥– سنة أو اكثر ومباشرة قبل الحرب افتتح خطأ فرعيــاً : من خط مناسياسوما والذي هو فرع من خط ازمير–قصبته بحد ذاته. ويصل الخط الفرعي إلى بندرمه على بحر مرمرة غرب ميدانية وبهذه الطريقة يــصل مينــاء ازمير على البحر المتوسط بميناء يقع على المياه الداخلية لبحر مرمــرة. وتــدوم الرحلة بالقطار من أزمير آل القسطنطينية أربعة أيام عن طريق افيون قرة حصار واسكي شهر وهناك خط يبدأ من خط أيدن إلى سوكيه وهو مركز تجارة عــرق

السوس ويصل إلى الساحل الجنوبي تقريباً لان سوكية ليست بعيدة عن مصب مندريس. ولكن لا يوجد أي خط أخر شمالي أو جنوبي عبر أسيا الصغرى إلى الغرب من خط سكة حديد بغداد ولا تقع الطرق التجارية بذلك الاتجاه. فعدا المناطق الصغيرة المكتفية ذاتياً مثل سهل بورسه تميل التجارة في غرب أسيا الصغرى للاتجاه نحو ازمير حيث تجد لها منفذاً إلى البحر.

لقد وصلت إلى نهاية حديثي. والخطوة التالية ستنقلني خارج أسيا الصغرى إلى غاليبولي المسقية بموتانا(١٠١) والى القسطنطينية حيث لا زالت مجالس الشر للجنة الاتحاد والترقي والألمان لا زالت تقود الإمبراطورية العثمانية في طريق الدمار. وإذا ما وضعت نفسي موضع من يكتب ملخصاً عن الأتراك فسوف لن تعوزني الحجج. فلا يوجد من التركي أو تاريخه ما يمكن اتهامه بأنه كان السبب الوحيد للدمار في الآراء التي حكمها. ويقع لوم كبير على عاتق أمم أوربا التي كانت تركيا لها رهينة في لعبة طويلة الأمد ومخجلة من الجشع المثير للغيرة. ولكن زمن هذه الحجج قد مضى لأنها لطخت بدماء ودموع الشعوب المحكومة – فلننظر إلى ما تأتي به الأيام القادمة.

وإني واثقة أن الولايات العربية لا يمكن أن تترك لتبقى تحت الحكم التركي ولا المناطق الجبلية ومن ضمنها كيليكيا(١٠٢) والتي وقعت في مناسبات ثلاثة منفصلة خلال العشرين سنة الماضية وبأوامر من القسطنطينية في أسوأ حالات الرعب نتيجة التناحر الديني. فحيثما كانت السلطة العثمانية موجودة كان على السكان المسيحيين أما الانسحاب أو يؤخذ تعهد ملزما –لكل من أوربا وتركيا– أن لا يضايقوا أو تساء معاملتهم. وحتى لو أسقطنا من الحساب مناطق زراعة الحنطة في الهضبة والأراضي الساحلية كثيرة ومتعددة الخصب –ولو أننا متأكدون أنها سوف لن تترك بدون تطوير– فماذا ستكون نتائج النزوع إلى السلام والتقدم في تركيا الآسيوية؟ فنحن نبحث هنا في إحدى أهم المناطق الزراعية المهمة في العالم. ولا يقل العراق وحده في الخصوبة عن مصر أما بعدد الفدادين

فهي ضعف مصر. ومخازن الخلال السورية بدون طرق المواصلات الحديثة ساعدت على تزويد روما بالغذاء وتجارة الماضي القديم إضافة إلى عالم العصور الوسطى تدفقت نتيجة الحاجة إلى مراكز صناعية شرقية. إن دول المدن الإيطالية البحرية جنوا والبندقية تدين برخائها للتجارة الشرقية، وموانئ بحر الادرياتيك استفادت بنفس الطريقة. وبعد سقوط الإمبراطوريتين العباسية والبيزنطية(١٠٣) بوقت قصير جاء اكتشاف أميركا وافتتاح خطاً تجارياً جديداً عبر المحيط الأطلسي. وربما يغير إعادة المكانة للشرق الأدبي الميزان مرة أخرى أو لنقل يرسي ميزاناً عادلاً بإيجاد سوق كان لعدة قرون في حالة انتظار. وسيضيف هذا السوق كثيراً إلى ثروة العالم. تلك الثروة التي أهدرت بالحروب ويزودها بحقول جديدة لإعادة إنعاش الصناعة في أوربا. وطالما أن كل تجارة ناجحة يجب أن تكون مفيدة بشكل متساوي لكل من الطرفين المعنيين (لأنه لا توجد في التجارة صفقة ناجحة إلا تلك التي يستفيد منها كلا الطرفين المتعاقدين) فيجب أن تصبح الشرق والغرب اكثر ارتباطاً بفوائد مشتركة. (١٠٤)

هوامش القسم الثاني

تركيا الآسيوية

نظرة عامة

(١)(تركيا الأسيوية) يطلقها الأوربيون على إقليم بين النهـرين دجلـة والفـرات والشام (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) ويمتد إقليم بين النهرين ويـدخل في حوزته مدينة حائل وأطرافها.

كما يطلق اسم الأناضول أو الأناطول على القسم الآسيوي من الدولة العثمانية المحصور بين البحر الأسود شمالاً وحدود قفقاسيا إلى السفوح الجنوبية من جبال طوروس ومن البحر المتوسط غرباً إلى الحدود الفارسية الإيرانيـة وقـسم مـن قفقاسيا شرقاً. وكان يسمى قلب الأناضول في زمن اليونـان (الإغريـق) بـ(كبدوكيا) ومركز ذلك مدينة (قيصرية) أما القسم الأوربي من الدولة العثمانية سموه العثمانيون بـ(الروم يلي).

وقد سمى العرب البحر الذي يقع إلى شرق تركيا وهو البحر المتوسط وهـي تسمية أوربية بـ(بحر الروم) أما العثمانيون فيسمونه بـ(بحر سفيد) وكلمة سفيد فارسية تعني (الأبيض) علماً أن في شمال روسيا يقع بحر بأسم البحـر الأبـيض وهو جزء من المحيط المتجمد الشمالي وميناءه اركانجليك.

وعندما عرب –جغرافيو العرب في مطلع القرن العشرين الأطالس الجغرافيـة من الأطالس الأوربية سمو (بحر المتوسط) بالبحر (الأبيض المتوسط) أي جمعوا الاسمين معاً.

وبالمناسبة فان جغرافي العرب سموا البحر المحصور بين الجزيـرة العربيـة وأفريقيا بـ(بحر قلزم) فلما عربه جغرافي الأوربي إلى أطالسهم سموه بـ(البحر الأحمر) والقلزم لون من الألوان الأحمر والمرجاني. ثم أخذ الاصطلاح الأوربي

وادخل الأطالس والخرائط العربية بالتسمية الأوربية (بحر الاحمر) وهي تسمية عربية لان اصلها (بحر القلزم).

(٢) الهضبة الأناضولية وهي التي أطلقنا عليها سابقا بقلب الأناضول (انظر الفقرة ١).

(٣) (الساحل الأناضولي) وتعني الكاتبة مس بيل أو (مس بيل) الساحل الغربي أو ساحل بحر ايجه الذي يقع بين تركيا الآن واليونان. أما الإغريق (اليونانيون القدماء) فيسمون البحر ب Mar أما بحر إيجه فيسموه IONIA.

(٤) كتبت المس بيل مقالاتها عن تركيا الآسيوية بعد احتلال بغداد من قبل القوات الإنكليزية المختلطة وقبل تحرير سوريا بالجيش العربي. وهذا القسم كتب بعد القسم الأول (عرب بين النهرين) وجالت تلك المناطق قبل الحرب العالمية الاولى.

(٥) ما بين النهرين يراجع القسم الأول من الكتاب فقرة(١).

(٦) حكم السلطان وتعني حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني حكم (١٨٧٦-١٩٠٩) توفى ١٩١٨.

(٧) غاليبولي: مدينة تقع في القسم الأوربي التركي على مضيق الدردنيل وهذا المضيق ربط بحر مرمرة ببحر ايجة أما المضيق الذي يربط بحر مرمره ببحر الاسود (سياه باتركي) فهو مضيق البسفور الذي تقع عليه مدينة استانبول (بيزنطية) أو(القسطنطينية).

(٨) العراق: شرحنا ذلك في القسم الأول فقرة أولى. والدراسة التي تقدمها مس بيل تشمل المناطق التي تكون على تماس مع مصالحها السوقية (الاستراتيجية) على طريق الهند التي كانت تسمى درة التاج الإنكليزي ولذا اهتم الإنكليز بهذه المنطقة (المشرق العربي) سواءً الشام أو مصر.

(٩) الأحرف جي. أل. بي G.L.B تعني مس (كرترود لوثيان بل اوبيل) وهي الأحرف الأولى من اسمها. وهي قد ولدت في انكلترا وتوفيت في بغداد (١٨٦٨-

١٩٢٦) لها كتابات عن بلاد فارس وتركيا العثمانية والعـــراق والـــشام أرســـلتها بتقارير إلى حكومتها ولها اطلاع واسع في هذه المناطق ووطدت علاقات مع كثير من الشخصيات وكانت قد زارت هذه المناطق قبـــل الحـــرب العالميـــة الأولـــى ١٩١٤-١٩١٨ تمهيداً لمجيء جيوش بلدها لهذه المناطق. (والذي يرجع إلى مـــا كتبه الأستاذ عبد الحميد العلوجي في كتابه العراق في رسائل المس بيل ترجمـــة وتعليق جعفر الخياط يجد ترجمة لحياة المس بيل مع نبذة سريعة عن الكتب التي ألفت عن هذه المنطقة منذ احتلال بغداد من قبل المغول (التتر) ١٢٥٨ فر. وهي دراسة مفيدة جداً لمتتبعي التاريخ) وقد طبع الكتاب في مطبعة الحرية ببغداد سنة ١٩٧٧. ولتعريف القارئ بشخصية مس بيل في وقتها في العراق كان يـــضرب بها المثل لدى النساء البغداديات بوسع عينيها وزرقة عيونها وجمالها كما حدثتني والدتي وكانت تسمى لدى العامة من الناس وحتى الخاصة بـــ(الخاتون) وهي كلمة فارسية تعني السيدة العظيمة. وكان يسميها رئيس بلدية بغداد عبد المجيد الشاوي أثناء الاحتلال كما حدثني والدي علي آل بازركان بـــ(أم المـــؤمنين) وحاشـــا أم المؤمنين عائشة مثل ذلك والاصطلاح يعني المؤمنين الذين آمنوا بالتعـــاون مـــع الإنكليز. والكاتبة تكتب آراءها التي تمثل النظرة الإنكليزية ودوافعهـــا التوســـعية الاستعمارية إلا أننا نجد في كتاباتها تناقض بين مرة وأخرى لأنها تكتب حـــسب مزاجها النفسي وخاصة عند تقبيحها للأشخاص الذين التقت بهم وعـــرفتهم عـــن قرب.

(١٠) الخطر الألماني المرتد تعني الخطر الألماني الذي له جذور خلفية سابقة.

(١١) تصف الحرب التي شنتها ألمانيا مع مجموعتهـــا التـــي كانـــت الدولـــة العثمانية والنمسا والمجر ... الخ ويطلق عليهم دول الوفاق AX 1S أمـــا الـــدول المتحالفة مع إنكلترا كفرنسا.. الخ تسمى الحلفاء Allies أوAllied بحرب توسعية لأنها كما قالت (إنها تريد اكتساحنا من الساحة العالمية وطمعها في الاستيلاء على

الأراضي التي تخضع لنا). وتظهر من كلام المس بيل الأطماع الإنكليزية ليست جديدة بل قديمة.

وتستشهد بقصيدة أمرئ القيس المعلقة حيث يقول: (١٢)

أَصاحِ ؟ تَرَى بَرْقاً أُريك وَميضَهُ   كلَمع اليَدَيْن في حَبِيٍّ مُكلَّــلِ [١]
يُضيء سَنَاهُ أو مَصَابيحُ رَاهِبٍ   أَهَانَ السَّليط بالذُّبالِ المُفَتَّــل [٢]
قَعَدتُ وأَصْحابي لهُ بَيْنَ ضَارجٍ   وبَيْنَ العُذَيْب، بُعْدَ مَا مُتَــأَمَّلِ [٣]
على قَطَن بالشَّيْم أَيْمَنُ صَوْبِه   وَأَيْسَــرهُ على السِّتَار فَيذْبُــلِ [٤]
فاضْحَى يَسُحُّ المَاءَ حَولَ كُتَيفَةٍ   يَكُبُّ على الأذقانِ دَوحَ الكَنهبُلِ [٥]
ومَــرَّ على القَنَانِ من نَفَيانِهِ   فأنزلَ منهُ العُصمَ من كلِّ مَنزلِ [٦]
وتَيماءَ لم يتْرُك بها جِذعَ نَخلةٍ   ولا أُطُمــاً إلاّ مَشَــيداً بِجَنــدَلِ [٧]
كأنّ ثَبيراً في عَرَانين وَبلهِ   كَبيرُ أُنــاسٍ في بِجادٍ مُزَمَّــلِ [١]

---

[١] ومض البرق ومضا ووميضاً وومضاناً. لمع لمعاً خفياً : الحبى : السحاب المتراكم، كأن بعضه حباً إلى بعض مكلل : يضحك بالبرق.

[٢] السليط. الزيت الجيد– الذبال. جمع ذبالة، وهي فتيلة المصباح والمعنى ماذا ترى يا صاح؟ أتــرى برقاً يضيء سناه في السحاب المتراكم، أو مصابيح راهب أهان الزيت بالذبال المفتول؟ وإهانة يقصد بها الإسراف في استعماله. وفي رواية. أمال.

[٣] ضارج : اسم ماء ببلاد طيء، والعذيب اسم ماء قريب منه– متأمل : أي مأمول : وما زائدة : أي– يا بعد ما أرجو وآمل من هذا البرق الذي قعدت له مع أصحابي، بين ضارج وبين التعذيب!

[٤] قطن، اسم جبل –الشيم : النظر إلى البرق –الصوب : أي المطر الستار ويذبل. جبلان والمعنــى أرى بالشيم ايمن صوب السحاب على جبل قطن، وايسره على جبلي يذبل والستار.

[٥] يسح الماء: يسكبه، كتيفه، اسم ارض–دوح جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة: والكنهبل: نوع من الشجر الضخم. والشاعر يصف المطر بالشدة، يذكر انه لغنة يكب دوح الكنهبل على الاذقان.

[٦] القنان : اسم جبل لبني أسد – نفيان المطر : رشاشه – العصم. الوعول ومفردها اعصم، ســميت بذلك لاعتصامها بالجبال، يذكر أن رشاش المطر مر بالقنان فانزل ما فيه من عصم الوعول.

[٧] تيماء : اسم ارض– الاطم : القصر يريد أن المطر لم يترك بتيماء إلا جذوع النخــل ومــا شيد بالصخر من الاطام والديار.

كأنّ ذُرا رَأسِ المُجَيمِرِ غُدوَةً من السَّـيل والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ [٢]
وألقَى بِصَحَراءِ الغَبِيطِ بَعَاعَهُ نُزُولَ اليَمَاني ذي العِيَابِ المُحَمَّلِ [٣]
كأنّ مُكاكيَّ الجِـواءِ غُـدَيّةً صُبِحنَ سُلافاً من رَحيـقٍ مُفـلْفَلِ
كأنَّ سِباعاً فِيهِ غَرْقَى عَشيّـةً بأرجائِهِ القُصْوَى أنَابيشُ عُنصُلِ [٤]

(١٢) (احمد الهاشمي –جواهر الأدب في أدبيات لغة العـرب– الطبعـة ١٥ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٦ الجزء الثاني صفحة ٤٣) وقد أخطأت مس بيل في نقل الاسم (من ضارب) والأصح (بين ضارج).

(١٣) ارضروم: ولاية عثمانية (محافظة) تقع إلى شرق الأناضول ومركزها يسمى بنفس الاسم وهي محاددة إلـى قفقاسـيا جنـوب روسـيا وتـسمى ألان (ارضنجان).

---

[١] ثبيراً : اسم جبل– في عرانين وبله : في طغيان وبله. البجاد : كساء مخطط يلبسه كبار الأعراب –مومل ملقف. يذكر أن المط ترك بما بله خطوطاً في ثبير تشبه خطوط السجاد.

[٢] المجمير : اسم جيل. وذرا رأسه: أعاليه الغثاء: ما لا يخالط زبد السيل من ورق الشجر والحشيش –يقول أن رأس المجيمر أضحت من السيل والغثاء كأنها فلكة مغزل، يريد أن الغثاء أحاط بذراً الجبل إحاطة الفلكة بالمغزل.

[٣] الغبيط : ارض لبني يربوع – بعاعه : ثقله– العياب : جمع عيبة، وهي ما يضع الرجل فيه متاعه. يريد أن المطر ألقى ثقله بصحراء الغبيط : كما ينزل الجمل اليماني المحمل بالعياب.

[٤] المكاكي: ضرب من الطير يصيح في الغدوات –صبحن : شربن شراب الصباح– السلاف والاسلافة : صفوة الخمر–الرحيق: الخمر – مفلفل : وضع عليه فلفل، يريد انه لذاع. والشاعر يذكر أن المكاكي طربت لصفاء الجو بعد المطر حتى لتحسبها لمرحها شربت سلاف الرحيق.

(*) وبالمناسبة فان جميع أسماء المدن التي كانت تسمى في الدولة العثمانية غيرت أسماءها دولة تركيا الحديثة التي أسسها كمال اتاتورك ولذا كان علينا صعوبة كبيرة في تعيين المواقع.

(*) ونضيف ملاحظة أن الكاتبة والسائحة مس بيل سمت أسماء هذه المدن بالأسماء الإغريقية (اليونانية) القديمة وهذه صعوبة أخرى في تحديد مناطق المدن إلا بصعوبة بعد مقارنتها بالأطالس التاريخية الأوربية.

(*) وتضيف معلومة أخرى أن السائحة مس بيل سمت الأسماء في بلاد الشام بالأسماء التوراتية.

(*) وتفسير لهذه الظاهرة أن مس بيل أرادت أن تقنع القارئ الأوربي أن هذه المدن ومناطقها هي ليست لسكانها الحاليين الأتراك والعرب بل للإغريق واليهود الصهاينة وهذه طريقة للدس الاستعماري الأوربي.

(١٤) (ولهيلم إمبراطور ألمانيا) (١٨٨٨-١٩١٨) فر والاسم هذا كتب باللغة الإنكليزية ويكتب بالفرنسية (غليوم) ويكتب باللغة الألمانية (فيلهلم) وجميعها تعني بالعربية (وليم). والاسم الكامل له وليم الثاني هو فرايدريخ فليهلم فكتور البرت (١٨٥٩-١٩٤١) وهو كان قبل الوحدة الألمانية ملك بروسيا من أسرة آل هوهنزولرن ثم اصبح امبرطور الرايخ وفي عهده خاضت ألمانيا الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ ثم تخلى عن العرش بعد خسارتها الحرب.[1]

Webster's Biographical Dictionary-first Edition the Collegiate Press WIS, U.S.A. (1) 1943.p. 1576.

(١٥) ولهيلم زار الدولة العثمانية مرتين لدعم مصالحه الاقتصادية[١] وفي زيارته الثانية زار القدس ودمشق ووضع إكليلا من الزهور على ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي [٢] (محرر القدس ٥٨٣ هـ – ١١٨٧م) مما آثار كما تقول مس بيل سخرية أوربا النصرانية التي قهرها صلاح الدين في حروبه التحررية في الشام (١١٦٨-١١٩٣) فرنجية هذه خلفيات أوربا تجاه العرب المسلمين. يقول الدكتور و. ب. ستيفس الإنكليزي [٣] يقول ما معناه ان مجيء الإسلام احدث مشكلة في العالم المسيحي ودخل معنا في صراع مرير هددنا في عقر دارنا في بداية الأمر ولكن صبرنا واستطعنا إعادة الكرة عليه وأول اتحاد أوربي جرى بين فرنسا والإنكليز في معركة عكا ١١٩١ فرنجية ويخرج الكاتب باستنتاج أن وحدة أوربا ضرورية للوقوف بوجه المسلمين المهددين لنا وهذه الوحدة هي السبب في نظرتنا لسياسية عالمية لنا. ونقول أن أمريكا تدخل في العالم الأوربي وتسميها (اورميكا) وقد أكدت نظرية النظام العالمي الجديد في سياستها الحالية. وتحمل مس بيل نفس هذه الأفكار وطرحتها في اغلب كتاباتها. [٤]

---

(١) وليم الثاني: فريدريك ولهيلم فكتور البرت

امبراطور المانيا (دويجلن) وملك بروسيا ١٨٨٨-١٩١٨ زار الدولة العثمانية مرتين

الاولى: في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٩

الثانية: في تشرين الاول – الثاني (نوفمبر – ديسمبر) ١٨٩٨

المصدر: لوتسكي تاريخ الاقطار العربية ص٣٨٧ دار الفارابي بيروت مكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية اوفسيت بيروت ١٩٧٢ من الطبعة الاولى موسكو ١٩٧١.

(٢) اللواء محمد مختار باشا – التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية الطبعة الأولى دراسة وتحقيق وتكملة د. محمد عماره، مطبعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٨٠ المجلد الأول صفحة (٦١٥-٦٢١).

(٣) الأستاذ و. ب. سيفنس وهو أستاذ الأدب وأستاذ اللغات السامية في جامعة كلاسكو ومؤلف كتب الصليبيون في الشرق حيث نشر بحثنا تحت عنوان الحروب الصليبية (الغزو الصليبي) روحها واثرها، نتائج الاتصال بين (النصارى) والمسلمين في مملكة اللاتينية ببيت المقدس (القدس) في كتاب (تاريخ العالم) لناشره السير جون.م. هامرتن المجلد الخامس صفحة ١٧٣ الفصل التاسع بعد المائة مطبعة النهضة المصرية بمصر ١٩٥٥.

(٤) **THE LETTERS GERTRUDE Bell-Edited by Lady Bell, Published by penguin Books (pelican Books volume two –1939).**

(١٦) العاصمة الجنوبية للدولة العثمانية تقصد مس بيل بغداد.

(١٧) بوميرانيا Pomeranie نسبة لهذه المقاطعة وهـي إحـدى مقاطعـات بروسيا وتشرف على بحر البلطق ومركزها مدينة شتشسين وهذه المقاطعة تعتبر القلب النابض لألمانيا ولوحدة ألمانيا ومنها كانت انطلاقـة هـذه الوحـدة ١٨٧١ فرنجية أما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ فقد جزأت وضمت اغلبهـا إلى بولندة وسمتها الأخيرة Pomotze[1]

(١٨) الأرض المقدسة = ارض فلسطين وما تحويها من أماكن مقدسـة لـدى الأديان الثلاثة اليهود والنصارى والمسلمين.

(١٩) كما قلنا سابقاً أطلقت الكاتبة الأسماء الإغريقية (اليونانية) علـى جميـع المدن والأنهار أو الوديان إلا القلة منها وأسباب ذلك إنها تريد انه توحي للقـارئ الإنكليزي وغيره أن هذه المنطقة إغريقية اغتصبها المسلمون الأتـراك فمـثلاً: ازمير تطلق عليها سميرنا سهل مياندرس ويقع جنوب ازمير ويطل علـى بحـر ايجه بالقرب من كوشاداس الحالية وافسوس وكانت زمن الإغريق ضمن مقاطعة ايونيا وتقع جنوب غربي مدينة سلسوك.

(٢٠) كان لهذه المدينة عدة أسماء منذ تأسيسها

١) البيزنطية ٢) قسطنطينية ٣) إسلام بول ٤) استنبول ٥) آسـتانة ٦) در سعادة ٧) الباب العالي ... الخ وقد أسست منذ ألألف الثاني قبل الميلاد ثم أبـدل

وقد عربه الأستاذ جعفر خياط وعلق عليه وقدم له الأستاذ عبد الحميد العلوجي تحـت عنـوان العراق في رسائل مس بيل –مطبعة دار الحرية ببغداد ١٩٧٧ صفحة ١٧٥ المعربة.

(١) راجع

Putzger, Historicher Weltatlas, Velhagen Klasing, Berlin und Bielefeld 1970 p. 141 خارطـة وسط أوربا ١٩٤٥-١٩٦٠.

اسمها الإمبراطور قسطنطين الكبير حاكم روما (٢٧٤-٣٣٧) فرنجية[٢] ثم سقطت بيد السلطان العثماني محمد الفاتح ١٤٥٣ فرنجية [١] وأصبحت عاصـــمة للدولـــة العثمانية حتى سنة ١٩٢٢ واشتهرت باسم استنبول.

(٢١) تقصد (بالمستثمر) التاجر أوربي الذي يريد أن يستثمر أمواله في الدولة العثمانية.

(٢٢) شركة الشرق يقصد الإنكليزية وليس الهولندية.

(٢٣) حرب القرم: (١٨٥٣-١٨٥٦) فرنجية رفضت الدولة العثمانية مطاليب روسيا بحمايته النصارى الذين يقطنون الدولة العثمانية. وجذور القضية تعود إلى صراع انكلترا وفرنسا من روسيا، وأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا في أيلول ١٨٥٣ بتحريض من انكلترا وفرنسا ثم ساعدت هـــاتين الـــدولتين الدولـــة العثمانية بحملة بحرية عسكرية عبر المضايق والبحر الأسود وأنزلت جيوشها في شبه جزيرة القرم جنوب روسيا وفي منطقة ميناء سيباستبول وبعد معارك شديدة توصلت الأطراف المتنازعة إلى عقد سلام مبدئي في شباط ١٨٥٦ ثم عقد اتفاقية بعد أسابيع.

(٢٤) بلاد فارس كانت تسمى بهذا الاسم إلا إن الشاه رضا بهلوي غير اسمها من هذا الاسم إلى اسم إيران سنة ١٩٣٥ وعلى هذا الأساس غيرت شركة نفـــط فارس اسمها من هذا الاسم إلى اسم شركة النفط الإيرانية. [2]

كان يحكم بلاد فارس العائلة ألقاجارية وفي سنة ١٩٢٤ استولى رئيس الوزراء رضا شاه بهلوي على مقاليد الحكم وطرد العائلة ألقاجارية وكان الـــشاه تطلعاتـــه

---

[٢] المنجد في الأعلام الطبعة الثامنة –المطبعة الكاثوليكية بيروت ص ٥٥١.

[١] ن. م. س. ص ٦٣٨.

[٢] Walter theimer-the penguin political Dictionary , London-primted 1939-p. 149, 2 Edition. * A Dictionary of Politics-5 Editions, penguin Books , by Florence Elliott and Michael summerskill, England, 1966 p. 193+. The Columbia Viking desk Encyclopedia-Edition At Columbia university.u.s.a. First printing 1966, p. 871 & 1409 =

قومية فأذكى القومية الفارسية وحيث أن بلاد فارس يتكون شعبها من عدة قوميات (العربية والكردية والترك والأذربيجانية والفرس) وجد أن اسم فارس يعني للقوميات و للشعب أن هناك استعماراً فارسي لها ولاراضيها، وكون اصل القومية الفارسية من الجنس الآري كما يتصور غير اسم الدولة إلى إيران حتى يبعد اسم الهيمنة الفارسية على القوميات المتكونة منها الدولة ثم أن اسم إيران اقرب لكلمة العنصر الآري.(١)

(٢٥) تقصد الكاتبة ألمانيا المنافسة لانكلترا في بسط نفوذها داخل الدولة العثمانية.

(٢٦) كروب: اسم يطلق على مؤسسة كبرى لصناعة الحديد والصلب من حربية ومدنية –في ألمانيا تأسست ١٨٤٧.(٢)

(٢٧) أن الموقف التحليلي الذي نصل إليه بعد مضي اكثر من تسعين سنة أن الأوربيين قاطبة كانوا ضد الدولة العثمانية باطنياً لأنها هددت قلب أوربا بغزوها فينا عاصمة النمسا والمجر اكثر من مرة منها ١٦٨٣ وكانت تحكم النمسا عائلة آل هابسبورك النمساوية (٣) وعملوا بشكل أو بأخر على تمزيق الدولة العثمانية (الرجل المريض) كما يصفونها فكل دولة أوربية عملت في مجال معين داخل الدولة العثمانية وخارجها حتى وصل الأمر أخيرا لتقسيمها والاستيلاء على الغنائم

---

(1) A.W. Palmer-A Dictionary of Modern history 1789-1945 Penguin Books , London published 1967 p. 254.

وقد عرب الكتاب الأخير من قبل سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين–دار المأمون للترجمة والنشر ببغداد ١٩٩٢ (بجزئين). إضافة إلى ملاحظاتي. ن. م. س.

(2) **أحمد عطية الله القاموس السياسي–دار النهضة العربية بمصر الطبعة الثالثة ١٩٨٦ صفحة ٩٦٩.**

(3) **د. سيار الجميل –العثمانيون وتكوين العرب الحديث من اجل بحث رؤيوي معاصر مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت ١٩٨٩ص ٣٩١**

من أراضيها وعلى شكل حصص، ففرنسا عملت على تشجيع الحركات القومية التي تتألف منها الدولة العثمانية وألمانيا دعمت القومية الطورانية الحاكمة عسكرياً وتوجهات أخرى ضد قوميات الدولة العثمانية الأخرى وإنكلترا حاولت بشتى الطرق التجارية التدخل في شؤون الدولة العثمانية وروسيا كانت تجابه الدولة العثمانية عسكرياً وأخذت أراضي منها، كما أن أوربا عملت ليس فقط ذلك بل أججت الصراعات الدينية والقومية بين تلك المجاميع في الدولة العثمانية وبرزت حالة خطرة هي عدم الثقة حصلت بين تلك الفئات الدينية والقومية وانتهى الأمر لتمزيق الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨.[١]

(٢٨) لم يكن العراق زمن حكم الدولة العثمانية ولاية واحدة بل يتكون من ثلاثة ولايات ولاية الموصل وولاية بغداد وولاية البصرة.

(٢٩) الفرمان وهو الأمر السلطاني الذي يصدره السلطان العثماني لأمر ما مهم في دولته يقابله الآن مرسوم ملكي أو جمهوري.

(٣٠) تقصد الكاتبة سواحل تركيا المطلة على بحر ايجة السواحل الغربية.

(٣١) اليزيدية : هم من العرب وليس كما تدعي مس بيل فكل هدفها وهمها أن تجد مسرى يلائمها في تقسيم الشعب الواحد وتشتيته والدق على مسمار التفرقة وبث شعار عدم وحدة الشعب وخلق صراعات دينية وصراعات قومية وصراعات طائفية وهذا ما نجده في كتابنا الذي بين أيدينا ونسيت ان دولتها تتكون من القوميات التالية الانكليز والأسكوتلنديين والولش والأيرلنديين ودعت ان اسمها بريطانيا او المملكة المتحدة لتخفي استعمارها لهذه المناطق.

واليزيدية عقيدة دينية تقوم على الغلو في يزيد بن معاوية وعلى مخافة الشر المتمثل في الشيطان ومعتقداتهم مزيج من النصرانية والإسلام وينحصر وجود اتباعها في شمال العراق في أقضية سنجار و شيخان وقسم قليل منهم في جهات

---

[1] د. هاشم صالح التكريتي –المسألة الشرقية المرحلة الأولى ١٧٧٤-١٨٥٦ مطابع دار الحكم ببغداد ١٩٩٠ وغيرها من المراجع مع استنتاجاتي.

حلب وارمينا والقوقاس ويقدسون في العراق مقاماً باسم الشيخ عديّ ولهم كتابه اسم الجلوة. (١)

(٣٢) رهبان باسل: هم جماعة القديس باسيليوس أسقف قيصرية أو كبدوكيا ومن المشهورين باللاهوت عاش ٣٢٩-٣٧٩ فرنجية وحارب المذهب الاريوسي وهنا دير لهم (٢).

(٣٣) النساطرة هم الآثوريون ويقسمون عدة قبائل منها التيارية وهم النساطرة وينتسبون إلى نسطور بطريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣٠ فرنجية حرمه المجمع ألافسس المسكوني ٤٣١ فرنجية بسبب نكرانه تسمية مريم أم الله وقال بالاقنومين. وقد سكن اتباعه مناطق بين الموصل وأرمينيا وازدهرت حياة الرهبنة بينهم وقد أوفدوا المبشرين إلى الشرق من آسيا منذ القرن السادس ميلادي وعن طريقهم انتشرت النصرانية في بلاد فارس والهند والصين وكانوا مقربين من الخلافة العباسية وقد لاقوا على أيدي الأتراك المظالم والتهجير سنة ١٩١٤ (٣) وهو أحد مذاهب النصرانية.

---

(1) راجع كتاب محمد يونس السيد عبد الله وهب –تاريخ تلعفر قديماً وحديثاً الجزء الأول مطبعة الجمهورية بالموصل ١٩٦٧ وكتاب ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الأخرى في منطقة الجزيرة للأستاذ الدكتور قحطان احمد عبوش الحمداني مطبعة الأزهر ببغداد ١٩٦٩، والمنجد للأعلام الطبعة الثامنة ص ٧٥٠. ١

(2) المنجد للأعلام الطبعة الثامنة صفحة ١١٣. وللعلم أن آريوس كاهن إسكندري (من مدينة الإسكندرية بمصر) قال أن (الكلمة) غير مساوية للأب في الجوهر فحرمه المجمع النقاوي ٣٢٥ فر ومن اسمه سمي المذهب الاريوسي والاريوسي التي استمرت حتى أواخر القرن الرابع في الشرق والقرن السابع عند القوط (فرنسا) واللومبارديين (في إيطاليا) (المنجد للأعلام صفحة ٣) واستطاعة الكنيسة الكاثوليكية بمعية الإمبراطور القضاء على هذا المذهب اجتثاثه من أوربا بالدماء كما اجتثت العرب المسلمين من الأندلس.

(٣) المنجد للأعلام الطبعة الثامنة صفحات ٧٠٨.

(٣٤) اوكزنيفون أو زينون الأيلي هو أحد جنود الإغريق (اليونانيين) عاش في القرن الخامس قبل الميلاد درس الفلسفة السقراطية وكتب حولها المقالات. تعلم على يد برمينديس صاحب البراهين على عدم وجود الحركة. [١]

(٣٥) الأفشاريون: قبيلة تركمانية كانت تقيم في شرق ايران واشهر من انجبته (نادر قلي) او (نادر شاه) الذي عمل في خدمة الاسرة الصفوية ثم اعلن نفسه شاها بعد قتله آخر شاهات الصفويين وهو الذي غزى العراق عدة مرات ابرزها محاصرته المدن العراقية (وخاصة بغداد والموصل) سنة ١١٥٦هـ = ١٧٤٣ فر ثم اغتيل سنة ١١٦٠هـ = ١٧٤٩فر). د. عماد عبد السلام رؤوف.

ب. يوروك هم البدو الرعاة من القبائل التركية القديمة ويعتبرون اصل العرق التركي قدموا من الشرق وسكنوا المرتفعات الجنوبية الغربية من الأناضول ومركز المنطقة مدينة قونية قرب بحيرة بيشهر وتشتهر هذه المنطقة بمنسوجاتها الصوفية والتي لها ألوان مميزة وخاصة البسط من الأعمال اليدوية [٢].

(٣٦) هذه انهار أربعة أ. مندرس = مياندرس يقع غرب تركيا يجري من الشمال الغربي ثم الغرب ويصب في بحر ايجة. ب. هاليس = قزل ارمق ينبع من وسط تركيا ويصب في البحر الأسود ج. سنكاريوس = سكورفا ويصب في بحر الأسود قرب مضيق البسفور د. هرمس : يصب في بحر ايجة شمال اوزمير. [3]

(٣٧) الصناعيات موقع بين العمارة والكوت بعد النخيلات باتجاه الكوت. [4]

---

[١] ن. م. س. صفحة ٣٤٢.

(2) الانسوكلوبيديا البريطانية Yu-ruk صفحات ٨٤٨ المجلد.

[3] كما قلنا سابقاً أن الكاتبة تستعمل الأسماء الإغريقية فينتج لنا صعوبة تحديدها.

[4] طونزند خواطر طونزند محاربتي في العراق تعريب عبد المسيح وزير مطبعة دار السلام ببغداد ١٩٢٣.

(٣٨) الكاتبة تقصد آيات القرآن الكريم ((كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، وكذلك اورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)) [١]

[١] **سورة الدخان آيات ٢٥و ٢٦و ٢٧و ٢٨و ٢٩.**

المقالة الأولى

ولايات عربية- ولاية بغداد

(٣٩) تقصد الكاتبة أن القوات العثمانية لا أزالة في سوريا وتعني بسوريا آنذاك (الشام) وهذه تشمل (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن).

(٤٠) دخلت القوات المحتلة بغداد يوم الأحد ١١ آذار ١٩١٧ فرنجي المصادف ١٧ جمادي الأولى ١٣٣٥هـ وعلى رأسها الجنرال مود.

(٤١) تقصد بذلك الشعب العراقي.

(٤٢) خليل باشا قائد الجيش السادس العثماني في العراق.

(٤٣) وصلت مس بيل إلى بغداد في ١٥ نيسان ١٩١٧ فرنجية.

(٤٤) انظر أيها القارئ من إجابة مس بيل للعسكري العربي بكلام مرن وخبيث لان التحالف غير الاتفاق.

(٤٥) تقصد الكاتبة (انه يموت وهو مطمئن) وهي جملة مأخوذة من صلاة شمعون في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني آية ٢٩-٣٢ والتي تستعمل كنشيد ديني (والآن دعنا نرحل) وهذه هي الكلمات الأولى من النشيد باللغة الفرنسية.

(٤٦) أيها القارئ العربي الكريم أن تعجبها وارد من خلفيات ثقافتها وخيالها الأوربي ولذا تلاقي هي صعوبة في فهم حقائق مجتمعنا وكما قلت دائماً أن المدنية تنتقل بسرعة إلا أن الثقافة لا يمكن نقلها إلا بصعوبة جداً وان نقلت لابد أن تتأقلم مع الثقافة المحلية لأنها مرتبطة باللغة واللغة مرتبطة بالفكر وهضم الأفكار مهم جداً في حفظ الثقافة لان شخصية الإنسان تظهر من ثقافته وهنا اقصد بالثقافة ليس التعليم والقراءة بل الموروثات من حكايات وأساطير ومشاهدات وهذه تنتقل من جيل إلى جيل ولا يمكن استعارة الثقافة فما يقتنع به الإنسان وما لا يقتنع به شيء لازم للنفس الإنسانية وهنا تأتي صعوبة أزالت المعتقدات أو قلعها كما يتصور

البعض إلا بالتدريج والممارسة وإحلال شيء مكان شيء آخر أي يسلب فكرة وتحل محلها فكرة أخرى، وحسب تجربة الاتحاد السوفيتي فشلت قلع المعتقدات من الشعب.

ونضيف على كلام مس بيل إنها تكيل بمكيالين وأدوات قياسها الفكرية مبنية على خلفياتها الحضارية ولذا تجد ذلك تناقضاً في تفكيرها لان مبدأها تجاه الشعوب الأخرى التفرقة وعدم توحد مجتمعاتهم وهذه نظرة الإنكليز في كل ما كتبوا. كانوا يتعجبون من وحدة الشعب قبل وأثناء ثورة العشرين وكان بودهم تمزيق الأهالي وأن يدخلوا هؤلاء في صراع مرير ويبقى المستعمر يتفرج على الساحة وهو يقودها كما يريد من البعض أن ينسجم بما يسميهم بالمعتدلين الذين يود أن ينفذوا ما يريده هو كما حاولوا في الهند ومناطق أخرى حكموها.

(٤٧) هكذا يصف المستعمرون تراثنا الفكري العربي الإسلامي وكلهم سواسية الأوربيون في نظرتهم لنا نظرة كلها مصالح.

(٤٨) تقصد الشخص المسؤول عن جامع مرجان.

(٤٩) لقد تناست مس بيل أن إنكلترا مثل غيرها من رجال الدول الذين ساهموا في الحفريات داخل المدن العراقية القديمة وقد نهبوا هم أيضا ولا تفريق بين الدول الأوربية التي نهبت آثارنا ومن يزور معارض الآثار في دولهم يجدها موجودة فيها ولا فرق بين ألمان وإنكليز والفرنسيين وغيرهم ومن كلامها تحاول أن تحرم الآخرين من النهب وتصفى الأمور لهم.

(٥٠) شركة الشرق هي شركة الهند الشرقية إلا أن الكاتبة رفعت كلمة الهند لماذا؟ هذه الشركة شركة تجارية تأسست أيام القرن السادس عشر في عهد الملكة اليزابيث الأولى. وكان هدف الشركة الأول هو كسر طوق الاحتكار التي كانت تضربه الشركات الهولندية حول توابل الهند. وازداد نفوذها تدريجياً إلى اصبح لها جيشاً خاصاً بها الذي تمكن في سنة ١٧٥٧ فر من السيطرة على الهند. وعندما ثار جيش الشركة في عام ١٨٥٧ طالباً الاستقلال عن إنكلترا سارعت الحكومة

الإنكليزية إلى تولي الحكم مباشرة بعد أن سيطرت على الوضع إلى أن استقلت الهند عام ١٩٤٧. [1]

(٥١) تقصد ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني.

(٥٢) Great: (Great Government) لها عدة معاني منها ضخم ووافر وواسع وكبير وعظيم وشهير...الخ وعندما أطلقت هذه الصفة كانت تعني في أول استعمالها واسع كبير لان إنكلترا مستولية على شبه جزيرة بريتاني بفرنسا واستمر استعمالها إلا إننا عندما عربنا الكلمة لم نعربها كأصلها بل اخذ مجازاً كلمة (العظمى أو العظيمة). ومعناها (الحكومة الشهيرة). وهي إنكلترا.

(٥٣) قدمت مس بيل إلى بغداد من البصرة صعوداً راكبة باخرة نهرية ووصلتها في ١٥ نيسان ١٩١٧ فر.

---

[1] د. عبد الوهاب –الكيالي وكامل زهيري –الموسوعة السياسية. طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٤٧ صفحة ٣٣٥.

المقالة الثانية

ولاية ذات النهرين –الجزيرة

(٥٤) لقد عرفنا المنطقة سابقاً وقد حددتها المس بيل كذلك ووصفتها وتعني هي سنجغ زور حسب التصنيف العثماني ومعناه لواء دير الزور.

(٥٥) اورفة وهي من المدن التاريخية القديمة كان اسمها في زمـــن الإغريـــق (انتوشيا) ثم (هيروبوليس) ثم(كاستيالا) أما في زمن الرومان (اديسا) [1] أما فـــي زمن الدولة العربية الإسلامية (الرها) [2] استمر هذا الاسم إلى أواخر القرن الثامن عشر حيث سميت (اورفة). والمنطقة المحيطة بها كانت عشائر عربيـــة متعـــددة منها القرغول والقيسية.

(٥٦) أن حقد ألاوربيين على لآشوريين نـــاجم مـــن تـــأثرهم بـــالتوراة. لان الاشوريون أدبوا العبرانيين تأديباً عظيماً حيث كانت لهم دولتان السامرة ويهـــوذا وازيلتا. [3]

(٥٧) كعادة الأوربيين يسمون حركة التحرر العربية الإسلامية لتحرير العراق من النير الساساني والشام ومصر من النير البيزنطي الروماني بالغزو إلا انهم لا يسمون الغزو الصليبي للوطن العربي بغزو بل بالحروب الـــصليبية او حـــروبهم الاخرى.

---

(1) الأطلس الألماني الذي ذكرناه سابقاً Putzger صفحات ١٦، ٢٦.

(2) واستمر اسم (أوديسا) إلى القرن الثامن الميلادي حيث سميت (الرها) راجع الأطلس- Historical Atlas of the Djambatan, Amsterdam–Muslim peoples ١٩٥٧ صفحة ٩ ثم سميت (اورفة) حديثاً ص 53.

(3) د. احمد سوسه العرب واليهود في التاريخ دار الحرية للطباعـــة ببغـــداد ١٩٧٢ صـــفحات ٣٠٢ وما بعدها.

(٥٨) تنكر الكاتبة عروبة المنطقة وهي منذ القدم بل تعطي للقارئ الأوربي تصوراً كاذباً عن عدم تواجد العشائر العربية في هذه المناطق كأن سكان هذه المناطق كانوا ليسوا عرباً.

(٥٩) تحاول الكاتبة جهدها تشويه صورة العرب كأن بلدهم (الأنكليز) لم يمروا بمثل هذه المرحلة وإلا (روبن هود) و (دك ترين) و(توم كينك) من هم ؟

(٦٠) توحي الكاتبة إلى حكومتها انه يمكن السيطرة على هذه العشائر بالسيطرة على أماكن تموينهم إذا لم يمتثلوا لأوامرها.

(٦١) السر اوستن هنري لايرد (١٨١٧-١٨٩٤) عالم آثاري إنكليزي ودبلوماسي نقب في نينوى وكالح وبابل وقد انتخب عضواً في البرلمان الإنكليزي عن حزب الأحرار وكان سفيراً لبلاده في مدريد والقسطنطينية. وقد تعاون مع هرمزد الرسام الاثاري وعالم الآشوريات ومن مواليد الموصل وكذلك غيرهم.

(٦٢) الحضر مدينة أسسها العرب جنوب الموصل تقع على طرق المواصلات بين بلاد فارس والشام وكانت تسمى (عربايا أي بلاد العرب) وكان لها نفوذ واسع تجاري وسياسي حاولت جيوش الرومان الموجودين في الشام أزالتها إلا إنهم فشلوا أمام دفاعات العرب وحاولت الدولة الساسانية إخضاعهم لها واستمرت الحروب بينهما حتى سقطت بأيدي الساسانين سنة ٢٢٦ فرنجية [1].

(٦٣) لقد تكلمنا عن اليزيدية وقلنا انهم من العرب كما يقول كتابهم واشرنا إلى ذلك فلا حاجة لتكرار ذلك.

(٦٤) قزل باش تعني أن شعر رؤوسهم يضفرونها على شكل قصائب متدلية شكل الذؤابة ومعنى الكلمة ذؤابة من الشعر وباش ذي الرؤوس وهؤلاء قبيلة تسكن وسط الأناضول.

---

[1] ماجد عبد الله شمس الحضر العاصمة العربية مطبعة التعليم العالي ببغداد سنة ١٩٨٨.

(فهم ذوي الرؤوس الحمر لأنهم كانوا يرتدون عمائم حمر لها ١٢ ذؤابة على عدد أئمة آل البيت لدى الشيعة) .

(٦٥) هذه الصورة التي كان يعرفها الإنكليز عن العراق سنة ١٩١٧ وعن معادنه حتى تدفق النفط من أبار كركوك في ١٥ تشرين الأول ١٩٢٧ والى إيصال أول خط أنابيب للنفط إلى البحر المتوسط سنة ١٩٣٤. على أن الشركة الإنكليزية أبدلت اسمها من شركة النفط التركية إلى الاسم الجديد شركة نفط العراق وذلك بتاريخ ١٥ حزيران ١٩٢٩ بعد تأسيس الدولة العراقية وان العراق ليس فيه نفط فقط بل معادن كثيرة منها الكبريت والفوسفات والزئبق .. الخ وبلد زراعي من الدرجة الاولى ووجود النهرين فروعهما.

المقالة الثالثة

ولايات عربية –ولاية سوريا

(٦٦) الدروز : فرقة أسسها الداعيان درزي وحمزة بن علي بن احمد في أيام الخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠١٢) فر انتشرت في سوريا (حلب وبانياس) واستوطن الدروز لبنان منذ أواخر القرن ١٢ فر في (وادي تيم) وهي منطقة في لبنان ينتهي عندها غرباً جبل الشيخ ومن أهم قصباتها راشيا واندمج تاريخهم بتاريخ الجبل منذ القرن ١٥ فر. هاجرت أعداد منهم إلى سوريا في أواخر القرن ١٧ فر فقطنوا اللجاه ومرتفعات حوران التي دعيت بجبل الدروز وهي فرقة باطنية وكانت الدروز تناصر الحاكم بأمر الله في مصر.

(٦٧) النصيرية : طائفة من أهل الشيعة نسبوا إلى ابن نصير وكيل الأمام الحادي عشر العاملي حسن العسكري المتوفى ٨٧٣ فر في سوريا.

(٦٨) نقصد بذلك الحملة الهستيرية الدموية التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي ضد كل القوميات الساكنة في الدولة العثمانية ومنهم العرب الذين حاولوا جهدهم إقناع الأتراك بحق حصولهم على حقوقهم القومية ويعتبرون اكثر من نصف سكان الدولة العثمانية بعد أن حرموا من ذلك مئات السنين وقد استغلت أوربا ذلك استغلالاً كبيراً وخاصة للقوميات المسيحية الساكنة في الدولة العثمانية أمثال الأرمن والاثوريين. كما أن التباكي على العرب من قبل مس بيل هو كلام فارغ بعد أن تبين لنا حقيقة موقف الإنكليز من تطلعات العرب السامية وقد جاء هذا الكلام المبطن قبل تحرر سوريا من قبل القوات العربية وإخراج الأتراك منها ودخول القوات الإنكليزية المختلطة بعد ذلك لسوريا سنة ١٩١٨.

(٦٩) بعد انسحاب مصر من الشام ساد القلق فيها لاختلاف الطوائف والمذاهب جر الأمر إلى صراع دموي ذا جبهات متعددة فلما كانت سنة ١٨٦٠ وفي ربيعها

اشتد الصراع الدموي الذي كانت تغذية جهات متعددة منظورة وغير منظـــورة – بينهم حتى سنة ١٨٦٤ ذهبت ضحايا كثيرة من جميع الأطـــراف حيـــث تـــدخل السلطان العثماني والدول الأوربية –وهذا هو هدفها– في حسم النـــزاع وقـــسمت سوريا إلى ولايتين أما لبنان ففصل عنها ومنح نظاماً ممتازاً قائم علـــى اســـتقلال واسع للحكم الذاتي وعلى رأسه حاكم مسيحي. أن هذه الاضطرابات التي حـــدثت والتي ذكرناها آنفاً نبهت الصفوة المتعلمة إلى أهمية التعليم وضرر الجهـــل ثـــم الشروع في الدعوة للتحرر من الحكم التركي وهؤلاء كانوا ذا ثقافة عربية فكانت هذه بذرة للحركة العربية في وحيها وقوميتها التي ولدت حركة العرب القومية فيما بعد. (١)

(٧٠) إن هذا الكلام هو كلام مبطن وسيكشف فيما بعد وهو مدخل للحديث عن فلسطين العربية ونظرتها لليهود وهكذا الكلام قبل اعلان وعد بلفـــور ٢ تـــشرين الثاني ١٩١٧ وبعد اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ وقبل الكشف عنها من قبل روسيا السوفيتية.

الكاتبة عندما قسمت سكان فلسطين إلى ٢٥% يهود ٢٠% مـــسيحيين و٥٥% عرب ونست أن المسيحيين هم عرب أيضا وليسوا من قوميات أخرى وان الـــذي يقع على المسلمين يقع على المسيحيين أيضا كما سنرى بعد ذلك.

(٧١) تستعمل الكاتبة بدل الأسماء العربية أسماء غير عربية (عبرية) مأخوذة من التوراة حتى توجه للقارئ الإنكليزي أن هذه الأرض غير عربية اصلها إلـــى العبرانيين وهكذا تظهر الكاتبة ما تخفيه تحت جلدها.

(٧٢) تقصد حاكم مصر الحاكم بأمر الله الفاطمي.

(٧٣) نسيت الكاتبة أن هذه البلاد تحكمها دولة واحدة هي الدولة العثمانية ولذا مواطنيها لا يحتاجون إلى جوازات مرور أو سفر عند ترحالهم فيها.

---

[1] جورج طونيوس– يقظة العرب تعريب علي حيدر الركابي مطبعة الترقـــي بدمـــشق ١٩٤٦ صفحات ٥٠–٥٦.

(٧٤) المارونية من المارونيين وهم طائفة مسيحية تتبع المــذهب الكــاثوليكي والبابا في روما ونسبتهم ترجع إلى الراهب القديس مارون وفاته سنة ٤١٠ فــر ولهم دير باسمهم. وقد تصادموا مع المذهب المسيحي الآخر المونوفيزيون الــذين يقولون بان للمسيح طبيعة واحدة واهم قادتهم (أوطيخيا ت. فى القسطنطينية ٤٥٤) (وديوستورس فى الإســكندرية – مــصر ت. ٤٤١ ، ٤٥١) ونتيجــة لهــذا الاختلاف الجذري كان الصراع الطائفي بينهما حيث ساد المشرق العربي المذهب اليعقوبي والمنوفيزي وغيرهم لعدم رغبتهم الخضوع لرومــا باعتبــار الرومــان جاءوا مهيمنين على بلادهم وباعتبار أن عيسى بن مريم السيد المسيح هو أصــلا من المشرق العربي وان مذهبهم يمثله وحاول الإمبراطــور زينــون ٤٧٤-٤٩١ إمبراطور القسطنطينية التوفيق بين هذه المذاهب المسيحية إلا انه فشل.

لقد كان نفوذ الدولة البيزنطية مع الكنيسة فــي رومــا تــأثيره فــي اكتــساح معارضيها وكان ذلك قبل انقسام الكنيسة إلى شرقية تتبع المذهب الاورثوذكي [1] مركزها القسطنطينية والكنيسة الغربية ومركزها روما [2]

---

[1] الأرثوذكس هي العقيدة السوية أو المستقيمة الرأي وهم النصارى الشرقيين (عبد الوهــاب –الكيالي–موسوعة السياسة–المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت سنة ١٩٦٩ صفحة ٣٨٧).

[2] تم انقسام الدولة الرومانية إلى شطرين الشطر الشرقي سمى باسم مدينة البيزنطينية التــي سميت بعد ذلك بالقسطنطينية التي غير اسمها الإمبراطور قسطنطين في ٣٢٤ والقسم الغربــي مركزها روما وفيها رئيس المذهب الكاثوليكي البابا. أما مصر القبطية ظلــت علــى المــذهب اليعقوبي هي والحبشة ولهم رأس ديني يسمونه البابا مركزة في مصر. وهكــذا كمــا قلنــا أن المذهب الكاثوليكي بتأييد من الإمبراطور اكتسح كل المعارضين له بالقوة وأبيدوا عند الرجــوع إلى الأطلس الألماني الذي ذكرناه سابقا نجد في صفحة ٢٩ تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين والى أنواع المذاهب فيها Putzger وللعلم المونو فيزيه تنــسب إلــى اســقف الرهــا ٥٤١= ٥٧٨ هو الذي أولد مذهب اليعاقبة السريان لانه قضى حياته على قرار ما توصل إليــه

(٧٥) ورد في الجريدة البغدادية الزوراء التي تصدرها ولاية بغـــداد بعـــددها ١٥١٧ يوم السبت ٢٨ ذ الحجة ١٣٠٩ المصادف ٢٥ تموز ١٨٩٢ فر أن فـــي استنابول مدرسة لتعليم أولاد العشائر العربية، دخلها الشيخ عجيل باشا شيخ قبائل زبيد سنة ١٣٠٩ هــ =١٨٩٢ فر ولم يذكر سنة تأسيسها ويقول حسان علـــى آل بازركان وجدت في أوراق والدي أن السلطان مراد الرابع عندما اســتولى علـــى بغداد سنة ١٠٤٨هــ المصادف ١٦٣٨ فر وعند عودتـــه لعاصـــمته اســتنابول اصطحب معه قسم من أولاد العشائر العربية مدعياً انه سيدخلهم المدارس ليتعلموا وحقيقة الأمر انه أراد أن يضمن ولاء العشائر الموجودة في العـــراق لــــه. ولـــذا اضطر الأمير ناصر شيخ مشايخ القيسية من إرسال ولدين من أولاده هما احمـــد وخليل وقد اصبحا فيما بعد ولاة الأول لبغداد والثاني للبصرة، اللذان لقبا فيما بعد (آل بازركان) لامتهانهما مهنة التجارة في أستانبول. ويقول علي الشرقي في كتابه ذكرى السعدون ((وكان قد تأسست في فروق مدرسة لأبناء الزعماء والأشـــراف فرغب السلطان عبد الحميد (الثاني) إلى فهد باشا (والد عبد المحسن) أن يرســـل نخبة من أبنائه إلى فروق لينتموا إلى تلك المدرسة وطبعاً كان المقصد من هـــذه

من رأي، وهي الفكرة حول طبيعة النبي عيسى بن مريم عليه السلام حيث قـــال عنـــه أن لـــه طبيعة واحدة وقد دعى إليها أيضا أو طيخا في القسطنطينية وديوســـفورس فـــي الإســـكندرية وادخل عليها ديو سقورس الانطاقى تعديلات هامة. والسريان هم عرب مسيحيون أبناء اللغـــة السريانية وتفرعت منهم عدة كنائس منها اليعاقبة والمارونيين وفي الهنـــد المـــاليزيون وقـــد حرّمها المجمع الخلقيدوني ٤٥١ .

(*) ساويروس الأطاكى ٥٣٨ (٥١٢ – ٥١٨) .

(٣) و فى الهند المالباريون و هم نصارى من الهنود الساكنين فى ســـاحل ملبـــار ، و كـــانوا يتبعون الكنيسة النسطورية فى العراق و حين تحول أتباع هذه الكنيسة الى الكثلكة تحولوا هـــم إليها أيضاً.

الرغبة سياسيا فاختار فهد باشا من بين أولاده عبد المحسن بك ولكن عبد المحسن استوحش أن يفارق حي الأمراء ونوادي الشيوخ نازحاً مغترباً إلى فروق فتطوع أخوه عبد الكريم بك إلى مرافقته ... وتوجها معاً إلى الأستانة (اسـتنابول) ولمـا تخرجا من تلك المدرسة دخلا المدرسة الحربية العالية فتخرجا منها ضابطين في الجيش واختارهما السلطان عبد الحميد في بلاطه "المابين" وبقيا كذلك إلى اعلان الدستور (١٩٠٨).. الخ . [١]

وعبد المحسن من عشيرة السعدون المشهورة في المنتفك وأبيه فهد باشا مـن رؤساءها اللامعين وهي من عشائر نجد قدمت العراق وعقد لها الرآسة.

(٧٦) الشيء الذي يذكر أن الكاتبة كانت تنقل لقرائها كل شـيء سـلبي عـن العرب بصورة عامة وان كانت تعظمها ببعض الآراء الإيجابية.

(٧٧) المدن السورية الأربع هي دمشق وحما وحمص المدينة الرابعـة هـي حلب.

(٧٨) إن إبعاد المدينتين العربيتين بيروت والقدس (أورشليم) من جسم سورية (الشام) شيء ملفت النظر فما هي دواعي هذا الأمر إلا التآمر على العـرب فـان بيروت هي حصة فرنسا من مخطط سايكس بيكو ١٩١٦ والقـدس مـن حـصة الصهاينة وقد بانت كلا الأمرين في دخول القوات الفرنسية بيروت في أوائل سنة ١٩١٩ وإذاعة وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ أي بعد كتابة تقريرها هذا الذي بين يدينا.

(٧٩) أن تأسف الكاتبة على مدينة حلب وارد كونها لم تثر ضد الدولة العثمانية وكان بودها ذلك فكتبت ما كتبت.

---

(1) علي الشرقي ذكرى السعدون تاريخ بطل التضحية والإخلاص مطبعة الشعب ببغـداد ١٩٢٩ صفحة ٥٣.

المقالة الرابعة

ولايات تركية–الجبال الكردية

(٨٠) لقد عرفنا اتجاه الكاتبة مس بيل تجاه الدولة العثمانية وهي تحاول إثبات تمزيقها للقارئ الإنكليزي وعلى هذا الأساس كان حديثها لأننا لا توجد دولة في العالم إذا لم توجد فيها أقليات دينية أو عرقية. وتسوغ لنفسها الحق في التكلم عن ذلك إلا أنها لا تذكر أن في جزيرتها قوميتين مضطهدتين هيمنة إنكلترا عليهما هما اسكوتلندة و ويلز (أو الويلش) فأنها استعمرتهما وفرضت عليها الدمج وقد قدم كل من القوميتين تضحيات كثيرة من الدماء وإنكلترا تحاول خلال اكثر من ثلاثمائة سنة من صهر هذا البلدان إلا أنها عجزت عن ذلك بل اشتد الحركة القومية الخافتة فيهما فلا الإسكتلندي يقبل أن لا يذكر اسمه بل وشم كل ماله باسمه من فرقة رياضية إلى إنتاج محلي وكذلك الويلز.

وبالمناسبة تحاول خلق عناصر من المجتمع المحتل مؤيدة لسياستها من أبناء ذلك المجتمع ويتعاونون معها وتطلق عليهم بـ العناصر المحايدة وتضفي عليها صفة القيادة في المجتمع. ولنضرب مثلاً من تاريخنا العراقي ويعذرني القارئ إذا استطردت كلنا يذكر ليله انتخاب خمسة عشر شخصاً ممثلاً عن المجتمع العراقي ليلة الثامن من رمضان ١٣٣٨هـ وليلة الخميس ٢٧ أيار ١٩٢٠ وقدموا مذكرة فيها مطاليبهم الثلاثة والطلب على مواجهة الحاكم الإنكليزي للعراق وكالة ولسن وسمي هؤلاء بالمتطرفين فاستدعى هو واحد وعشرين شخصية بغدادية من الذين يطلق عليهم أعيان البلد وفي الحقيقة المتعاونين معهم حتى تكون الأكثرية إلى جانب الموقف الإنكليزي ورغم ذلك فان الموقف الوطني كان بارزاً ومدوياً كتبت عنه الصحف ولم يرضخوا للتهديدات التي أطلقها الحاكم العام بالوكالة ولسن ولم يخافوا قولة الحق بينما كان جماعة أعيان البلد الذي أطلق عليهم الحاكم الإنكليزي

قد لجمت أفواههم وحلوقهم وخرج الوفد الوطني منتصراً في عرض مطالبه الوطنية والتي كانت بقيادة حزب حرس الاستقلال ورغم ذلك حاول الحاكم المهيمن أن يبطش بالوطنيين فجر ١٢ أب- ١٩٢٠ وشتت شملهم بين الاعتقال والنفي خارج العراق وآخرين اختفوا عن أنظار السلطة حتى استطاعوا الخروج من بغداد إلى مناطق الثوار. هذه نبذة قدمتها مختصرة بين هذه المواقف التي تحاول مس بيل إخفاءها.

(٨١) اكسينوفون أو زينوفون وهو مؤرخ إغريقي (يوناني) (٤٣٤-٣٥٥) ق.م. في اثينا وهو أيضا قائد عسكري قاتل في كردستان وأرمينيا مناصرة للفرس وله مدرسة فلسفية باسمه[١].

(٨٢) السماور جمعها سماورات تستعمل بالفحم لغلي الماء وصبه مغلي على الشاي ثم يوضع الإبريق عليه حتى يبقى حاراً للشرب. [٢]

(٨٣) النساطرة تبعه البطريك نسطور أو نسطورس (٣٨٠-٤٥١) فر وقد ذكرنا سابقاً وقد سكن هؤلاء القوم منطقة تيارى ويطلق بعد ذلك عليهم بالاشوريون ويقال أصلهم من بقايا الآشوريين.

(٨٤) مسيرة العشرة آلاف إغريقي قادها زينوفون الذي ذكرناه سابقاً لمساعدة الفرس ضد الأرمن والأكراد. [٣]

(٨٥) كليكيا وتكتب سليسيا وهي المنطقة الواقعة شمال مدينة الاسكندرونة وخليج مرسين واهم مدنها اطنة ومرسين وطرسوس ويجري فيها نهران هما سيحان وجيحان ويصبان في البحر المتوسط.

---

[1] قاموس وبستر للأعلام ذكرناه سابقاً بأحرف الإنكليزية صفحة ١٦٠٤.

[2] علي آل بازركان فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق الطبعة الثانية مطبعة الأديب ببغداد سنة ١٩٩٣ صفحة ٣١.

[3] قاموس وبستر للأعلام ذكرناه سابقاً بأحرف الإنكليزية صفحة ١٦٠٤.

(٨٦) الأرمن شعب هندو أوربي استوطن أولا بلاد ارمينا شمال بحـــر (وان) شرق تركيا حالياً ولهم تاريخ وعلاقات مع الدولة العربية العباسية وخلال حـــرب العالمية الأولى شطرت أراضيهم شطرين قسم في الاتحاد السوفيتي السابق وشكلوا دولة لهم ضمن الاتحاد وقسم الحق بالدولة التركية.

وتاريخيا نقول نزح قسمَ من الأرمن لظروف أجبرتهم على النزوح إلى كليكيا وسكنوها وكان ذلك في القرن الحادي عشر فرنجية وأسسوا دولة هناك واطلـــق عليها دولة أرمينيا الصغرى وبعد سقوط هذه الدولة بقيت جاليات كبيرة منهم فـــي المنطقة، فلما استولى الطورانيون على الحكم في الدولة العثمانية وتعصبهم الشديد إلى تركيتهم اضطهدوا القوميات الأخرى التي تتشكل منها الدولة العثمانية ومـــنهم الأرمن وكان سابقاً لهم سوابق مع الدولة العثمانية لإعادة كيان دولتهم فحدثت في أواخر القرن التاسع عشر ثورة للأرمن في محاولة لإعادة دولتهم ولذا تعرضـــوا لمذابح دامية ١٨٩٤-١٨٩٥ فر ثم في ١٩٠٩ ثم ١٩١٥-١٩١٦ ثم أجلتهم الدولة العثمانية عن أراضيهم فتشتتوا في البلدان العربية والأوربية والأمريكية. وكنيستهم يعود تاريخها إلى القرن الثالث فرنجية ورفضت الالتقاء مع الكنيسة الكاثوليكيـــة ولهم مذهب المونوفيزية ثم أصبحت كنيستهم وطنية في القرن الـــسادس فرنجيـــة وتعرف بالكنيسة الغويغورية المنسوبة غريغوريوس المنور ت ٣٣٢ فر رســـول ارمينا وأول أسقف عليها. [1]

(٨٧) جستينيان ويلفظ يوسيتيانوس أو يوستينيانس وهو اســـم لإمبراطـــورين بيزنطيين أول والكبير ٥٢٧-٥٦٥ فر والثانـــــــــــي ٦٨٥-٦٩٥ ومرة ثانيـــة ٧٠٥-٧١١[2]

<u>ملاحظة :</u> أن الحكومة التركية ١٩٢٢ لحد الوقت الحاضر غيرت أسماء المـــدن التركية ولذا نجد صعوبة في مطابقة الاسم الإغريقي أو الاسم العثماني عليها.

---

[1] **المنجد في الأعلام ط ٨ صفحة ٥٠٥.**

[2] **ن. م. س. صفحة ١٦٠.**

المقالة الخامسة

ولايات تركية – الهضبة أناضولية

(٨٨) دولة السلاجقة الروم (١٠٧٣-١٣٠٠) فرنجية

(٨٩) تمتاز سكة الحديد الألمانية بأنها ذات عرض اكبر من باقي السكك لامان القطار.

(٩٠) ثارت الشعوب المحكومة سابقاً من الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان وبتشجيع الدول الأوربية النصرانية على الدولة العثمانية وهي (بلغاريا ورومانيا ومكدونيا واليونان ... الخ لمنع اتصال ألمانيا بتركية.

(٩١) إذا أمعنا النظر باستعراض عام لما كتبته مس بيل نجدها في تناقض في كتاباتها مرة تذم عمل الألمان ومرة تمدحهم في مشاريعهم الاقتصادية وكل هدفها هو خدمة دولتها انكلترا.

(٩٢) ملح البارود هو ملح صخري يتكون من نترات البوتاسيوم أو نترات الصوديوم.

(٩٣) البوابات الكليكية: هو الممر الجبلي الذي يخترق جبال طوروس من أطنة شمالاً بالسكة الحديد وممر للسيارات بين مصبات نهري سيحان وجيحان بين يوليفار داغ (جبل) والأداغ خلال مضيق كولك إلى قونية.

المقالة السادسة

ولايات تركية –الساحل الأناضولي

(٩٤) بير كامون يكتب بالألمانية بيركاموم يكتب بالإنكليزية بيركاما يكتب بالتركية واسمه الحقيقي Per'e- Grimus Pro'teus هو أحد فلاسفة الكلبيين Cymic عاش في القرن الثاني سافر إلى روما إلا أن الإمبراطور الروماني بيوس انطنيوس طرده وحقره مثل ذلك عمل الاثنين معه إلا إن جماعته ومن المؤيدين له كانوا يؤمنون بالواقعية أو ظهور الحقائق الواقعية وقد مرت. وضحى بنفسه في مأتم كئيب حرق نفسه في الملعب الالومبي سنة ١٦٥ فر في أثينا.

(هذا الخبر الغريب ذكره وابلالد) [١]

وفلاسفة الكلبيين Cymic يؤمنون بان الفضيلة هي الخير الأوحد. وجوهرها ضبط النفس. وان السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها وما يعبر عنه في موقف هذا بالسخرية والتهكم. [٢]

(٩٥) الشجرة الفريجية تقع بالقرب من مدينة فريجيا أحد مدن الإغريقية القديمة في آسيا الصغرى وفريجيان أحد أبطال هذه المدينة التي حدثت الموقعة العسكرية بالقرب منها.

(٩٦) شاهد أيها القارئ العربي درجة تعصب الكاتبة لأوربا ضد آسيا.

(٩٧) روبن هود : هو لص إنكليزي خارج عن القانون حبكت عليه قصص شعبية وكتبت فيه القصائد لكتاب–إنكليز عديدون من ١٣٧٧ فر وكان يساعد الفقراء ضد الإقطاعيين. [٣]

---

[1] **معجم ويستر الإنكليزي للأعلام ذكرناه سابقاً صفحة ١١٦٦.**

[2] **قاموس المورد طبعة ١٩٨٢ بيروت صفحة ٢٤٤.**

[3] **معجم ويستر للأعلام صفحة ١٢٦٨.**

(٩٨) دك ترين واسمه ريتشارد ترين والاسم المشهور بـه (دك). (١٧٠٦-١٧٣٩) فر وهو لص إنكليزي كان ابناً لصاحب حانة بيرة (جعة) وصانعاً لقصاب اصبح لصاً للمواشي والغزلان ومهرب وشريك لقاطع الطريق يدعم (توم كينـك) الذي قتله صدفة بالنار (بندقيته) أدين في مدينة يورك بسرقة الخيول واعدم شنقاً.

ويعرف كأسطورة كبطل يركب حصاناً يدعى (بس الأسود) وكان منطقته التي يتجول فيها بين لندن ويورك. [1]

(٩٩) كل الأوربيين يتمنون عودة بيزنطة أو القسطنطينية إلى أوربا وطرد الترك منها كما حصل في الأندلس.

(١٠٠) قد أبدل مصطفى كمال عاصمة الدولة ونقلها عن استانبول إلى انقره وتقول الكاتبة ربما ترجع العاصمة إلى مقرها القديم إلى برسه بعد أن تعود بيزنطية إلى الدول الغربية هذه أمنية الأوربيين.

(١٠١) غاليبولي ميناء يقع على مضيق جنه قلعة وقد انزل الحلفاء في ٢٥ نيسان ١٩١٥ جيوشهم المنقولة بالأساطيل البحرية ثم انهم فشلوا في إنزالهم لانهم لقوا مقاومة عنيفة ومستميتة انسحبوا على اثر ذلك وقدموا خسائر جسيمة بالمعدات وبالأرواح وكان انسحابهم في ٩ كانون الثاني ١٩١٦. *

(١٠٢) أن احتلال أوربا لكليكليا كان هدفهم وان هذا الفأل لم يتحقق إلا وقتاً قصيراً من قبل الجيش الفرنسي بعد عقد الهدنة ١٩١٨ إلا أن الجيش التركي بذل مجهوداً كبيراً في القتال حتى اربك الفرنسيين واضطروا للجلاء عنها وبقيت هذه المقاطعة ضمن الدولة التركية الحديثة.

(١٠٣) احتلت بغداد من قبل المغول التتر سنة ١٢٥٨ فر واحتل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فر.

(١٠٤) هذه هي النظرة الأوربية للوطن العربي الإسلامي بان تكون أوربا صناعية ونكون نحن السوق لتصريف بضائعهم وتكون أرضنا مصدراً للمواد الأولية لهم وأولها النفط.

---

[1] معجم ويستر للعلام صفحة ١٤٩٥.

*** الموسوعة العسكرية –الجزء الأول- المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت سنة ١٩٧٧ صفحة ٦٢٤ وما بعدها.**

طروحات عامة :

(١) أن أهم مشكلة في الزراعة هو جني المحاصيل الزراعية وقد عانت الإمبراطورية الرومانية من ذلك وثورة سيبارتوسوس غير خافية علينا وكذلك الإمبراطورية العربية الإسلامية العباسية ومشكلة الزنج كذلك مشكلة الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية ولكن الكاتبة تتجاهل ذلك وللتاريخ عبر ودروس.

(٢) تتمنى مس بيل أن هذه المدن الموجودة في تركيا أن تكون في أوربا ولا توجد في أسيا. ولكن التمني شئ والواقع شيء أخر. وهكذا أن السيد المسيح أو عيسى بن مريم رسول الله أو كما يدعوه في العالم النصراني يسوع فهو عربي من المنطقة العربية وديانته صدرت إلى أوربا بعد إضافة شيء إليها من وثنيتهم.

(٣) الساحل الأناضولي تقصد ساحل تركيا المطل على بحر إيجه.

(٤) السؤال لماذا يكون الوطن العربي الإسلامي سوقاً لأوربا الصناعية؟ إن طموحنا أن نكون زراعيين وصناعيين وان نأخذ مكاننا تحت الشمس لامة عريقة في التاريخ يمتد إلى اكثر من ستة آلاف سنة فإذا كان ينظر الأوربيون لنا على طريقة اليوغا فإننا يتقلب الأمر عليهم والله في عوننا ما دمنا نتوكل عليه وان شاء الله.

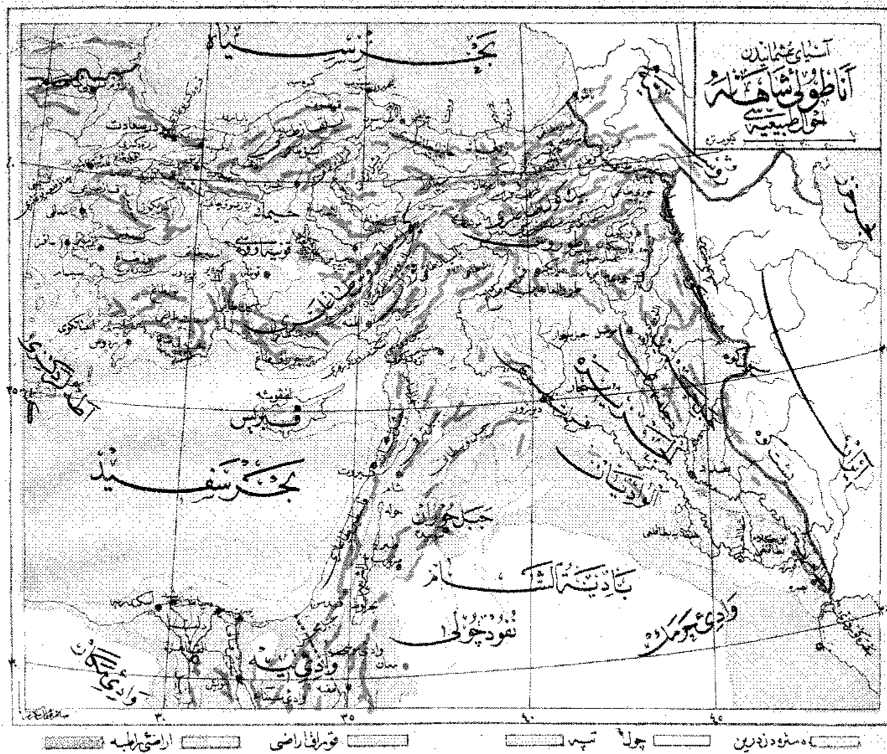
(٥) الروم والأروام اسم أطلقه الأتراك على البيزنطيين وأتى من اسم روما ثم عمموا الاسم على كل النصارى سواء في تركيا الآسيوية أو تركيا الأوربية وبالأخص الإغريقيين (اليونانيين).

(٦) الروملي اسم اطلقه العثمانيون على أوربا العثمانية.

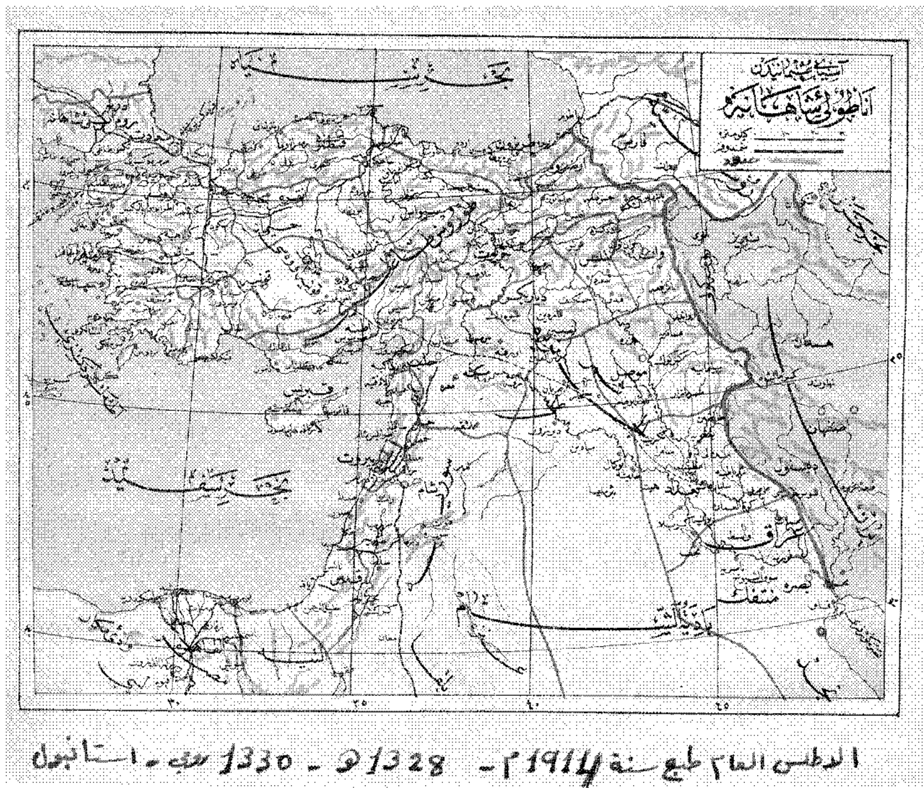
(٧) موآب اسم عربي لوادي عربة في غور الأردن في محافظ الكرك ويسمى غور فيغة.

(٨) مدينة حران كانت تسمى في الزمن الروماني كارهاي.

ملحق بالخرائط

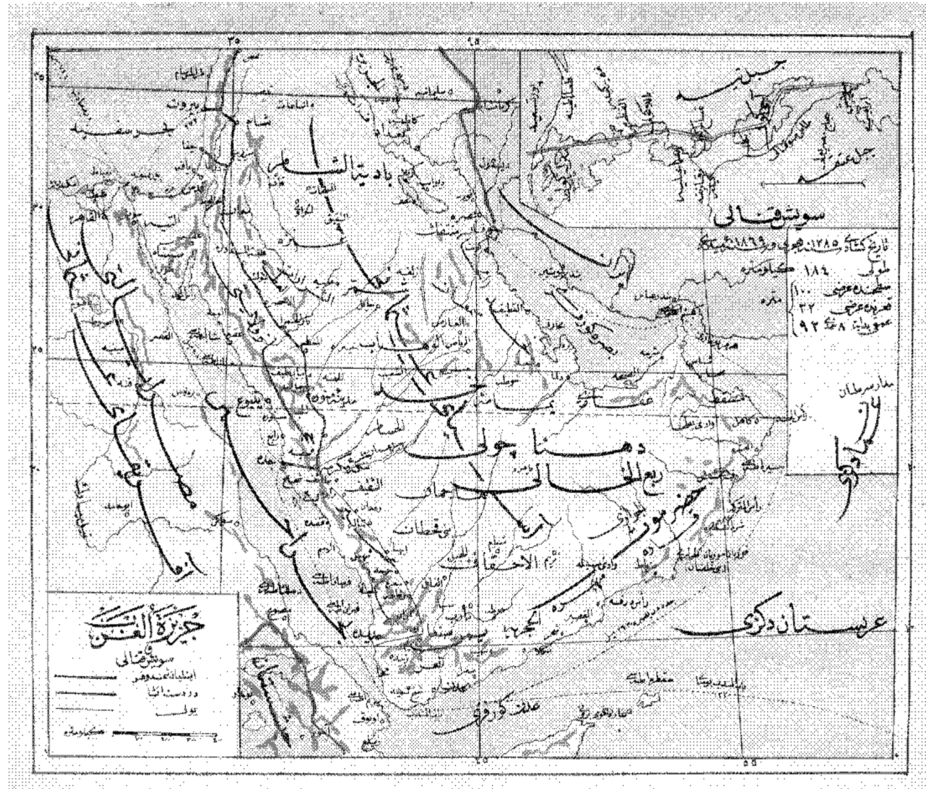


شكل رقم (١)
كتاب عرب بين النهرين



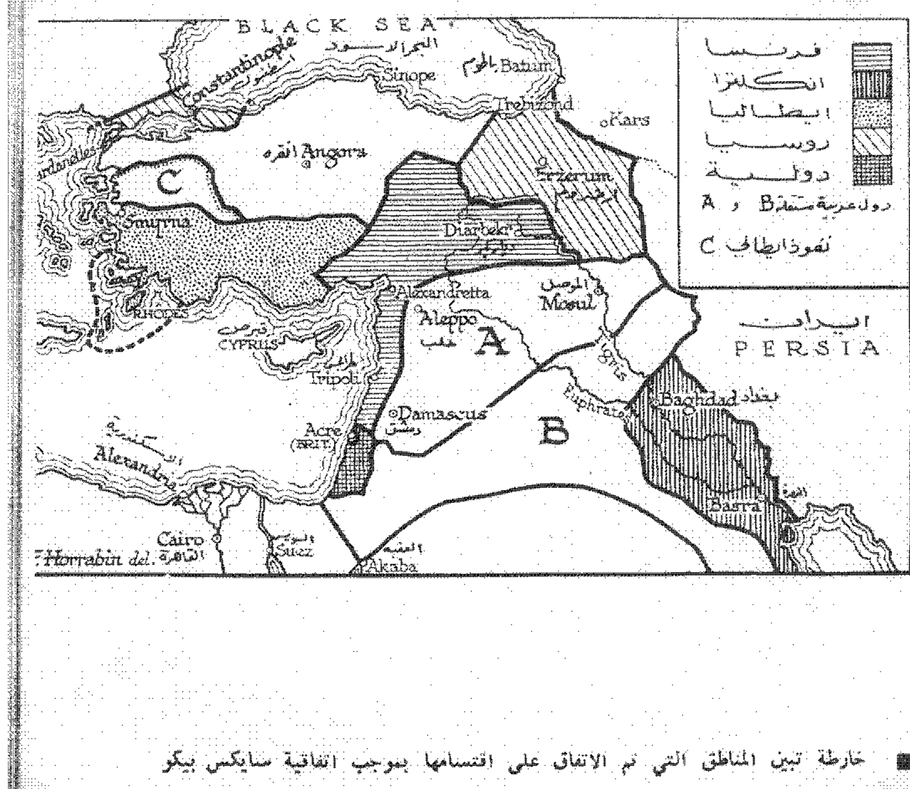
الشكل رقم (٢)

كتاب عرب بين النهرين



الشكل رقم (٣)

كتاب عرب بين النهرين



■ خارطة تبين المناطق التي تم الاتفاق على اقتسامها بموجب اتفاقية سايكس بيكو

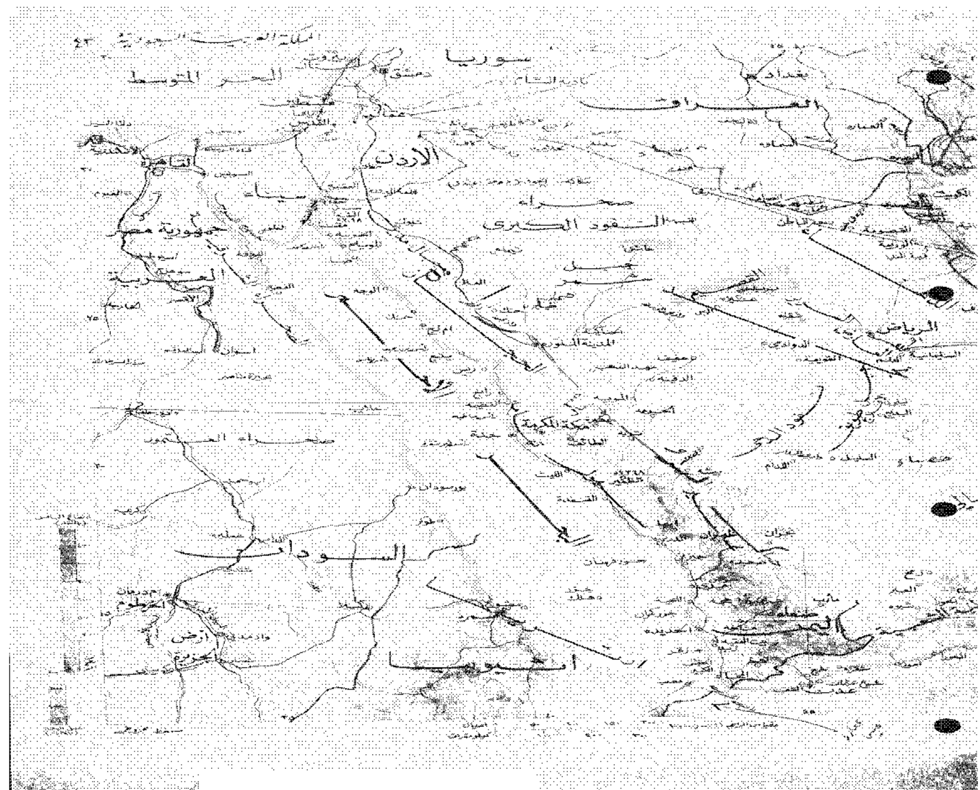
الشكل رقم (٤)
عرب ما بين النهرين
راجع خارطة رقم (٨)

الشكل –٥–

عرب ما بين النهرين

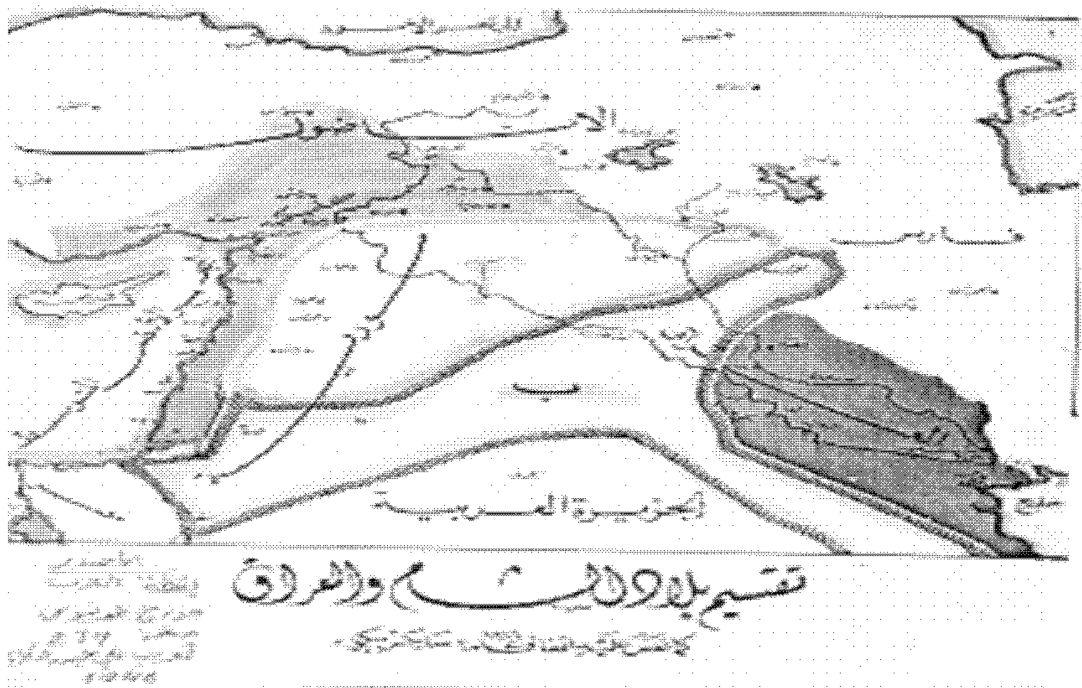
الشكل -٦-

عرب ما بين النهرين

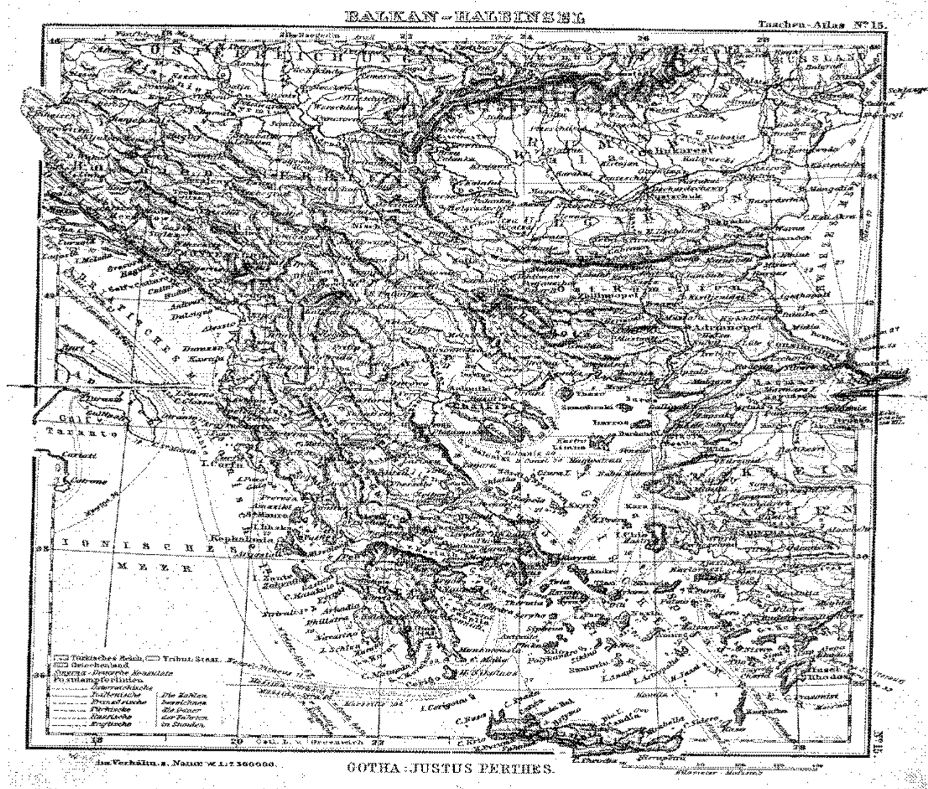


الشكل -٧-

عرب ما بين النهرين

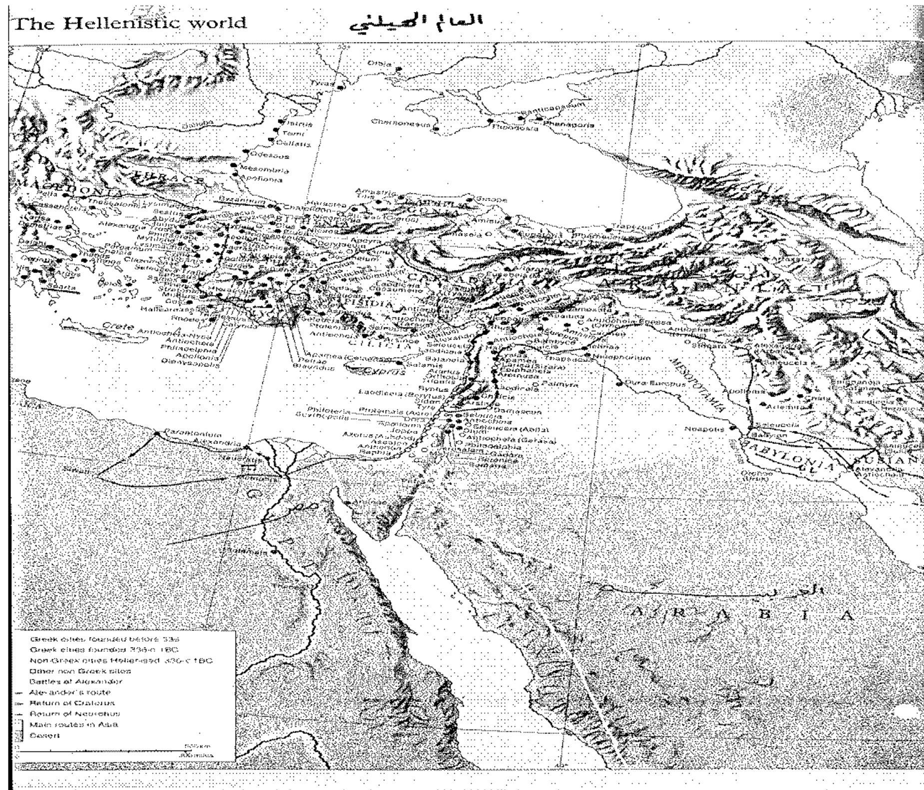


الشكل -8-
عرب ما بين النهرين
راجع رقم (٤)



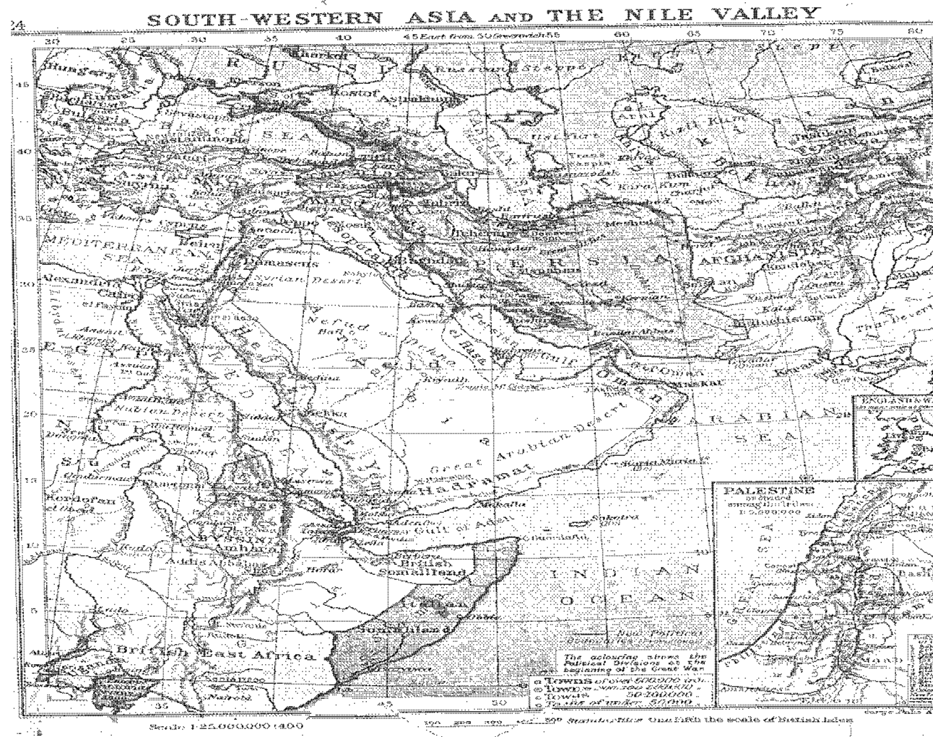
الشكل -٩-

عرب ما بين النهرين



الشكل -١٠-

عرب ما بين النهرين



الشكل -١١-

عرب ما بين النهرين

والحمد والشكر لله

هذا جهد قمنا به وانتهى يوم الجمعة ٨ تشرين الأول ١٩٩٩.

الملاحظة الأخيرة لدى كثير من الأفكار كانت في مخيلتي عندما قرأت الكتاب دونت الذي أستطيع تدوينه ويمكن لأي قارئ عربي للكتاب أن يعلق ويشرح لأشياء لم اذكرها وله الحق في ذلك.

ما دام هدفنا واحد.

والملاحظة المهمة التي ادونها بيدي اني لم اكن احقد على الانكلوسكسون والاوربيين بل لا ارض بالتطرف سواء منهم او منا ومن أي ملة اخرى لان التطرف يولد الكراهية والدماء. فبعداً للتطرف فهو شر على الانسان المصحوب بالشيطان ولذا نحن نقول بسم الله الرحمن الرحيم (قل ربِ اعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك ربي ان يحضرون).

صدق الله العظيم

ارجو ممن له أي تعليق او ملاحظات يكتبها ويرسلها لي وحتى اذا نشرها الرجاء ارسال نسخة منها لي وله مني الف شكر

القاهرة

إتحاد المؤرخين العرب